طارق متري

مدينة على جبل؟

عن الدين والسياسة في أميركا

مقدمة غسان تويني



مدينة على جبل؟

عن الدين والسياسة في أميركا

طارق متري

مدينة على جبل؟

عن الدين والسياسة في أميركا



الطبعة الأولى، شباط ٢٠٠٤

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٥٦١٦٩٣-١-٩٦١

ISBN 2-84289-485-5

مقدمة

حتى يفهم واحدنا ما يجري اليوم في العالم، وبنوع أخص في الشرق الأوسط، يجب أن يعمّق معرفته بنظرة أميركا إلى «الدين والدنيا» لأنها منطلق استراتيجيتها السياسية وبالتالي تصرّفها العسكري الذي يطمح إلى التفرّد بالتحكّم في العالم.

من أجل ذلك، لجأت «دار النهار» إلى الدكتور طارق متري الذي تجتمع في شخصيته مكوّنات ثلاثة، إضافة إلى خبرة فريدة طويلة عبر إدارة قسم الحوار بين الديانات في «مجلس الكنائس العالمي»:

أولاً: معرفة عميقة باللاهوت المسيحي، يدرّسه في جامعة البلمند؛

ثانياً: تأهيل فلسفي وعلم سياسي وسوسيولوجي اكتسبه من دراسته في عدة جامعات أوروبية وأميركية، فنوّع ذلك مناهل معارفه ومنهجياتها؛

ثالثاً: حقبة تدريس في جامعة هارفارد حول حوار الثقافات، خصوصاً من المواقع الإسلامية والمشرقية.

يضاف إلى ذلك أن نشأة طارق متري في طرابلس لبنان و«الميناء» هيّأته كياناً للموقف الحواري في مجتمع إسلامي-مسيحي حافظ على نسبة مرتفعة من وئامه وتكامله، رغم الحرب التي وقع فريستها من الخارج. وقد تمتعت الكنيسة الأرثوذكسية (التي ينتسب إليها طارق انتساباً ناشطاً) بوضع متميز خلاّق في طرابلس، فرض على أبنائها السعي إلى معرفة معمّقة لا بالدين الإسلامي فحسب، بل بقواعد التصرّف الإسلامي وأبعاده على كل صعيد.

تنطلق دراسة الدكتور متري من الجذور «العقائدية» المسيحية لتأسيس أميركا ونظامها، متجهة في معارج تحليل معمّق لمراحل الصحوة الدينية في أميركا، مدرسة بعد مدرسة، من غير التقيد حكماً بالتسلسل الزمني. وتتناول الدراسة مواقف الأميركيين، لا من تكوينهم الديني فحسب، بل من الجماعات الأخرى التي تعاملوا معها أو هي انضمّت إلى الجسم الأميركي أو نشأت من ضمنه. وتنتهي الدراسة، عبر فصولها الخمسة، إلى الإحاطة بالواقع الحالي وبالتطلعات المعاصرة وفاعلية النظرة الدينية الأميركية في فهم العالم والتصرف حياله. وبديهي أن تشغل النظرة «الماسيانية» (الترقبية) محلّها المركزي في هذا البحث، خصوصاً في ضوء تزايد الآخذين بها، واحتلالها موقع الصدارة في التأثير على سياسة الرئيس جورج دبليو بوش والحلقة الحميمة من مستشاريه ومساعديه، في البيت الأبيض وخارجه، ومفسّري نهجه ومفلسفيه.

موقف الدكتور طارق متري من هذا التطوّر الخطير في السياسة الأميركية لن يفاجئ القارئ، إذ كان قد صار معروفاً عبر مقالاته وبياناته وتصريحاته بوصفه الناطق بلسان مجلس الكنائس العالمي - خلال التطورات التي تلت عدوان ١١/ ٩ الإرهابي - وبرز في تمثيله المجلس خلال قيادة المعارضة المسيحية لحرب العراق التي أيّدها الفاتيكان بمواقف بابوية شديدة اللهجة عميقة التجذّر في الرسالة المسيحية.

وإذا كان الحوار المسيحي-الإسلامي الذي انطلق من هذه المواقف لم يمنع الحرب، فحسبه الأثر العميق الذي تبرز أهميته التاريخية والتأثير المرتقب على مستقبل الفكر الإنساني في السياسة والتكوّن الاجتماعي ومستقبل ما كان يوصف، زوراً، بصراع الحضارات.

وهو هذا الموقف بالذات الذي أسقط الادعاء - الناشئ من خطأ لعلّه بلغ شاطئ الخطيئة - بأن حرب أميركا على العراق وانطلاقاً منه إنما هي «صليبيّة» جديدة.

في ظلمات المناقشات التائهة انطلاقاً من الأزمة العالمية الحاضرة ومضاعفاتها، تفتخر «دار النهار» بنشر هذا الكتاب لثقتها بأنه، على تواضع

إطلالة صاحبه، سيكون الباب الفسيح لولوج المعرفة الحقّة التي تجمع، صافية هادئة، إلى العقلانية الفلسفية، تعمّقاً في التحليل الواقعي للتاريخ يندر أن تجاريه منهجية علمية أخرى.

غسان تويني

الإهداء

إلى إليان وداليه وزياد

لأننا كثيراً ما نتحدّث عن الدين والسياسة . . . في غير أميركا

تقديم

كثيراً ما استعار المتدينون في الولايات المتحدة، بدءاً من القرن السابع عشر، لغة الكتاب المقدّس لدى روايتهم قصة أميركا وحديثهم عن «رسالتها» بين الأمم. ومنذ استيطان المهاجرين الأوروبيين الأوائل شاطىء «العالم الجديد» الشرقي إلى اليوم، يتكرّر القول، بصيغ ونبرات مختلفة، ان أميركا بمثابة «أمة مختارة» لها دعوة بيِّنة وهي تسير الى مصيرها برعاية الله. ويستعين هذا القول بصور من العهد القديم مثل «أرض الميعاد» في سفر الخروج، وأخرى من العهد الجديد مثل «مدينة على جبل» التي ورد ذكرها في عظة يسوع المسيح الكبرى، حسب انجيل متى القائل: «انتم نور العالم. لا تخفى مدينة موضوعة على جبل ولا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت»(*).

هناك إحساس قوي بفرادة أميركا ونموذجيتها، تعزِّزه المشاعر الدينية التي تثيرها عبارة «مدينة على جبل» في نفوس من يحسبون ان النصّ يخاطبهم كمسيحيين وكأميركيين في آن واحد. ويرى غير مؤرخ ان فكرة الوحدانية الأميركية، التي لها تعبير علماني معاصر هو «الاستثناء الأميركي» أو «الاختبار الأميركي»، ظهرت للمرة الأولى في خطاب ألقاه الطهراني جون وينثروب John Winthrop وذكر فيه عبارة «مدينة على جبل»، مستنهضاً الذين

---

* متى ٥: ١٤ – ١٥، الكتاب المقدس، ترجمة الآباء اليسوعيين، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٩.

أبحروا معه من انكلتره نحو الأرض الجديدة.

لم يكن هذا الاستعمال للصورة الإنجيلية السبب الوحيد لاختيارنا إياها عنواناً لكتاب يتناول مسائل الدين والسياسة في أميركا المعاصرة. فقد جاءت على لسان الرئيس رونالد ريغان وفي سياق آخر يعنينا بصورة خاصة. فالرجل الذي تزامن عهده مع صعود التيارات الانجيلية المحافظة وازدياد تأثيرها في الحياة العامة تحدّث في خطابه الرئاسي الوداعي عام ١٩٨٩ عن «مدينة مضيئة على جبل... باركها الله... وكانت منيعة وفخورة».

كان رونالد ريغان مسيحياً مؤمناً وقومياً أميركياً، تعاطف الانجيليون المتشددون معه بقوة رغم انه لم يكن عميق التديّن كسلفه جيمي كارتر، الذي ابتعدوا عنه، أو كجورج دبليو بوش الذي يتمتع اليوم بتأييد كبير في صفوفهم. وكان المتدينون المحافظون قد تحوّلوا الى قوة انتخابية وسياسية يحسب حسابها بعدما نظموا صفوفهم إبان حملتهم لتأييد ريغان في الانتخابات الرئاسية عام ١٩٨٠، والتي أخرجت الكثيرين بينهم من حالة العزوف عن المشاركة في الحياة العامة التي عُرفوا بها. أكثر من ذلك، افتتح انتخاب ريغان مرحلة جديدة في العلاقة بين الدين والسياسة رسم ملامحها الانجيليون المحافظون حتى صاروا اليوم، بعد تقدم وتعثر فتقدم، قوة مؤثرة في سياسة أميركا الداخلية والخارجية.

ان اللغة الدينية التي يتحدث فيها ريغان عن إنجازات عهده تشير بلا شك الى تغيير لا في مكانة الدين في حياة أميركا فحسب بل أيضاً الى منزلة أميركا في وعي الأميركيين المتدينين. والتغيير المذكور الذي يحاول هذا الكتاب ان يتفحّصه، لا يعيد المسيحيين في أميركا الى الوراء من حيث تمثّل الماضي، بل يستقوي بالذاكرة فيما يعيد اختراعها. وهذا ما يدعونا إلى قراءة تاريخ الولايات المتحدة الديني على نحو يخصّ بالاهتمام كل صحوة أو حركة إحياء قالت بتغيير العلاقة بين الدين والسياسة ودعت الى استلهام الماضي.

والحديث عن الدين في أميركا من حيث علاقته بالسياسة هو في حقيقة الأمر حديث عن «دينين». فهناك دين الكنائس والحركات الإحيائية وسائر الجماعات الدينية الجديدة التي تحدّد ذاتها أولاً بحسب العقيدة التي تؤمن بها

و«الدين المدني» الذي يحدد معايير أخلاقية وسلوكية للأمة والذي تشترك فيه، وإن بأقدار متفاوتة، أكثرية الأميركيين. لقد رأينا مناسباً ان نستعرض ملامح هذا الأخير ووظائفه، في الفصل الأول من الكتاب، وقبل الدخول في خصوصيات المذاهب والأديان وأوضاعها الحاضرة. فالتعرف اليه يلقي ضوءاً كاشفاً على مقاربة هذه المذاهب والأديان لشؤون السياسة.

غير اننا لا نناقش طويلاً قوة هذا «الدين المدني» في الأيام الحاضرة لأننا لا نملك أدوات لقياسها. ثم ان ظاهرة الدين العام التي درسها في خصوصيتها الأميركية روبرت بيلاً Robert Bellah وسار في ركابه الكثيرون، هي في المنظور القيَمي اثنتان. فهناك من يحسب «الدين المدني» نظاماً اعتقادياً يحافظ على وحدة الأمة عن طريق تعزيز البنى الرمزية والقيم المشتركة المتجذرة في تاريخها الخاص. في المقابل ثمة من يرى مخاطر النزعة في الدين المدني الى تقديس أميركا بل عبادتها.

فالقوى الدينية المحافظة تشدّد على فكرة الشعب المختار وتضفي طابع القدسية على نصوص أميركا التأسيسية، مثل الدستور وإعلان الاستقلال، وتتمسّك بالنظام الاقتصادي تمسُكاً شبه ديني، وتعتبر طرق العيش الأميركية نموذجاً يُحتذى، وتشدّد على الحرية الدينية على نحو يفوق حرصها على الحريات المدنية والسياسية.

اما المتدينون الليبراليون فيقللون من شأن الفرادة الأميركية. واذا ما اعتبروا أن الله يبارك أميركا يسارعون الى القول ان هذه المباركة مشروطة بتحقيق العدالة وهي في كل حال لا تميّز شعباً بعينه عن سواه من الشعوب.

ان ثنائية القطبين داخل البروتستانتية الأميركية تشغل كل صفحات الكتاب. وبسبب من هذه الثنائية ترددنا قليلاً قبل مخالفتنا المألوف وهو البدء بالعرض التاريخي قبل النظر في الحالة الراهنة.

ودفعتنا الانتقائية في قراءتنا الموجزة للتاريخ الى تفضيل الشروع في وصف المشهد الديني الحالي لانه أكثر اشتمالاً للتنوع في الواقع الأميركي مما قد توحي به الرحلة السريعة من الماضي الى الحاضر.

بطبيعة الحال، لا يعطي الفصل الأول أهمية متساوية لكل الأديان

والمذاهب، بل يتوقف بالدرجة الأولى عند أوضاع الإنجيليين المحافظين وعند خصومهم البروتستانتيين الليبراليين. ذلك ان الكتاب معني بالدرجة الأولى بالأخذ والردّ الراهن في أمور الدين والسياسة وهو الذي تلعب فيه السجالات داخل البروتستانتية الدور الأكبر.

وللسبب نفسه أعطى هذا الفصل الأول مساحة كبيرة نسبياً لما سمّاه الروحانية الأميركية لان ازدهارها، في ظهوره الاجتماعي اللافت، يمثل نوعاً من «عودة الدين». وهي تتسم بالخصوصية من حيث تفاعلها بأشكال غير مسبوقة مع أكثر الحداثات حداثة ومع واقع التنوّع الديني المستجد في الولايات المتحدة. وهذا ما نصفه بشكل موجز في آخر الفصل الأول وننهي به أيضاً الفصل الثاني.

لقد اعتمدنا مصطلح الإنجيليين المحافظين للإشارة الى فئة واسعة ومتنوعة من البروتستانتيين الأميركيين تشكل القاعدة الشعبية، اذا جاز التعبير، لفئة مُسيَّسة ومتحركة غالباً ما تسمّى «اليمين المسيحي». ليست هذه الفئة متجانسة، غير أنها تميّز نفسها عن بروتستانتية الخط الرئيسي في مسائل العقيدة والأخلاق والعلاقة بين الدين والسياسة. وليس كل الانجيليين المحافظين أصوليين بالمعنى الدقيق للكلمة.

غني عن القول ان مصطلح الأصولية ينتمي في الأصل الى التاريخ الديني الخاص للولايات المتحدة. والأصولية البروتستانتية الأميركية معارضة لليبرالية باسم اليقين ان الكتاب المقدس كتاب الحقيقة، روحاً ونصاً، ولا تشوبه أخطاء تاريخية وعلمية. لقد قامت هذه المعارضة باسم التمسّك بحقائق أو «أصول» مسيحية غير قابلة للتعديل أو المراجعة.

لكن المصطلح المذكور أُسقط على ظواهر دينية معاصرة أخرى وفي غير منطقة من العالم. وبات أحياناً كثيرة يربط بين ألوان متنوعة من حركات توكيد الهوية وتسويغ المشاريع السياسية باسم الدين والغلو في إعلان التديّن. كما بدا مرادفاً للقول بالعودة الى النصوص الأصلية للأديان من دون اعتبار يذكر للخبرة التاريخية للجماعات.

ومال عدد من العلمانيين الايديولوجيين، في عدائهم لصعود الأصولية،

الى الخلط بين تشدد أهل التقوى والتمسّك بالتقاليد والنزعة الى اعتماد العنف سبيلاً للدفاع عن الدين المهدَّد أو الدعوة اليه. غير ان الكثيرين يتحدثون عن أصوليات لا عن ظاهرة أصولية كونية واحدة تختلف بتعبيراتها باختلاف الأديان والمناطق والبلدان. ويخلص مشروع بحثي ضخم بدأ العمل به في التسعينات، وأشرف عليه مارتن مارتي Martin Marty وسكوت ابلبي Scott Appleby في جامعة شيكاغو، الى الحديث عن خصائص مشتركة بين حركات تقوم على استراتيجية المحافظة على هوية مهددة واقتراح نموذج مجتمع باسم هذه الهوية عن طريق استعادة عقائد وممارسات من ماضٍ محدد في الزمن ويعتبر مقدساً. بطبيعة الحال تشترك الأصولية البروتستانتية في هذه الخصائص، إلا أننا اكتفينا في هذا الكتاب بتعريفها في سياقها التاريخي الأميركي وبحسب خصوصيتها العقدية.

ويميّز الفصل الأول بين «المولودين من جديد» وهم فئة أوسع من الانجيليين المحافظين وبين هؤلاء ونواة صلبة من الأصوليين. كما يبيّن ان الهوية الانجيلية بالمعني البروتستانتي العام شيء وتلك التي يقول بها الانجيليون المحافظون شيء آخر.

ويقتضي هذا التمييز النظر بشيء من التفصيل الى التأكيدات العقدية التي يجاهر بها «المولودون من جديد» والانجيليون المحافظون ويعيدون ترتيبها، بخلاف الأصوليين، حسب الظروف المتغيّرة.

بالطبع، ليس الجانب العقدي في شخصية هذه الفئات محطّ الاهتمام الأول في هذا الكتاب، بل العلاقة بين خصوصيتهم المسيحية وقوميتهم الأميركية، والتي يتناولها الفصل الثالث، وموقفهم من اسرائيل وعلاقتهم باليهود، وهو المبحث الرئيسي للفصل الرابع، ومقدار التغييرات في تديّنهم التي أحدثها تسيّسهم، وهو موضوع الفصل الخامس.

ويتوقف الفصل الثالث أيضاً أمام تفسير الانجيليين المحافظين الديني لأحداث الحادي عشر من أيلول - سبتمبر ٢٠٠١. ويتناول اختلاف المسيحيين الأميركيين حول الإسلام والمسلمين وفي أمر الحرب على العراق والتي رأت كنائس الخط الرئيسي انها غير عادلة.

أما الفصل الرابع فانه يخصّ بتفصيل أكبر فئة محدّدة من الأصوليين هم الحقباتبون، الذين يرتبط موقفهم المؤيد بحماسة لإسرائيل وتوسعها بقراءة محدّدة للنصوص الكتابية وبتوقع نهاية الأزمنة أو انتظارها. ولا يغيب عنه بعد ذلك ان يُظهر الانقسام بين البروتستانتيين في أمر اسرائيل والتنوّع في مواقف الانجيليين المحافظين أنفسهم. فالبروتستانتية الأميركية ليست مسيحية متهوّدة، كما يقول البعض بخفة خطيرة، ولا كل الإنجيليين المحافظين صهاينة، كما يستسهل قوله البعض الآخر.

وفيما يتجاوز الموقف من إسرائيل إلى شؤون التعدد الديني والأخلاق العامة والدين والدولة، يحاول هذا الكتاب ان لا يقع في اختزال يردّ السياسة الى اعتبارات الدين أو يقرأ سياسياً لكل ما يدور داخله.

ولا يتعدّى القصد ها هنا مجرّد تكرار للقول الذي يبدو للبعض من نوافل القول. فالتذكير بما يراه بديهياً كل مهتم بقضايا الدين أو شؤون السياسة، لم يعد مجرد اعادة مملة. فبعد عقود من تجاهل للدين وتأثيره في الحياة العامة، في الغرب وبلا تمييز بين بلد وآخر، يجنح اليوم بعض الكتّاب الى تعظيم دوره في صنع السياسة.

وربّ قائل ان التعرّف الى مكانة البروتستانتية في شخصية الولايات المتحدة الجمعية شرط لتفسير انحياز هذه الدولة السافر الى اسرائيل. ويفوته ان العلاقة «الشديدة الخصوصية بين الدولتين» تعود الى أول أيام الرئيس جون كينيدي في عام ١٩٦١. وان الاعتبارات الدينية لم يكن لها يومذاك أي دور يذكر. كانت أميركا بروتستانتية قبل ذلك وكان الانجيليون المحافظون جمهوراً كبيراً، وكانوا يحبون اسرائيل، وكان بينهم من يربط ذلك بتحقيق الوعود الالهية أو بنهاية الأزمنة. غير أن قراءة البروتستانتية المتواترة للعهد القديم و اللجوء الى نماذج منه في تشكيل صورة الذات الأميركية، لم تولّد بحدّ ذاتها حماسة ظاهرة في دعم اسرائيل. اما الانجيليون المحافظون فكانوا بعيدين من السياسة، ومن السياسة الخارجية بصفة أخصّ. ولم يكن لموقفهم من اسرائيل تأثير كبير في رسم سياسة أميركا.

لذلك، يحاذر الفصل الرابع، والذي يتحدث عن لقاء الماسيانيين،

الخلط بين النوازع الدينية وشبه الدينية والحسابات السياسية. فالتحالف الراهن بين الإنجيليين المحافظين والمحافظين الجدد وجماعات الضغط اليهودية المؤيدة لليمين الإسرائيلي ليس زواجاً كاثوليكياً. فلكل فئة منهم ماسيانيته.

فماسيانية النواة الحقباتية داخل التيار الانجيلي المحافظ هي انتظار لمجيء المسيح الثاني وإقامة حكمه الذي يملأ الأرض عدلاً وسعادة. لكن هذا الانتظار لا يلغي إمكان بعض التدخل لاستعجال تحقيق الوعود الالهية وهو يرى المستقبل بصورة خمسة مشاهد متتالية يختفي اليهود في الرابع منها.

وبخلاف الماسيانية الأصولية المسيحية، لا تخرج ماسيانية اليهود المتدينين عن إيمانهم التقليدي، وان بدت غريبة عند بعض غلاتهم كاللوبافيتش والذين رجّح معظمهم ان يكون الحاخام شنرسون ماسيا المنتظر. من جهتها، ترى ماسيانية اليهود غير المتدينين ان الشعب اليهودي نفسه هو صاحب رسالة عليا ودور فريد في بناء عالم أفضل.

أما ماسيانية المحافظين الجدد فهي في حقيقة الأمر بمثابة ايديولوجية علمانية، حتى ولو أعطى بعضهم للدين شيئاً من الأهمية، تدور حول مهمة الولايات المتحدة الخلاصية الكونية، بوصفها صاحبة النظام الاجتماعي والسياسي النموذجي والمتمتعة بالقوة اللازمة لحمايته وتعميمه.

وتبقى قضية ثبات التحالف الثلاثي واستمراره مفتوحة أمام نقاش أوسع مما تتيحه صفحات هذا الكتاب. ويكتفي الفصل الخامس، الذي يحاول استشراف المستقبل، ان يشير إلى أهم أسئلته.

* * *

لغسان تويني الفضل الأول في إنجاز هذا العمل ، منذ أن أصرّ على ألاّ أعود من هارفارد من دون مسوّدة لهذا الكتاب ، وأثار ، كعادته ، أسئلة شغلتني أثناء كتابته .

وكانت ڤيڤيان فؤاد حثّتني على الكتابة عن الإنجيليين الأصوليين المؤيدين لإسرائيل بعدما نقلت إليّ أفكاراً فاجأها بها شبان وشابات من مصر .

ودفعتني لمتابعة المسائل التي يتناولها الكتاب رسائل عديدة ، وردتني بالبريد الالكتروني ، تعليقاً على محاضرة لي في الولايات المتحدة أو مقال . لم أجب عليها كلها . غير اني توقفت عند رسائل متكرّرة من سيدتين أعرف اسميهما الأولين أو المستعارين . فأجريت حواراً مع اغنيس ، وهي ليبرالية مثقفة مهتمة بالتعدّد الديني في أميركا . أما شيلي ، وهي إنجيلية محافظة لا تخلو كتابتها من السذاجة ، فقدمت لي النصيحة تلو الأخرى وصلّت من أجل هدايتي الى «المسيحية الحق» .

وخلال الفصل الدراسي الذي أمضيته عام ٢٠٠٣ أستاذاً زائراً في جامعة هارڤارد ، أتيح لي أن أشارك في ندوات تدارست هذا الموضوع أو ذاك ممّا يتعرّض له الكتاب . كما أفدت من آراء أساتذة وطلاب كثيرين وكتاباتهم . وأخصّ منهم بالذكر الأستاذة ديانا ايك والأستاذ هارفي كوكس والطلاب ستيفاني سلدانيا وبدر السيف واريك باربي .

لكل هؤلاء الأصدقاء جزيل امتناني .

الفصل الأول

المشهد الديني الأميركي

حين زار الفرنسي الكسي دو توكڤيل Alexis de Tocqueville الولايات المتحدة في مطلع القرن التاسع عشر، لفتته حيوية الدين في تلك البلاد الواسعة وتعدد مذاهبه والارتفاع في نسبة الذين يرتادون دور العبادة بانتظام. لم يكن للواقع الذي عاينه شبيه في أوروبا. وبدا له ان مبدأ حرية الاختيار بين مذهب وآخر مقبول وفاعل، بخلاف المجتمعات الأخرى. ورأى سوقاً تُعرض فيها أنواع شتى من المعتقدات والممارسات والمنظمات الدينية على نحو يعكس نمو السكان وتنوعهم. واعتبر ان حاجة أميركا الى الدين هي الوجه الآخر للحاجة الى غربلة النزعة القوية الى المادية والفردانية أو تنقيتها. وعزا قوة الدين الى الفصل بينه وبين المؤسسات السياسية. فهو بخلاف أوروبا يحتل مكانة كبيرة في الحياة الأميركية لأنه فاعل على الصعيد الاجتماعي. فالدولة تترك للمجتمع شأن الاهتمام بذاته ممّا يعزز ميلاً عند الناس للانضمام الى هيئات تطوعية معظمها كنسي[1].

التديّن الأميركي: ملاحظات أوّلية

واليوم، لا تغيب ملاحظات دو توكڤيل، والخاصة بالحياة الدينية وعلاقتها بالديموقراطية الأميركية والتنوّع السكاني، عن دارسي الدين في الولايات المتحدة. ويتحدث الكثيرون عن «السوق الديني» النابض بالحيوية ويؤكدون أن حرية الاختيار بين الكنائس والهيئات الدينية، والمفاضلة بين متطلبات الانتماء إليها وما تقدّمه على صعد اليقين والاستقرار والذاكرة والحس بالجماعة، ظاهرة أميركية بامتياز. فالأميركيون مازالوا، في شأن الدين، يضعون في الميزان، وان بطريقة نصف واعية، الكلفة المتعلقة بالمشاركة المطلوبة في جماعة دينية والانتظام العقائدي المتوقع من المنضمّين اليها والمساهمة المالية المتوجّبة عليهم. ويضعون مقابلها الفوائد

المعنوية التي تقدّمها الكنائس أو تعد بها. وغالباً ما تجري المقارنة، على سبيل المثال، بين أشكال ليبرالية من التديّن قليلة المتطلبات وفقيرة المردود لجهة الشعور بالاطمئنان والرضا عن الذات، وأشكال محافظة لها ثمن أعلى ومقابل له أكبر[٢]. وتشير استطلاعات رأي كثيرة الى أن نسبة الذين يحسبون أنفسهم سعداء، من بين القائلين بأن الإيمان الديني مهم في حياتهم، هي أعلى بشكل ملحوظ عند الملتزمين بنوع من التديّن «الصلب» منها عند ذوي الاهتمام الديني «الرخو».

ويرى عدد كبير من علماء الاجتماع علاقة وثيقة اليوم بين الإقبال على التديّن، بمختلف أشكاله، والتنوّع الديني. فكثرة العرض، اذا جاز التعبير، تشجّع الطلب. فبسبب هذا التنوّع نجد إمكاناً أكبر للتجاوب مع الحاجات الدينية وشبه الدينية للناس، واعية كانت أم كامنة. وفي كل حال لا يبدو أن هذه الحاجات الى تناقص، فمقابل سيادة الفردانية والمادية هناك جوع الى الجماعة والمعنى الروحي. ويحسب عدد من الدارسين هذا الواقع بمثابة «الاستثناء الأميركي» بين المجتمعات ما بعد الصناعية. وهو «المفارقة الأميركية» حسب عنوان كتاب لعالم النفس دافيد مايرز David Myers الذي يناقش فيه «الجوع الروحي في عصر الوفرة»[٣].

الى هذه «المفارقة» تشير أيضاً دراسة أجرتها عام ١٩٩٨ جامعة هارڤارد، بالتعاون مع صحيفة Washington Post. فالأميركيون ماديون وفردانيون ويحبون الوفرة ويسعون اليها بلا خجل أو حرج وهم مهجوسون بالصحة، النفسية منها خصوصاً. لكنهم، وبنسبة ٧٦٪، يعبِّرون عن قلق في ما يختص بمسائل القيم والأخلاق والروح[٤]. وهذا القلق هو الوجه الآخر للإقبال على التديّن. هناك ٤٠٪ من الأميركيين يقولون انهم يرتادون الكنيسة أسبوعياً، وهذه نسبة عالية جداً أياً كان من احتمالات المبالغة. وهناك ٩٠٪ منهم يؤكدون انهم يؤمنون بالله، وهذه نسبة عالية أيضاً في مجتمع تسمح الفردانية والحرية للناس بأن يفصحوا عن شكّهم أو لاادريتهم اذا ما شاؤوا ذلك.

هناك دراسات عديدة وتفصيلية واستطلاعات رأي تكاد تطال كل جوانب الحياة الدينية في أميركا. إلا أن هذا الفصل ليس مختصراً لعلم اجتماع الدين

في الولايات المتحدة لكي يفيها حقها. انه محاولة قراءة لأهم الخصائص الأميركية للدين المعاش. لكنها قراءة تخصّ الحركات الانجيلية الاحيائية بالاهتمام الأكبر، لما لهذه الحركات من نفوذ متزايد في الحياة العامة يستدعي كلاماً كثيراً عنها. ولا تخلو غزارته من الاستعجال والميل الى التعميم أو الاختزال.

بالطبع، لن يكون هذا الاهتمام على حساب مقاربة البروتستانتية في مختلف مذاهبها أو اتجاهاتها. في الوقت نفسه، لا يعني التوقف عند البروتستانتية، وهي التي انطبعت بها الخبرة الدينية الأميركية أكثر من أي تراث ديني آخر، الاكتفاء بالنظر الى التنوّع والاختلاف والاصطفاف داخلها. فلا بدّ من التعرف إليها في سياق المشهد الديني الأميركي العام.

وقبل الدخول في تفاصيل هذه المشهد، لجهة ذكر المذاهب وتصنيفها وإظهار خصائصها وأحجامها وتسمية الحركات الاحيائية، نتوقف عند عدد محدود من الاستطلاعات الكثيرة التي تشير الى أهمية الدين ومكانته وتأثيره. ويقودنا ذلك الى رسم خريطة أولية للإنتماء أم للانتماء؟ الديني والممارسة. ثم تلي ذلك التفاتة صوب ما سمّي «الدين المدني» من جهة أولى، وإلى ما بات يسمّى اليوم «الروحانية الأميركية» من جهة ثانية. ولعلّ هذه الالتفاتة تساهم في فهم أفضل لخصوصية المذاهب المسيحية في أميركا وما يحكم العلاقات في ما بينها ويؤثر في مواقفها من الأديان الأخرى.

قوة أميركا في دينها

في استطلاع للرأي عام ١٩٩٨، وآخر عام ٢٠٠٢، قال ثلاثة من خمسة أميركيين ان الدين «مهم جداً» في حياتهم. وارتفعت بذلك ٧٪ عمّا كانت عليه عام ١٩٨٨[٥]. وفي آخر عام ٢٠٠١، أي بعد أحداث ١١ أيلول – سبتمبر بقليل، أكدّ ٧١٪ من الأميركيين ان أهمية الدين ازدادت في أميركا. لكن هذه النسبة عادت فانخفضت قليلاً في آذار – مارس ٢٠٠٢[٦].

وتبلغ الإجابة بأن الدين «مهم جداً» في حياتهم حدّها الأعلى بين المعمدانيين الجنوبيين (٧٧٪) فيما تنخفض الى ٧٥٪ عند الكاثوليك لتصل

الى أدنى حدّ عند اليهود (٢٢٪). وفي استطلاع الرأي نفسه، يعلن ٥٩٪ من الأميركيين أن الكنائس تحظى بثقتهم الكبيرة فيما يقول ٣٨٪ ان عندهم بعض الثقة بها. ويجيء ترتيب الكنائس أولاً في مؤشر الثقة، قبل القضاء والجيش والمدارس والكونغرس ورئاسة الجمهورية[٧].

وفي عام ١٩٨٨، كان أميركيّان من أصل خمسة يعتقدان أن للدين تأثيراً متزايداً على حياة الأميركيين. وكانت هذه النسبة تصاعدت من أول السبعينات لتبلغ حدّها الأعلى عام ١٩٨٥ أي (٤٩٪) لتعود فتنخفض عام ١٩٩٠.

ويتيح لنا استطلاع أجري عام ٢٠٠٢ رؤية المسألة من زاوية أخرى. فعلى السؤال حول استناد قوة أميركا على الايمان الديني يردّ ٥٨٪ بالإيجاب. ويذهب ٤٨٪ الى أبعد إذ يقولون نعم في الجواب على السؤال: هل تتمتع الولايات المتحدة بحماية الهية خاصة؟[٨].

بالطبع، يتجاوز عدد الذين يجاهرون بإيمانهم الديني وبانتمائهم الى طائفة معيّنة هذه الفئة من المتدينين التي تلوّن إيمانها الثقة بعظمة أميركا والاعتزاز ببركة الله الخاصة لها. ومنذ منتصف الستينات حتى اليوم تناهز النسبة الإجمالية للمتدينين، صعوداً وهبوطاً، ٧٠٪ من أفراد الشعب الأميركي[٩]. غير انها تنخفض الى ٥٠٪، بموجب دراسة دقيقة وحديثة، حين يتعلّق الأمر بعضوية فعلية في جماعة دينية محددة[١٠]. وتبقى هذه النسبة مرتفعة جداً اذا ما قيست بأي مجتمع آخر يجري فيه إحصاء المتدينين بحسب مؤشرات انتمائهم الفعلي إلى جماعة دينية منظمة.

غني عن القول ان التفوق في حجم التديّن العام مقارنة بالانتماء الديني الخاص ليس مستغرباً. إلاّ انه، بخلاف مجتمعات غربية أخرى، لا يُنسب حصراً لما بقي من الذاكرة التاريخية ومن تعلّق بالعادات ذات المصدر الديني. بل يعكس ايضاً قوة تأثير «الدين المدني» و«الروحانية الأميركية». ولا يعني ذلك بالضرورة ان جاذبيتهما تقتصر على العشرين بالمئة من الأميركيين ممن يحسبون أنفسهم متدينين من غير أي انتماء مذهبي واضح والتزام بتراث ديني معيّن. فهناك فئة من الأميركيين، يصعب قياس نسبتها،

لها رجْل في بور الدين المدني أو الروحانية الأميركية وأخرى في فلاحة الجماَعات الدينية المنظمة.

الدين المدني

منذ البداية، عرفت الولايات المتحدة فصلاً بين الدولة والدين. إلاّ ان ذلك لم يلغ وجود بعد ديني للسياسة. صحيح ان المعتقدات والعبادات والانتماء الى جماعة دينية تخص الأفراد واختياراتهم الشخصية. لكن الأميركيين يشتركون بنسبة عالية في توجهات دينية عامة. ولقد لعبت هذه التوجهات دوراً كبيراً، بل حاسماً، في تطوير المؤسسات الأميركية. وهي مازالت تضفي بعداً دينياً على الحياة العامة في الولايات المتحدة وتسمح باستخدام واسع للغة الدينية في قضايا المجتمع والثقافة والسياسة.

ان لهذا البعد الديني تعبيراً في عدد من الأفكار والرموز والطقوس التي يسميها روبرت بيلاّ Robert Bellah «الدين المدني». ولعل أحد أهمّ احتفالات هذا الدين تنصيب رئيس الجمهورية. فهو مناسبة لتأكيد إعطاء الشرعية الدينية لأعلى سلطة سياسية[11]. ان «الدين المدني» هو دين عام يرتبط ظهوره بالحياة السياسية وهو مواز للدين المنظّم من غير ان يكون بديلاً منه. وهو مزيج خاص بين المُثل المسيحية والقيم الإنسانية العلمانية تكشف عنه لغة الأميركيين عند الحديث عن الشؤون العامة وإيحاءات المشتغلين بالسياسة.

في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦١ وخلال احتفال تنصيبه، القى الرئيس جون كينيدي خطاباً يتوقف عنده روبرت بيلاّ طويلاً بوصفه مثلاً غنياً بالدلالات. فالرئيس الكاثوليكي يشير إلى الله ثلاث مرات في نص قصير. ويقول في مستهلّه «ان الايمان بحقوق الانسان لا يأتي من فضل الدولة بل من يد الله». وفي الخاتمة يسأل بركة الله ومعونته ويدعو مواطنيه ان يدركوا ان عمل الله يجب ان يكون على هذه الأرض «عملنا نحن». ترسم الإشارات الثلاث إطار النص الرئاسي من دون ان تدخل في صلب محتواه السياسي. ويتكرر الأمر في خطب رئاسية كثيرة مما يدفع بالبعض إلى القول بالوظيفة الاحتفالية للدين

في كلام السياسة. وربّ قائل ان رؤساء البلاد يقدمون احتراماً شكلياً لمشاعر فئة واسعة من الأميركيين متديّنة. ويدخلون بعدئذ في المسائل التي تعني جميع الأميركيين والتي لا علاقة للدين بها. ويذهب الى أبعد من ذلك أكثر من مراقب نقدي للعلاقة بين الدين والسياسة، ويصل إلى حدّ السخرية أحياناً. فغالباً ما يقال انه يترتّب على كل رئيس أميركي ان يذكر الله كي لا يجازف بخسارة لاحقة لأصوات فئة من ناخبيه. وهذا ما يجعل الظهور بمظهر الأميركي التقي إحدى المواصفات غير المكتوبة لكل مرشح للرئاسة.

لكن نعت الوظائف الاحتفالية بوصفها مجرد طقوس لا يلغي أهميتها. فالذي يقوله الناس، المسؤولون بصفة خاصة، في مناسبات كبيرة يدل على قيم راسخة في الوجدان قد لا يعبَّر عنها في الحياة اليومية. إلا أن هذه القيم، في حالة الرؤساء الأميركيين، تبقى على قدر من العمومية. فالدين عند الأميركيين، في مرآة رؤسائهم، أمر صالح حتى ولو فقد بعضهم أي اهتمام حقيقي بمحتواه. هناك قول للرئيس ايزنهاور يؤيد ذلك بوضوح كبير: «لا معنى للحكم ما لم يتأسس على إيمان ديني عميق، ولا يهمني أي إيمان كان»[١٢].

خلال طقس «الدين المدني» الاحتفالي الكبير يؤدّي القسم الرئاسي «أمام الشعب وأمام الله العظيم». بالطبع، تقرّ النظرية السياسية الأميركية بسيادة الشعب. لكنها لا تنفي ان السيادة النهائية، بل الحاكمية، هي لله. وفي إعلان الاستقلال نجد إشارات أربع إلى الخالق. تتحدث الأولى عن «قوانين الطبيعة» و«إله الطبيعة». وتتضمن الثانية القول «ان كل الناس أعطوا من قبل الله حقوقاً غير قابلة للتصرّف». أما الثالثة فهي دعاء «للقاضي الأسمى للعالم من أجل أن تستقيم النوايا». وتذكر الأخيرة «الاعتماد الثابت على حماية العناية الالهية». بالإضافة إلى ذلك، ساهمت كلمات الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، وأفعالهم، في تشكيل الملامح الرئيسية للدين المدني كما نعرفه اليوم.

بالطبع، ظلت المسيحية المصدر الرئيسي للرموز والإشارات. غير أن

الدين المدني ليس مسيحياً. واذا كان الرؤساء الأميركيون يذكرون الله، لا يتفوّه أحد منهم باسم المسيح. وطالما ان اله الدين المدني توحيدي فهو اله النظام والقانون والحقوق لا اله الخلاص والمحبة. وهو ليس منزّهاً عن التاريخ بل حاضر فيه وله اهتمام خاص بأميركا على غرار علاقته الخاصة باسرائيل في العهد القديم. يقول جيفرسون في خطاب تنصيبه الثاني: «نحن بين يدي الله الذي قاد آباءنا، كما قاد اسرائيل في القديم، من الأرض التي ولدوا فيها وأقامهم في أرض تفيض منها خيرات الحياة». فأوروبا عنده هي بمثابة مصر العهد القديم وأميركا أرض الميعاد، والله اختار شعبها ليقيم نظاماً جديداً فيكون نوراً للأمم كلها. بعدئذ، ومع الحرب الأهلية، دخلت أفكار الموت والتضحية والولادة الجديدة في «الدين المدني». تحوّلت اللغة الرمزية. لم تعد مقتصرة على قصص وصور واستعارات العهد القديم. أضحت بنسبة ملحوظة أكثر مسيحية. تطعمت بمفردات وتشبيهات العهد الجديد. لكنها ظلت مختلفة عن اللغة المسيحية التقليدية.

ويرى غير مؤرخ للأفكار الدينية والسياسية ان الدين الأميركي، ومنذ مطلع القرن التاسع عشر، اخلاقي واجتماعي لا أكثر. فهو يحث على العمل وعلى استقامته. ليس تأملياً ولا لاهوتياً أو روحياً[١٣]. أما دوتوكڤيل فرأى في الدين الأميركي مؤسسات سياسية تساهم بقوة في المحافظة على الجمهورية والديموقراطية عن طريق تقديم وفاق أخلاقي قوي وسط تغييرات سياسية متواصلة[١٤]. هذا الوفاق الأخلاقي الضروري يجعل الدين الأميركي «تعبيراً شعرياً عن الروحية المدنية»[١٥].

لكن الدين المدني يذهب الى أبعد من الوظيفة الاجتماعية التي يعطيه إياها دوتوكڤيل والسائرون في ركابه. فهو ينزلق، هنا وثمة، الى تعظيم خصوصية الأمة الأميركية لفرط ما تتطعّم لغته الرمزية بنماذج من الكتاب المقدس. هناك نوع من الماسيانية الأميركية تكوّنت في رحم المخيلة الجمعية بفعل الاستلهام المتكرر لصور الخروج والشعب المختار وأرض الميعاد وأورشليم الجديدة والفداء والولادة الجديدة. إلاّ ان الدين المدني، بحسب نظرية بيلاّ، جديد بحق وأميركي بامتياز. وله أنبياؤه وشهداؤه، وأحداثه المقدسة وأماكنه

المقدسة وطقوسه المهيبة ورموزه. ويبقى شاغله الأول أن تكون أميركا منسجمة مع إرادة الله في حدود ما يستطيعه الناس وان تعي ذاتها نوراً للأمم كلها.

بطبيعة الحال، ليس الدين المدني في أميركا، وبخلاف ما يقابله في بلد كفرنسا، معادياً للاكليريكية أو علمانياً مناضلاً. فهو يستعير ما يكفي من التراث الديني السائد، حتى ان المواطن العادي لا يجد تناقضاً بين «دينه الكنسي» و«دينه المدني». ولعلّه في بعض الظروف يحسبهما مترادفَين. الا أن ذلك لا ينفي أن فئة متزايدة من المسيحيين الأميركيين باتت أكثر حذراً حيال عملية التداخل أو التمازج الملتبسة. في المقابل هناك أقلية، ولكنها غير هامشية، فقدت معظم إيمانها المسيحي ولم يؤثر ذلك في إيمانها بعظمة أميركا وبأنها صاحبة رسالة ونور للأمم.

كثيراً ما يقال اليوم ان جاذبية الدين المدني خفّت لدى البعض، وانه لم يعد كما كان مشتركاً بين كل الأميركيين. ففي ستينات القرن العشرين أدّت معارضة الحرب في فيتنام وما ارتبط بها من تشكيك بالمؤسسات الأميركية الى أفول بريقه في أوساط شابة واسعة. وأحجم المسيحيون الليبراليون مذذاك، وفي قولهم بالأخلاق الكونية من جهة واحترام التنوع بين الأديان والثقافات من جهة أخرى، عن التماهي كالسابق مع بنى رمزية تغذي فكرة الاستثناء الأميركي ودوره الخلاصي في تاريخ البشرية. وعلى الطرف النقيض منهم، سعى في العقدين الأخيرين عدد من رجال الدين والسياسة، وفئة واسعة من المتدينين المحافظين من ورائهم، الى توظيف مخزون «الدين المدني» الرمزي في خدمة مشروع «الأمة المسيحية» الذي يداعب مخيّلتهم.

الروحانيات الأميركية الجديدة

منذ أواسط السبعينات، تحدّث روبرت بيلاّ عن تراجع الدين المدني التدريجي لمصلحة الدين الفرداني. وسمّى هذا «الدين» الشيلانية Sheilanism نسبة الى ممرضة تدعى شيلا قالت له في مقابلة انها تؤمن بالله وان الدفء الذي يحدثه هذا الإيمان في قلبها يأخذها بعيداً. غير انها لا تتذكر

آخر مرة ذهبت فيها الى الكنيسة ولا يؤثر فيها البتة كلام السياسيين ذو الإيحاء الديني[١٦].

ويشير استطلاع للرأي أجري عام ١٩٩٨ الى أن عدد الأميركيين الذين اختبروا نمواً روحياً ارتفع في العشرين سنة الأخيرة من ٥٤٪ الى ٨٢٪. وهذه النسبة تفوق إجمالي المنتمين الى المذاهب والأديان المعروفة. ان معظمهم أصحاب روحانية عائمة ومتغيّرة ولا نسَب محدداً لها، بل تختلط فيها عناصر من تراثات دينية عديدة وخبرات شخصية ونفسانيات من مشارب متنوعة. ان هذه الروحانية تختار ما يلائمها ممّا تتعرف اليه من الأديان و«تفصّل دينها على قياسها».

ويصف البعض لقاء التقاليد الدينية والخبرات الشخصية واختلاطها بأنه نوع من «الروحانية» الأميركية التي ستعمّ العالم. وفي كتاب عنونته «الروحانية الأميركية»، وقدمته بوصفه دليلاً للساعين اليها، كتبت سيدة تجولّت بين الأديان والمذاهب عن خصب أميركا بالنسبة الى الباحثين عن حياة تتجاوز المادية والفردانية. وتربط بين هذا الخصب واختبار الممارسة الديموقراطية في ميادين الحياة المختلفة على نحو يتلاءم مع التنوع في المعتقدات. وترى ان العصر الأميركي الحاضر غيَّر طريقة الأكل والكلام والتأليف الفني والاداء الموسيقي والأنماط الأسرية وأساليب العمل. وهو اليوم يغيّر الطريقة التي يجري فيها تقديم الروحانية وممارستها[١٧].

ولعلّ الفارق الأساسي بين ما تقوله الأديان التاريخية وما يبشّر به البعض في أميركا، ومنهم واضعة «دليل الساعين»، هو ان الروحانية الجديدة حرّة من كل قيد عقائدي وهي تنطلق لا من الواجبات بل من الحاجات. فالتعلّق بنهج روحاني أو بآخر مرهون بما يعطيه للفرد مقابل ما يطلبه منه. ويظهر السير في طريق روحي بعد آخر أو عوضاً عنه بمثابة اعتماد لمنطق الاختبار السائد في الثقافة الاستهلاكية.

وعلى غرار حرية السوق، تختار فئة واسعة من الأميركيين ما يناسبها من «الغذاء الروحي» بصرف النظر عن هوية «منتجيه». وهناك أولاً من لا يتردد

في الحفاظ على بعض ما ورث من دينه الأصلي وان مقطوعاً عن مجمل التراث الذي يعطيه كامل معناه.

وهناك ثانياً من يُقبل بحرية كبيرة على اقتطاع أجزاء تعجبه من أديان مختلفة وروحانيات تنتسب اليها. وهناك أيضاً من ينتمي الى جماعات دينية، أو شبه دينية، جديدة، لها روحانية تلفيقية وانتقائية في علاقتها بالأديان المعروفة أو لا صلة لها البتة بالتوحيدي منها. ويُضاف الى كلّ هؤلاء من لا يجد أي حرج في الانتماء الى النماذج الثلاثة في آن واحد أو في التنقل بينها.

على هذا الصعيد، عرفت الولايات المتحدة في العقود الأخيرة تسارعاً في تطوّر بدأ في القرن التاسع عشر. فتوالدت جماعات دينية كثيرة. وعلى امتداد الثمانينات من القرن العشرين سعى معهد دراسة الدين الأميركي The Institute for the Study of American Religion لإحصائها. وفي تقرير له نشر عام ١٩٨٨ في موسوعة الأديان الأميركية The Encyclopedia of American Religions، أشار الى وجود ١٥٨٦ جماعة دينية في الولايات المتحدة منها ٧٠٠ سمّاها «غير تقليدية» Non- Conventional بمعنى انه يتعذّر تصنيفها مذاهب داخل الأديان العالمية التاريخية المعروفة. ومن هذه الجماعات الفرق التي خرجت عن المسيحية وصارت مذاهب مستقلة كالمورمون وشهود يهوه. ومنها الفرق الأصغر حجماً التي تتميّز بصرامة تنظيمها وبتزعمها من قبل أشخاصٍ يتمتعون بمواهب قيادية لافتة تأخذ أتباعهم الى تصرفات مستغربة أو إجرامية كالانتحار الجماعي. ومنها أيضاً المجموعات التي تحلّقت حول معلمين ومشايخ طرق صوفية وفدوا الى الولايات المتحدة بعد تزايد هجرة المسلمين والهندوسيين والبوذيين، إثر القرار الصادر عام ١٩٦٥ الذي رفع القيود أمام دخول الآسيويين والعرب الى الولايات المتحدة. لقد استطاع عدد من الشخصيات الدينية، من أصحاب المواهب والصفات القيادية، جذب أعداد من الأميركيين لا إلى الدين الأصلي الذي جاء منه، كالإسلام، بل الى خصوصية تجربته الشخصية. واستفادت هذه الشخصيات عموماً من افتتان فئة من الأميركيين بالجديد وسعت الى إشباع جوعها الى حكمة جديدة وأساليب عبادة وتأمل جديدة.

بالإضافة الى الجماعات المنظمة، يوجد عدد كبير من الأميركيين لا يستريح الى الانضباط داخل جسم ديني منظم. فالحياة الدينية عندهم بحث دائم، وقد سمّوا «الباحثين» أو «الساعين» Seekers داخل قلوبهم وعقولهم وعن طريق القراءة والتأمل أم والتأمل؟ والتفكير. وكثير من هؤلاء رأوا في فكرة الحكمة المتواترة بديلاً من أنظمة الحقائق الدينية المعروفة. واستقى معظمهم هذه الفكرة من تاريخ التصوّف، شرقاً وغرباً، ومن البوذية والهندوسية ومن الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة.

وهناك فكرة رائجة أخرى تقول بنوع من التآلفية أو التناغمية بين حقائق الحياة المختلفة. وتستند هذه الفكرة الى مسلّمة تقول ان ظواهر هذا الكون متّصلة كلها بحقائق ماورائية ينبغي على الباحث ان يسعى الى معرفتها. لكن هذا السعي ليس عقلياً فحسب بل انه يتلازم مع رؤية روحية أو نشوة أو شفاء جسدي أو راحة نفسية أو نجاح.

وتميل فئة من الأميركيين الى التنجيم، والمقصود به هو البحث عن المخفي. وهو يتطلّب وسائل خاصة لا توفّرها الأديان التاريخية الكبيرة. ويستلهم التنجيم المذكور تقاليد مختلفة منها ما يتصل بالأبراج ومنها ما يأتي من السحر الشعبي والحكمة التي يستبطنها. وليست هذه الفئة هامشية كما يُظن بل تبلغ، بموجب استطلاعات للرأي أعوام ١٩٩٥ و١٩٩٦و١٩٩٧، ٢٥٪ من مجموع الأميركيين[١٨].

وتنتشر في بعض الأوساط الأميركية ذات المستوى التعليمي أو الثقافي المرتفع حركات تقول بمعرفة الله عن طريق التأمل الفلسفي والكشف Theosophy. وتزاوج هذه الحركات بين فكرة الحكمة المتواترة ومعتقدات الديانات الآسيوية المتعلقة بوحدة الواقع وتأصله في وحدة الوعي. وتؤمن بتناسخ الأرواح في عملية كونية طويلة. ولكنها بالطبع لا تحتكر هذا الايمان إذ ان ٢٧٪ من الأميركيين يجاهرون به، بموجب استطلاع أجري عام ١٩٩٤، نصفهم يعرّفون أنفسهم بأنهم مسيحيون[١٩].

وهناك أيضاً دعاة «العلم المسيحي» القائلون بمجموعة أفكار ومناهج تأملية تستند الى ما ورائيات أحدية بمعنى انها تقوم على مبدأ غائي واحد.

وهم يؤمنون بأن الظواهر الطبيعية وهمية وليس من حقيقي إلاّ الروح. ويعتقدون ان الخلاص أو الشفاء لا يأتي إلاّ نتيجة إدراك هذه الحقيقة والعيش بموجبها. وعلى أطراف جماعة «العلم المسيحي»، وهي كيان منظم حافظ على بعض الخصائص المسيحية قياساً بسواه، نشأت مجموعات لا يهمها التماسك العقائدي والتنظيمي. وهي تدعو الى «التفكير الجديد» الذي يشدّد على الشفاء الانساني الذي لا يتحقق الا بانسجام الوعي الفردي مع الحقائق الماورائية الأكبر. وعلى هذا النحو تفقد الرموز المسيحية معناها المسيحي وتصبح مؤشراً لحقائق كونية غير شخصية. وهي تؤكد على الطاقات الكامنة في كل فرد وعلى تحقيق الذات الذي غالباً ما يلبس لبوس الصحة الجسدية والنفسية.

ولا بد من الاشارة في ختام هذه الجولة السريعة، والتي لم تفَ الروحانيات الأميركية الجديدة كامل حقها، الى «العصر الجديد» وهو الأكثرَ رواجاً بين التيارات التي تدعو الى تديّن من غير دين. لقد ظهرت روحانية «العصر الجديد» في الستينات من القرنً الماضي ورمزت اليها صورة الوعود التي يأتي بها عصر الدلو Aquarius حسب أغنية هير Hair الشهيرة. فدنو هذا العصر بشّر عندهم بمرحلة حب كوني ومشاعر طيبة. ويعتقد أهل «العصر الجديد» ان التاريخ البشري بلغ منعطفاً من حيث انفتاح الوعي الانساني على الحقائق الكونية. ولعلّ أهمّ فكرة عندهم هي الخيار الروحي الشخصي. فهم يبغون التحرر من قيود الهويات الموروثة، الدينية والاجتماعية. ويرون أنفسهم في حالة سعي روحي مستمر وراء الحقيقة عن طريق خبرة شخصية في تحقيق الذات. ليس من سلطة عندهم فوق سلطة الذات الإنسانية. وهم ينادون بكلية الأشياء أي بالجمع بين المادي والروحي، وبين الإنساني والطبيعي وبين الروحي والعقلي. وهذا الجمع هو المعيار الأول لانتقائيتهم. إنهم يأخذون ما يناسبهم من الديانات القديمة ومن السحر الشعبي والرموز المسيحية والتصوُّف الإسلامي وتفسير الأحلام والتأمل الهندوسي أو البوذي والعرفان. وليس لهم مركز ولا تنظيم ولا تعليم رسمي ولا سلطة ولا قيادة. ان «العصر الجديد» أقرب الى شبكة تربط أفراداً أو مجموعات صغيرة متنوعة

ودور نشر ومجلات وفرقاً موسيقية يكشف رواجها الكبير عن جاذبية أفكارها من دون ان يسمح لنا بحصر تأثيرها وقياس نفوذها.

بروتستانتيو الخط الرئيسي

لعقود قليلة خلت، كان مؤرخ الدين في أميركا يبدأ من الحديث عن الإصلاح البروتستانتي المهاجر أو المنفي بوصفه مفتاحاً أولّ، بل وحيداً، لقراءة قصة أميركا الدينية. وكثيراً ما افترض المؤرخون، بنسبة كبيرة، ان كنائس الإصلاح، في صيغتها الأميركية المنقسمة الى مذاهب كثيرة، هي قاعدة الخبرة الدينية في الولايات المتحدة ونموذجها. ويؤكدون ان هذه المذاهب، رغم اختلافاتها العقائدية وأشكال تنظيمها، اشتركت في رسم ملامح الشخصية العامة لأمة ترى خصوصيتها في أولية الحرية والديموقراطية وأخلاقيات العمل ذات المنشأ البروتستانتي. لكن الضرورة الاجتماعية، في التقائها مع التعلق بالتسامح الديني وحرية المعتقد، دعت الى استقبال، لم يكن دائماً ترحيباً، الجماعات الدينية الأخرى. في الظاهر، لم يكن قبول الآخرين شركاء متساوين مشروطاً، إلا أن البروتستانتيين لم يخفوا توقعهم ان يعتمد الكاثوليك واليهود، ومن جاء بعدهم من جماعات مهاجرة تنتمي الى مذاهب مسيحية أو أديان أخرى، بعض المعايير البروتستانتية العامة في التنظيم والممارسة واللغة التي استقرت في المخيلة الجمعية الأميركية. واليوم، كثيراً ما يقال إن الواقع لم يخالف هذا التوقع إلا قليلاً، حتى أن مؤلف أحد أهم الكتب المعتمدة في الجامعات لتدريس تاريخ الأديان في أميركا، يستشهد في الصفحة الأولى من مقدمته بكاتب إنكليزي يقول ان الحديث عن الدين في أميركا هو أولاً حديث عن البروتستانتية وان البروتستانتية في أميركا تعني المذاهب الرئيسية أو التاريخية[٢٠].

لكن التوقع البروتستانتي تغيَّر في الستينات. وتغيّر مفهوم التيار الرئيسي في الدين والثقافة الأميركيين. لم يعد الكاثوليك واليهود خارجه. تكيَّفوا مع البروتستانتية الأميركية. بطبيعة الحال، جاء ذلك بشكل محدود لكنه يكفي للسماح بمشاركتهم في الحياة العامة الأميركية من غير قيود. بدورهم تكيّف

البروتستانتيون مع التنوع الديني الذي تجاوز بسرعة كبيرة تعدد مذاهبهم. ولم يعد الكاثوليك واليهود مضطرين لدفع أي ثمن يذكر مقابل حفاظهم على خصوصيتهم الدينية والثقافية.

وبالتزامن مع ذلك، شهدت البروتستانتية صعوداً لجماعات تؤكد على هويتها الخاصة من حيث اللون أو الجنس أو الأصل الإثني، داخل مذهب بعينه أو على نحو عابر للمذاهب. كما عرفت الولايات المتحدة تسارعاً في الهجرة اليها على نحو غير مسبوق من حيث تنوع البلدان التي وفد منها متتمون إلى أديان لم يكن لها من قبل أي وجود ملحوظ. وعلى صعيد ثالث، فقدت المؤسسات الدينية والتربوية بعض سلطتها الفعلية والمعنوية. وقوي الشك، أو التشكيك، بصدقيتها من جهة أولى، وازدادت اللامبالاة حيالها من جهة ثانية.

لقد تدافعت هذه المستجدات في العقود القليلة الماضية، وجعلت المشهد الديني مختلفاً على نحو لافت مما كان عليه حين كانت المذاهب البروتستانتية الرئيسية، في تنافسها أو تقاربها، تحدد إيقاع الحياة الدينية والثقافية والسياسية في أميركا. واليوم، لم تعد هذه المذاهب تعي نفسها بوصفها «التيار الرئيسي» في المجتمع رغم حفاظها على بعض علامات النفوذ ومظاهره. لكن الذاكرة، ذاكرتها وذاكرة الغير، مازالت مؤثرة. وهي تبرِّر استمرارها في استعمال مصطلح «الخط الرئيسي» mainline للإشارة الى نفسها، من دون اعتراض أحد.

ليس مصطلح «الخط الرئيسي» تقنياً. غير انه واسع الانتشار في تمييزه لا البروتستانت عن سواهم فحسب بل فئة من البروتستانت ذات خصائص مشتركة. هناك مذاهب تتفق على عدد كبير من الأفكار الدينية والنظم المؤسسيَّة وتتشابه على مستوى قاعدتها الاجتماعية ونوعية مشاركتها في الحياة العامة.

تشمل بروتستانتية «الخط الرئيسي» سبعة مذاهب أو عائلات مذهبية هي: المشيخيون Presbyterian والجمهوريون Congregationalists الذين يؤلفون اليوم كنيسة المسيح المتحدة United Church of Christ وتلامذة المسيح

Disciples of Christ والأسقفيون Episcopalians والميثوديست Methodists واللوثريون Lutherans والمعمدانيون الأميركيون American Baptists. ولهذه المذاهب قاعدة اجتماعية راسخة في الطبقات الوسطى والعليا ذات النفوذ الاقتصادي والسياسي والثقافي. وتأتي فئة واسعة من أعضائها من أصول أوروبية، بريطانية وهولندية والمانية واسكندينافية. ويتوزع أبناؤها على ولايات أميركا المختلفة، علماً بان لكل منها، ولأسباب تتصل بتاريخ الهجرة، كثافة في مناطق محددة أكثر من سواها.

وتعتمد هذه المذاهب الانكليزية لغة وحيدة في الصلاة وتحافظ على تراث موسيقي ومعماري أوروبي ولكن من دون تشدّد. وتسعى لاستيعاب التنوّع داخلها عن طريق ممارسة الحوار والطرق الديموقراطية في صنع القرار واتخاذه. وتعتنق أفكاراً دينية ليبرالية منفتحة على قيم الحداثة. وهي عموماً ذات حسّ اجتماعي قوي. وتدعو للانفتاح على الأديان الأخرى والحوار مع مؤمنيها. وتتجاوز مذهبيتها في البحث العلمي والتربية، بما فيها التعليم اللاهوتي، والنشر والاعلام. وتتعاون في ما بينها داخل «مجلس كنائس المسيح الوطني في الولايات المتحدة الأميركية» National Council of Churches of Christ in The United States of America، وهو هيئة مسكونية للحوار والتبادل والتنسيق. وتسعى لاستيعاب حركات الاعتراض الأقلية داخل المسيحية الأميركية. وتقبل، في أكثريتها الساحقة، بقسوسية النساء بل تشجعها. وتميل الى التعاطف مع الحركات المطلبية لمجموعات تشكلت حديثاً للدفاع عن البيئة، وحقوق النساء وحقوق مثليي الجنس، رغم الانقسام في صفوفها حول سيامة قسس أو انتخاب أساقفة يجاهرون بانتمائهم الى هذه الفئة. ويتميز موقفها من القضايا العامة بالتأكيد على فصل الدين عن الدولة. وتكشف عن توتر بين قبولها للنظام السياسي الأميركي ونزوعها الإصلاحي الذي يصل إلى الجهر بمعارضتها لسياسة الحكومات الأميركية المتعاقبة منذ الستينات وفي المجالين الداخلي والخارجي.

بطبيعة الحال، ليس الاختصار في توصيف البروتستانتية التاريخية خالياً من التعميم. لكن التوقف عند كل مذهب وإبراز خصوصيته متعذر في حدود

هذا الفصل. تكفي الاشارة الى امكان تصنيف هذه المذاهب بين ليبراليين (المشيخيون، الأسقفيون، كنيسة المسيح المتحدة) ومعتدلين (اللوثريون والميثوديست والمعمدانيون الأميركان وتلامذة المسيح)، أو بين المحافظين على تراث ليتورجي (الاسقفيون واللوثريون) والمتحررين من البنى الليتورجيَّة التقليدية (الخمسة الآخرون).

ومن نافل القول التأكيد ان المشترك بين المذاهب البروتستانتية التاريخية لا يلغي خصوصية كل منها. لكن الخصوصيات المذهبية، وفي المدن الكبرى أكثر من سواها، تراجعت بشكل كبير. هناك عدد كبير من الأميركيين الأعضاء في مذاهب «الخط الرئيسي» تبلغ نسبتهم التقديرية ٣٠٪، ممن ينتقلون من مذهب الى آخر، لأسباب تتعلّق بالارتقاء الاجتماعي أو الاندماج أو لاعتبارات عملية تتصل بمكان السكن[٢١]. وان هذا الانتقال بين المذاهب لا يغيّر كثيراً في «التوازنات» بين المذاهب. ففي غير حالة يكاد الذين يلتحقون بمذهب معيّن يساوون من حيث العدد الذين يغادرونه الى مذهب آخر. غير ان إجمالي عدد الذين يفضِّلون مذهباً معيناً يتناقص لدى كل كنائس «الخط الرئيسي». وتشير مقارنة بين دراسات ميدانية أجريت بين ١٩٦٧ و١٩٨٨، إلى ان الأميركيين الذين يعتبرون الكنيسة الأسقفية مذهبهم المفضل كانوا ٣٪ عام ١٩٦٧ وصاروا ٢٪ عام ١٩٨٨ والمشيخيون انخفضوا من ٦٪ الى ٤٪ واللوثريون من ٧٪ الى ٦٪ والميثوديست من ١٤٪ الى ١٠٪[٢٢].

ويُعزى هذا التناقص الى مؤثرات أربعة. هناك أولاً انخفاض معدلات الولادة بين أعضاء هذه المذاهب قياساً بسواهم من الأميركيين. أما المؤثرات الثلاثة الأخرى فهي الخروج من المسيحية الليبرالية الى إنسانية علمانية وفردانية والانجذاب الى الروحانيات الجديدة والانضمام الى حركات احيائية أو جماعات مسيحية محافظة.

ولا بدّ لنا في ختام هذه الجولة السريعة داخل البروتستانتية التاريخية من إشارة سريعة إلى عدد من المذاهب الصغيرة الحجم، والتي يفوق تأثيرها عدد أعضائها. وهي تنتمي في أصولها التاريخية الى التيار الجذري من حركة الاصلاح البروتستانتي. وتشكِّل هذه المذاهب اليوم، رغم خصوصية كل

منها واستقلاله، ما يسمّى «كنائس السلام». فالمينونيون Mennonites والآميش Amish والاخوة Brethren يتمسكون باللاعنف خياراً ثابتاً في كل الظروف وسائر جوانب الحياة. ولا يضيرهم البتة ان يتناقض التزامهم بما جاء في الانجيل مع القومية الأميركية ومعها العادات والأعراف الاجتماعية والأخلاقية السائدة في البلاد التي نزح اليها أجدادهم هرباً من اضطهاد البروتستانتية الرسمية.

وتشارك كنائسَ السلام المذكورة موقفها من الحرب والعنف وتعلّقها القوي بالأخلاق النابعة من الإنجيل جماعة الأصحاب أو الكويكرز Quakers التي نشأت في بريطانيا، لا في المانيا حيث قامت الحركات الإصلاحية الجذرية الأخرى، وفي القرن السابع عشر لا في القرن السادس عشر.

وتتباين كنائس السلام في درجة أمانتها لحرفية ما جاء في العهد الجديد وما تؤول اليه لجهة نبذ العديد من قيم العالم الحديث وطرق عيشه والتشدّد في محاذرة التلوّث بالذهنية «الدنيوية». ويذهب الآميش الى حدّ هذه المواقف الأقصى ويؤلفون جماعة منكفئة على ذاتها وجذرية في قطيعتها مع المجتمع الحديث. وعلى الطرف الآخر نجد الكويكرز الذين يسعون الى ان لا يؤدي تكيفهم مع العالم الحديث وابتعادهم التقليدي عن مظاهر التديّن الخارجية الى التخفيف من قوة محافظتهم على خيارات اللاعنف والمصالحة والتقشف وسواها من قيم الانجيل.

تيار الإنجيليين المحافظين

لا تعترف هذه الفئة من البروتستانتيين بالفواصل المذهبية وليس لها حدود مؤسسية واضحة. انها بمثابة تيار اعتراضي يواجه المذاهب البروتستانتية التاريخية ويسعى الى اختراقها. ويأخذ عليها انها قدّمت تنازلات كثيرة الى الحداثة، وفرّطت في جنوحها الى الليبرالية بعدد من ثوابت الايمان المسيحي وأخلاقياته. وهذا التيار، على غرار تيارات الاعتراض الديني قديماً وحديثاً، يستعيد نموذجاً ماضياً ويستعير لغته. وغالباً ما تكون العودة الى الماضي، أو بالأحرى القول بها، محاولة لاستئناف الاحيائية التي عرفتها أميركا

البروتستانتية في القرن التاسع عشر.

وعلى يد هذا التيار الاعتراضي اكتسب مصطلح «الانجيليين» معنى خاصاً في السياق الديني الأميركي الراهن. فكثير من الكنائس البروتستانتية في العالم، قديماً وحديثاً، تحرص على تسمية ذاتها بالانجيلية، وذلك للتأكيد على أولية الكتاب المقدس في الرؤية الاصلاحية التي ميّزت نفسها بها منذ القرن السادس عشر. ويصح ذلك أيضاً في الولايات المتحدة حيث تحتفظ إحدى الكنائس البروتستانتية الرئيسية، وهي اللوثرية، بنعت الإنجيلية. غير ان استخدام اللفظة اليوم دون أية إشارة مذهبية يبقى حكراً على التيار البروتستانتي الذي غالباً ما يعي نفسه من زاوية خصومته العقائدية والسياسية لمذاهب «الخط الرئيسي» وهو الذي يطلق على نفسه أحياناً نعت «المحافظ» الذي يطلقه عليه الليبراليون.

وكما هي الحال عند أهل الصحوة الدينية في غير مكان، ليس من إجماع في تحديد معنى مصطلح «الانجيليون المحافظون» الشائع الاستخدام. ولعلّ بعض الالتباس، هنا وثمة، يخدم مصلحة المعنيين به وخصومهم سواء بسواء. ويظهر ذلك بشكل خاص عندما يرغب هؤلاء في إظهار قوتهم ويميل أولئك الى التهويل بخطرهم أو الى التخفيف من حجم نفوذهم. لكن مراكز الدراسات والأبحاث الميدانية تقترح تحديدات أكثر دقة وهي على العموم متقاربة. فعلى سبيل المثال نجد عند مجموعة بارنا للأبحاث Barna Research Group، المتخصصة في قياس الاتجاهات الثقافية داخل المسيحية في أميركا ودراستها، تعريفاً للانجيلي بوصفه من يعتبر نفسه «مولوداً من جديد»، ويشدّد ان إيمانه مهم جداً في حياته، وان مسؤولية شخصية تترتب عليه لجهة إعلان ما يؤمن به، بين المسيحيين وغير المسيحيين. ويؤمن «الانجيلي» بحسب التعريف ذاته، ان الله خلق الكون وهو خاضع اليوم لحكمه وان المسيح عاش حياة بلا خطيئة وان الخلاص الأبدي يتم بواسطة النعمة لا نتيجة الأفعال وان الشيطان موجود[٢٣]. بطبيعة الحال، لا تختصر هذه العقائد الإيمان الانجيلي. وليست كل منها خاصة به بل بمعنى ما مشتركة بين المسيحيين. إلاّ ان القبول بها مجتمعة ووصفها على هذا النحو

يميّز الانجيلي عن سواه من المسيحيين. وتستدعي الدقة في تحديد الإنجيليين المحافظين تمييزاً بينهم وبين فئة أوسع وأخرى أصغر حجماً. انهم «المولودون من جديد» و«الأصوليون». صحيح ان الانجيليين يعتبرون أنفسهم «مولودين من جديد» لكن ليس كل «المولودين من جديد» انجيليين. أما الأصوليون المسيحيون فهم كلهم إنجيليون لكن ليس كل إنجيلي أصولياً.

لقد سمع الناس على نطاق واسع خارج الولايات المتحدة الرئيس جيمي كارتر يعرِّف ويعرّف نفسه، بأنه «مولود من جديد». وتكرّر الأمر مع الرئيس جورج دبليو بوش. وتحدد مجموعة بارنا المولودين من جديد لا وفق ما ينعتون به أنفسهم بل بحسب ردهم الايجابي على سؤالَين تطرحهما عليهم. يقول السؤال الأول: «هل قمت بتعهد شخصي ان تكون أميناً ليسوع المسيح ومازال هذا التعهد مهماً في حياتك اليوم؟». أما السؤال الثاني فيتعلق بالموافقة على التأكيد الآتي: «عند مماتي، سوف أذهب الى الجنّة لأني اعترفت بخطاياي وقبلت يسوع المسيح مخلّصاً لي».

من جهتها، لا تعير مؤسسة غالوب للاستطلاعات اهتماماً يذكر في التمييز بين «الانجيليين» و«المولودين من جديد». وفي استطلاع أجرته عام ١٩٩٦ تترادف الهويتان. ويقول أحد الأسئلة: هل تعتبر نفسك مسيحياً إنجيلياً أو مولوداً من جديد؟ أي هل تؤمن ان الكتاب المقدس هو كلمة الله الفعلية، وهل اختبرت اهتداءً شخصياً، وهل تسعى لهداية غير المسيحيين؟[٢٤]

مهما يكن من أمر ذلك، يختلف الأصوليون، وتنتمي هذه الصفة إلى تاريخ البروتستانتية الأميركية في القرن العشرين، عن «المولودين من جديد» بانهم فئة من الانجيليين المحافظين غاضبة وناشطة. بعبارة أخرى، ان الأصولي هو الانجيلي الذي يعارض، بطريقة نضالية، اللاهوت الليبرالي الحديث وبعض جوانب العلمانية في الثقافة المعاصرة[٢٥]. ولهذه المعارضة تبعات سلوكية. فالأصولي يتمسك عموماً بأخلاقيات الأسلاف من الطهرانيين. ومن خصائص الفكر والسلوك الأصوليين الشعور بان المؤمن يخوض نوعاً من «الحرب الدينية». ان الأصوليين يستسيغون استعارة القتال والحديث عن المواجهة بين معسكر الخير أو النور ومعسكر الشر أوالظلمة.

وهم يتصدون بحماسة كبيرة للتفاسير الحديثة للكتاب المقدس التي تقوّض بنظرهم الأساس العقائدي الذي تقوم عليه مسيحية المذاهب البروتستانتية الأصلية. ويعتبرون في الوقت ذاته ان هذه المعركة، دفاعاً عن صحة الكتاب المقدس بحرفيته، هي معركة انقاذ الحضارة الأميركية التي يشكّل الكتاب المقدس دعامتها الأولى.

مما لا شك فيه ان أكثرية الإنجيليين المحافظين ترى نفسها معنية بأشكال متفاوتة بهذه المعركة. لكن التنوّع داخل التيار الإنجيلي المحافظ يظل حقيقياً. فهناك إنجيليون لا يقبلون كل القراءات الحرفية للكتاب المقدس، وخاصة تلك التي تقوم بها جماعات من الأصوليين مهجوسة بنهاية الأزمنة، كالحقباتيين أو الألفيين ممّن يبدون تعلّقاً قوياً بإسرائيل ودعماً لأكثر قواها السياسية والدينية تطرّفاً.

ثم ان الانجيليين منقسمون حول الموقف من السياسة. صحيح ان دعاة العزوف عن «الغوص في أوساخ العمل السياسي» ما عادوا أكثرية مسموعة. غير ان النشاط السياسي المتنامي لشخصيات ومنظمات عاملة داخل الحزب الجمهوري وعلى أطرافه لا يحظى بإجماع الانجيليين. ولعلّه ضعيف التأثير في أوساط الخمسينيين، وهم جماعات مسيحية حديثة العهد انتشرت في الولايات المتحدة منذ مطلع القرن العشرين وأطلقت حركات داخل المذاهب المعروفة، وهي تنتمي الى التيار الإنجيلي العريض. ويتميّز الخمسينيون عن سواهم من الإنجيليين المحافظين بتركيزهم على مواهب الروح القدس، ومنها التكلّم بألسنة عديدة والشفاء الجسدي والنفسي. وهم يتمتعون بجاذبية لافتة في الأوساط الشعبية، بفعل التشديد على حرارة التقى الشخصي والجماعي وعلى أهمية استعادة الخبرة التي كانت لتلاميذ المسيح الذين نزلت عليهم «نار من السماء»[٢٦]. وعلى هذا النحو يقف الخمسينيون، داخل التيار الانجيلي، على الطرف النقيض من الأصوليين المسيّسين.

ليس الإنجيليون اذاً كتلة متجانسة. وليس من كيان كنسي وشبه كنسي جامع لهم، ما خلا الرابطة الوطنية للإنجيليين The National Association of Evangelicals التي لا تتمتع بصفة تمثيلية كافية. ويتوزع الإنجيليون على

فئات أربع. هناك فئة منهم لم تخرج عن المذاهب الأصلية بل تسعى لتجميع صفوفها في كنائس محلية أو مؤسسات داخل هذه المذاهب. وهناك أيضاً فروع لبعض المذاهب هي إنجيلية برمتها وأبرزها المؤتمر المعمداني الجنوبي، وهو أكبر من أي مذهب بروتستانتي أميركي. وتنضوي الفئة الثالثة من الإنجيليين في مجموعة كبيرة من الكنائس المحلية، الصغيرة أو الضخمة Mega Churches التي تشكّلت حول وعّاظ على قدر من الشهرة، وهي مستقلة الواحدة عن الأخرى وإن كانت متقاربة في فكرها الديني وتوجهاتها السياسية. أما الفئة الرابعة فتضم الإنجيليين الذين تستقطبهم مؤسسات تربوية وإعلامية وخيرية أو منظمات سياسية، غالباً ما تقودها شخصيات بارزة ممّن أظهرت براعتها في تأسيس الكنائس واستخدام وسائل الإعلام الحديثة لتبشير الأميركيين.

من الهامش الى الوسط : الكاثوليك واليهود

يقرأ البعض تاريخ الكاثوليك في أميركا من منظور تكيّفهم مع الثقافة الدينية التي شكلتها البروتستانتية أو من زاوية تخطيهم التعدد الإثني بينهم الى هوية أميركية جامعة. وغالباً ما يشار عند الحديث عن واقعهم الحالي الى التوتر هنا وثمة بين الأمانة للبابوية والخضوع لها والتجاوب مع نزعة، ضمنية أو سافرة، الى التأكيد على خصوصية الكاثوليك الأميركية.

منذ أواخر القرن التاسع عشر ظهرت بين الكاثوليك تيارات ثلاثة تمايزت بحسب الموقف من المجتمع الأميركي. وانشغل أهل التيار الأول بأهمية المحافظة على استقامة الإيمان الكاثوليكي وعلى الهوية الخاصة، في مجتمع يسمح بذلك بل يستدعيه في غير مجال. ورأوا ان وحدة الكاثوليك تتحقق عن طريق الحرص على التماسك المعهود في التنظيم الكنسي ومن خلال الحفاظ على التراث اللغوي والثقافي الأوروبي. لذلك فانهم دعوا الى المساهمة في النظامين السياسي والاقتصادي من دون الانخراط في المجتمع والثقافة الأميركيتين لأن فيهما، بفعل البروتستانتية والعلمانية على حدّ سواء، ما يتهدّد الإيمان الكاثوليكي التقليدي. بعبارة أخرى، قالوا بالإفادة من

الازدهار الاقتصادي الأميركي ومن الحرية التي يضمنها النظام السياسي من دون الاضطرار الى دفع ثمن ديني وثقافي كبير.

أما التيار الثاني فضمّ الذين مالوا الى الحذر نفسه حيال الاندماج في المجتمع الأميركي. لكنهم اختلفوا عن جماعة التيار الأول في اعتمادهم اللغة الإنكليزية لغة وحيدة للكنيسة دون سائر اللغات الأوروبية. ورأوا في ذلك شرطاً لازماً لتوحيد جماعات لها منابت إثنية وثقافية متنوعة، ولدرء مخاطر الانقسام الذي يحتمله التعدد ومعه ضعف المناعة لدى كل جماعة إثنية تواجه منفردة مغريات الاستيعاب في الثقافة الأميركية.

لم تقنع مواقف التيارين الأولين فئة ثالثة من الكاثوليك الأميركيين. فهناك تيار ثالث غالباً ما يُنعت بالليبرالية وهو ينظر الى المجتمع الأميركي بعين الرضا ويثمّن الديموقراطية وسياسة الفصل بين الكنيسة والدولة ولا تزعجه آثارها الاجتماعية والثقافية. ويرى ان الاطمئنان الى المجتمع الأميركي وثقافته خير للكاثوليك يحفزهم للتعاون مع سواهم من المواطنين. ومحل الحذر يحل عند أهل هذا التيار، الذي تعاظم تأثيره على حساب التيارين الأولين، الإقبال على المساهمة في الحياة العامة الأميركية على كافة الصعد، الاّ في الحالات التي تقتضي مواجهة مع العداء السافر للكثلكة ولتعاليمها الأساسية.

لقد تكرّست في العقود الأخيرة، وخاصة منذ انتخاب كاثوليكي رئيساً للجمهورية وبعد المجمع الفاتيكاني الثاني، غلبة التيار الثالث. ومالت أكثرية الكاثوليك الى الحزب الديموقراطي وسياسته الاجتماعية وهذا ما عزّز الانفتاح على بروتستانتيي «الخط الرئيسي» الليبراليين. وكان هؤلاء قد ابتعدوا بشكل لا رجوع عنه عن العداء للبابوية والتشكيك بولاء الكاثوليك الكامل للوطن الأميركي. غير ان السنوات الأخيرة شهدت بعض التقارب بين الكاثوليك والانجيليين المحافظين في المواقف من قضايا محددة كالإجهاض وحقوق مثليي الجنس.

بطبيعة الحال، اضطر هذا التقارب المستجد الانجيليين المحافظين إلى ان يعيدوا النظر في عدائهم الديني للكثلكة والبابوية أو يحجموا عن الجهر

به. غير انه لم يحدث انقلاباً في علاقات الكاثوليك وموقعهم في المشهد الديني والسياسي الأميركي. ومازال الموقف الكاثوليكي الاكثري أقرب الى الليبرالية في مجالَي العدالة الاجتماعية وسياسة أميركا الخارجية.

على غرار الكاثوليك، تكيّف اليهود مع الثقافة الدينية التي شكلتها البروتستانتية في الولايات المتحدة الأميركية. وهم يتوزعون اليوم على ثلاث جماعات رئيسية، الاصلاحيون والتقليديون الارثوذكسيون والمحافظون. وهذه الجماعات أقرب للمذاهب البروتستانتية من حيث بناها التنظيمية وأنواع نشاطها الديني والعلاقات في ما بينها.

ليست الأصول الإثنية أساس التنوّع المذهبي بين اليهود، لكن تاريخ قيامها تلوّن بالخصوصيات الدينية والثقافية للهجرات المتعاقبة. ففي أواسط القرن التاسع عشر، هاجر الى الولايات المتحدة يهود ألمان اشكنازيون مشبعون بأفكار عصر الأنوار وحركة الاصلاح اليهودية. وسرعان ما استطاعت أفكارهم الإصلاحية وممارساتهم العبادية المجدّدة جذب عدد كبير من اليهود الراغبين في تحديث تديّنهم وأمركته. ولم يتردّد هؤلاء في التخلي عن الكثير من عاداتهم الدينية، وفي مقدمها الالتزام بحرفية الشريعة، وعن اللغة العبرية لغة وحيدة للعبادة. ودعوا الى تغليب العقل على التمسّك بالتقليد في تفسيرهم للنصوص الكتابية.

في المقابل، حاول اليهود الأرثوذكسيون، أي دعاة الحفاظ على شريعتهم وتقاليدهم من دون تغيير يذكر، تنظيم صفوفهم مشدّدين على القراءة الحرفية لنصوصهم الكتابية والمرجعية بوصفها صالحة لكل زمان ومكان.

بعد ذلك حاولت فئة ثالثة أن تشق طريقاً ثالثاً. فكان المحافظون الذين تخلوا عن بعض العادات وحافظوا بأمانة على بعضها الآخر. واعتمدوا الإنكليزية الى جانب العبرية في صلواتهم وانفتحوا على القراءة النقدية للنصوص الدينية التأسيسية من دون اختيار جانبها بلا تردد كما فعل الاصلاحيون.

وبالإضافة الى «المذاهب» أو التيارات الثلاثة الرئيسية قامت في أربعينات

القرن العشرين حركة تدعو الى إعادة تركيب اليهودية Reconstructionism. ولم تحظ هذه الحركة إلاّ بشعبية محدودة جداً. ذلك انها ذهبت بعيداً في مراجعتها الجذرية لليهودية. فالله عندهم ليس شخصياً واليهود ليسوا شعبه المختار واليهودية ثقافة أكثر ممّا هي دين.

وعلى الطرف الثاني من الخريطة اليهودية، نجد اليوم أعداداً متزايدة من الهاسيديم Hassidim، أي المغالين في تقويتهم الشعبية، والذين لم يؤسسوا مذهباً خاصاً بها رغم انطواء بعضهم في حركات ماسيانية جديدة، وأبرزها اللوبافيتش Lubavitch. ويتميّز هؤلاء المتشددين في تديّنهم عن سواهم من الأرثوذكس بابتعادهم عن الكثير من طرق العيش والملبس والمأكل السائدة في العالم المعاصر والتي قبلها، وان بنسب متفاوتة، باقي المتدينين.

غني عن القول ان الاختلافات بين المذاهب اليهودية ليست بسيطة. فكثيراً ما تقوم بينهم سجالات حادة ويلجأ بعضهم، من الأرثوذكس خصوصاً، الى تكفير سواهم فيما ينعت البعض الآخر المتشددين بالظلامية والرجعية. لكن الحدود بينهم، رغم ذلك، ليست سدوداً. ومثلهم مثل باقي الأميركيين، لا يجد عدد ملحوظ من اليهود حرجاً في الانتقال من مذهب الى آخر. الاّ ان ما ينشئ وحدة قوية بينهم، يتجاوز الخلافات المذهبية في معظم الأحيان، هو ائتلاف فئات متنوعة منهم في هيئات تدافع عن حقوق اليهود وتحارب كل تمييز ضدهم، حقيقياً كان أم مفترضاً، وتعزّز حضورهم في الحياة العامة وتناصر إسرائيل بالمال والدعم السياسي.

ورغم ان اليهود الأرثوذكس هم بوجه العموم الأشدّ تطرّفاً في المواقف السياسية، فان التنوّع المذهبي ليس مطابقاً تماماً للتعدّد السياسي. وهو يقدم صورة تشبه إلى حدّ بعيد ما يشهده المجتمع الإسرائيلي من تجاذبات واصطفافات في مسائل الدين والسياسة.

أطياف جديدة في المشهد الديني

يظهر المسيحيون الشرقيون في الولايات المتحدة بصورة جماعات ذات هوية كنسية وإثنية خاصة تتغذى الى اليوم بهجرة هي الأحدث بين المسيحيين

الذين استوطنوا أميركا. وكانت موجاتها قد تعاقبت بعد حركة واسعة خلال العقود التي عقبت الحرب الأهلية الأميركية.

ومازالت كل واحدة من هذه الجماعات تحافظ على شخصيتها الخاصة رغم وحدة الايمان التي تجمع الأرثوذكس اليونان والروس والانطاكيين (اللبنانيين والسوريين ومعهم الفلسطينيون الذين ينتمون في الأصل الى بطريركية القدس) والأوكرانيين والرومان والبلغار والألبان من جهة، والأقباط والسريان والأرمن من جهة أخرى.

ويصحّ ذلك أيضاً في الشرقيين الكاثوليك، من الموارنة والروم الكاثوليك والكلدان، الذين ظلوا يتمتعون بخصوصية كنسية وثقافية وان كانوا على الإيمان الكاثوليكي الذي يشدّهم الى سائر الخاضعين للسلطة البابوية. وينطبق أيضاً على الكنيسة الشرقية الآشورية التي تتفرّد عن سواها بانها لا تنتمي الى أية عائلة كنسية، وهذا ما يزيد من خصوصيتها.

لم يؤد انخراط المهاجرين من المسيحيين الشرقيين السريع والناجح في الحياة الاقتصادية، وميل الكثيرين منهم الى التأكيد على هويتهم الأميركية بل الغلو في الاعتزاز بها، الى مشاركة لهم واسعة وفاعلة في الحياة السياسية. ولا يغيّر في هذا الواقع إلاّ قليلاً بروز عدد من الشخصيات السياسية من أصول شرقية وقيام هيئات أو جماعات ضغط بالعمل في الحقل العام لمصلحة الطائفة الأم والبلد أو البلدان التي جاء منها هؤلاء المسيحيون الشرقيون.

أما على الصعيد الديني فإن تأمرك المسيحيين الشرقيين لم يتعدّ بعض التغيير في كيفية تنظيم أنفسهم وإدارة شؤونهم الكنسية والطائفية، واعتماد البعض منهم اللغة الإنكليزية في طقوسهم، والتأثر بالنمط الأميركي السائد في النشاطات الدينية وشبه الدينية.

لقد تمسكت كل جماعة من الجماعات المسيحية الشرقية بهويتها الأصلية، رغم الضعف الذي أصاب أحياناً العلاقة الفعلية مع الكنيسة الأم والوطن الأم. وفي حالة الأرثوذكس الروس والانطاكيين، لم يؤد انضمام بضعة آلاف من البروتستانتيين المحافظين، الباحثين عن أصالة كنسية أو المنجذبين نحو الروحانية الأرثوذكسية، الى تغيير ملحوظ في موقع

المسيحيين الشرقيين على الساحة الدينية الأميركية.

ان التنوّع الإثني والحفاظ عليه من خلال استقلال كل جماعة من جماعات المسيحيين الشرقيين، وان كان محدوداً بعض الشيء عند الكاثوليك منهم، وتشديدها على التقليد وصغر حجمها وتجدّدها المستمر بواسطة الهجرة لا يسمحان باندراجها الظاهر والمؤثر في المشهد الديني الأميركي العام.

أكثر من المسيحيين الشرقيين، شهد المسلمون في العقود الثلاثة الأخيرة، تسارعاً في النمو على كافة الأصعدة. بطبيعة الحال، أثّرت، ومازالت، أحداث الحادي عشر من ايلول - سبتمبر وما تلاها على هذا النمو. غير أن القيود المفروضة اليوم على هجرة المسلمين الى أميركا، بما فيها الموقتة، والمضايقات التي تتعرّض لها أو تخشاها فئة كبيرة من المقيمين، لم تدفع بهم الى الانسحاب من الحياة العامة. بل على العكس من ذلك، فان ما يدفعونه من ثمن على صعيد الضغط الممارس عليهم يعوّض عنه، ورب ضارة نافعة، تضامن فاعل معهم في بعض الأوساط المسيحية، الليبرالية خاصة. ويساهم ذلك في تعزيز حضورهم في الحياة العامة. وأياً كان من أمر المواقف الدفاعية التي اضطرت اليها أكثر الهيئات الإسلامية، التي كانت تتدرّج من قبل نحو مشاركة أكثر تأثيراً في ميادين السياسة والثقافة والحوار الديني، فان انخراط المسلمين في المجتمع الأميركي قطع شوطاً بعيداً في فترة زمنية محدّدة.

واليوم تميل الشخصيات الإسلامية البارزة الى تجاوز الاستقطاب السابق بين دعاة التكيّف وأهل الانعزال. وكان المسلمون من الأجيال السابقة للهجرة الأوسع، التي تعاظمت بعد منتصف الستينات من القرن العشرين، حافظوا على انتمائهم الإسلامي في ظروف لم تسمح لهم إلا قليلاً بأن يشكّلوا حياتهم اليومية بحسب تقاليدهم أو بما يوافق الشريعة. واكتفوا بالاجتماع في مسجد أو مصلّى أو الانتظام في جمعيات محلية ذات لون إثني. غير أن تكاثر المهاجرين، والارتفاع الملحوظ في مستواهم الاجتماعي والثقافي، أطلق حيوية ملحوظة. ومن مظاهر هذه الحيوية مشاركة أكبر في

الحياة السياسية، بما فيها محاولات جادة للتأثير في الانتخابات الرئاسية والنيابية والمحلية، وقيام منظمات ذات صفة تمثيلية، بعضها قطاعي كالأطباء وأساتذة الجامعات، وهيئات تدافع عن الحقوق المدنية. ويصحّ ذلك أيضاً على الصعيدين الديني والتربوي حيث قامت مؤسسات وهيئات عديدة، منها ما يختص بالمسائل الفقهية التي تثيرها في وعي المسلمين حاجات التكيّف في المجتمع الأميركي.

وأدّى كل ذلك الى تجاوز الخصوصيات الإثنية الى هوية إسلامية أميركظية جامعة. وباتت عناصر هذه الهوية موضوع تأملات ومناقشات متواصلة بين المسلمين ومع غيرهم من الأميركيين. وفي هذا السياق، يلعب المسلمون السود دوراً كبيراً. فهم، في غالبيتهم، أميركيون منذ زمن طويل. وكانت هويتهم الإسلامية تشكلت خلال مواجهتهم لسيادة الأميركيين البيض عليهم، وبخاصة في المرحلة التي شهدت صعود «أمة الإسلام». ولم يغب البعد الاعتراضي أو النضالي للهوية الإسلامية عند المسلمين السود بعد تحوّل أكثريتهم الى مذهب أهل السنّة والجماعة. وظلّ الاعتراض مؤثراً في جاذبية الإسلام الخاصة بين السود، الهامشيين منهم على وجه التحديد.

أما المنتمون الى الديانات ذات المعاقل الآسيوية، وهم الأحدث في هجرتهم، فانهم يختلفون عن سواهم بمرونة تنظيمهم وبالتنوّع الكبير داخل كل جماعة من جماعتهم. وقد أظهروا، قياساً بالآخرين، قدرة كبيرة على الاندماج السريع في الولايات المتحدة. كما تمتعت روحانياتهم المختلفة بجاذبية بين المسيحيين أدّت الى اعتناقها أو الى انتماء مزدوج الى المسيحية والى واحدة منها.

وتبدو البوذية، لأسباب تتعلّق بخصائصها العقدية التي لا مجال للحديث عنها ها هنا، أكثر قابلية لهذا الازدواج والاسرع تجذراً في التربة الأميركية، قياساً مع الهندوسية والسيخية مثلاً اللتين ترتبطان على نحو أقوى بشبه القارة الهندية.

التنوّع الديني في مرآة الأرقام

ليس من إحصاءات أميركية تصنّف الناس حسب انتماءاتهم الدينية. هناك استطلاعات للرأي تسأل الأميركيين عن خياراتهم الدينية لكن نتائجها لا تدّعي الدقة. وتقابلها أرقام ونسب مئوية تعتمدها المذاهب المختلفة أو تنشرها هيئات دينية متخصصة، وهي تتفاوت من حيث رصانتها. ومن أسباب هذا التفاوت ازدواج بعض الانتماءات كالعضوية في مذهب بروتستانتي تاريخي والتعاطف مع الانجيليين المحافظين، أو المشاركة في نشاطهم الديني، أو الجمع بين انتماءين كالمسيحية والبوذية. ومن أسبابه أيضاً اختلاف أنظمة العضوية بين مذهب أو دين وآخر.

هناك أرقام متداولة في الكتب والصحف لا تثير اعتراضات تذكر كأعداد الكاثوليك. وتقابلها تقديرات تثير خلافاً بين المعنيين كالمتعلقة بالانجيليين المحافظين وكيفية احتساب أنصارهم من البروتستانتيين المنتمين اسمياً الى مذاهب الخط الرئيسي. وهذا صحيح أيضاً في حالة المسلمين الذين غالباً ما نرى أعدادهم تُضخّم حيناً أو تُخفّض حيناً آخر، وبخاصة منذ أحداث الحادي عشر من أيلول- سبتمبر.

وكثيراً ما تقرأ تفسيراً لميل المسلمين، وغيرهم من أبناء الطوائف الدينية الأحدث عهداً في الولايات المتحدة كالأرثوذكس و الهندوس والسيخ، الى المبالغة في تقدير أعدادهم. فهم بذلك يسعون الى إظهار قوتهم عن طريق التلويح بحجمهم الانتخابي المتعاظم والى نيل اعتراف أكبر بحقوقهم وبدور لهم أكثر حضوراً في الحياة العامة.

لكن الأمر يختلف حين يتعلّق الأمر بالانجيليين المحافظين. فتكرار الحديث عن صعودهم، وحضورهم الاعلامي البارز، والصخب الذي يحيط بالسجالات التي تطلقها تصرفات بعض رموزهم أو تصريحاته، يعطي صورتهم حجماً أكبر من الواقع.

ويصح ذلك بشكل لافت في حالة اليهود الذين لا يتجاوز عددهم الـ ٢,٥٪ من مجموع الأميركيين، فيما يظهر استطلاع أجري عام ١٩٩٠ ان معدل هذه النسبة في تقدير الأميركيين هو ١٨٪[٢٧].

ولعلّ هذا التفاوت بين الصورة والواقع يقلّل من الحرج في إعطاء تقديرات متفائلة. فالمنظمات اليهودية غالباً ما تتوقف عند تناقص أبناء دينها بفعل الزيجات المختلطة بين يهودي(ة) وغير يهودي(ة) التي بلغت في السنوات الأخيرة ٥٢٪ من إجمالي الزيجات. غير أن ذلك لا ينعكس إلا قليلاً جداً في الإحصاءات التي تنشرها سنوياً اللجنة اليهودية الأميركية[٢٨].

مهما يكن من أمر، لا تثير أعداد المنتمين الى مختلف الأديان والمذاهب في الولايات المتحدة الحساسيات القوية التي نشهدها في غير مكان من العالم وفي بلد كلبنان بصورة خاصة. غير أن ضخامة الفوارق بين ما تعلنه بعض الجهات المتخصّصة وما يقترحه ممثلو عدد من الطوائف يتطلّب، في الحدّ الأدنى، تفسيراً مقنعاً.

ومن أكثر الأرقام جدية تلك التي صدرت عام ٢٠٠٠ عن مركز غلنماري للأبحاث Glenmary Research Center[٢٩]، والتي أحصت المنتسبين الى كيانات دينية. وجاء في نتائج الدراسة ان ١٤٠ مليون أميركي، أي أقلّ بقليل من نصف مجموع السكان، أعضاء في جماعات دينية. وهذه النسبة هي أقلّ بشكل ملحوظ من نسبة البالغين الذين يختارون أو يفضلون هذا الدين والمذهب أو ذاك وهم ٨٥٪ من الأميركيين[٣٠].

يتوزع الـ ١٤٠ مليون منتسب الى «كيان ديني» على ٦٦ مليون بروتستانتي و٦٢ مليون كاثوليكي و٦ ملايين يهودي و٤ ملايين من المورمون و٦,١ مليون من المسلمين ومليون واحد من المسيحيين الأرثوذكس و٢٠٠,٠٠٠ من أهل الديانات الشرقية.

لا تُميّز الدراسة بين البروتستانتيين المنتسبين الى مذاهب الخط الرئيسي والانجيليين المحافظين لان قاعدة إحصائها هي الكنائس المحلية، التي ينتسب عدد منها، أو أجزاء من هذه وتلك، اسمياً الى مذاهب الخط الرئيسي فيما هي إنجيلية محافظة، ولان عدداً كبيراً ممّن يعتبرون أنفسهم انجيليين محافظين لا ينتسب الى أية كنيسة محلية.

من جهتها، تشير تقديرات، معظمها مبني على استطلاعات، إلى ان عدد البروتستانتيين الذين يجهرون بانتمائهم يتجاوز الـ٨٠ مليوناً وهم يتوزعون

بالتساوي، حسب الرأي الشائع، بين بروتستانتيي الخط الرئيسي والانجيليين المحافظين. وكثيراً ما نقرأ رقم الأربعين مليوناً من الانجيليين المحافظين.

من جهتهم، لا يتجاوز الكاثوليك كثيراً، وبحسب التقديرات الشائعة، العدد الذي تذكره الدراسة. غير الأمر يختلف عند اليهود. فرغم ان العدد الاجمالي مطابق للتقديرات الشائعة، فان المتسبين، فعلياً لا اسمياً، الى المذاهب الثلاثة أقل من رقم الملايين الستة المقترح. فهناك ٢٧٪ من اليهود يقولون ان لا دين لهم و٤٦٪ يرتادون الكنيس بشيء من الانتظام وهم يتوزعون على الاصلاحيين ٣٩٪ والمحافظين ٣٣٪ والارثوذكسيين ٢١٪ وسواهم ٧٪[٣١].

اما المسيحيون الأرثوذكس والمسلمون والمنتمون الى الديانات الشرقية الكبرى فهم بلا شك أكثر عدداً من الذين أحصتهم الدراسة. فلا يخفى على أحد أن المؤسسات الدينية المعروفة لم تستقطب كل المنتمين الى هذه الجماعات الدينية.

فالأرثوذكس، بحسب التقديرات الكنسية المختلفة، يبلغون ٤ أو ٥ ملايين. إلا ان هذه الأرقام تشمل الأرثوذكس الاسميين وعدداً من الذين انقطعوا عن كنائسهم الأصلية بفعل الزيجات المختلطة.

وعلى غرار الأرثوذكس، تشير التقديرات الإسلامية الى أن عدد المسلمين يراوح بين ٥ و٦ ملايين، نصفهم من الأميركيين السود والمهتدين، فيما يتوزع النصف الثاني على ١٥٪ من أصول عربية و٣٥٪ وفدوا إلى أميركا من شبه القارة الهندية ومن بلدان أخرى في آسيا وأفريقيا.

ويظهر التفاوت بين أرقام الدراسة وتقديرات المعنيين على نحو أكثر وضوحاً في حالة الديانات الشرقية والآسيوية. فمجموع الهندوسيين والسيخ والبوذيين والتاويين والكونفوشيين وسواهم يصل الى ٣ ملايين وأكثر. غير أن الدقة في إحصائهم صعبة المنال، لأسباب يشتركون في معظمها مع الأرثوذكس والمسلمين.

هوامش الفصل الأول

١ - Alexis de Tocqueville, *De la démocratie en Amérique*, Préface et bibliographie par F. Furet, 2 vol, Paris, Garnier Flammarion 1981, Tome II, Ch V.

٢ - Grace Davie, Europe: *The Exceptional Case: Parameters of Faith in The Modern World*, Darton, Long man and Todd, London, 2002, pp. 27-54.

٣ - David G. Myers, *The American Paradox, Spiritual Hunger in An Age Of Plenty*, Yale University Press, 2000.

٤ - A National Survey by The Washington Post, The Henry Kaiser Family Foundation and Harvard University, *The Politics of Religion*, October 1998.

٥ - Georges Gallup Jr. and D. Michael Lindsay, *Surveying The Religious Landscape*, More house Publishing, 1999, pp. 9-10.

٦ - Pew Research Center for the People and the Press, *American Struggle with Religion's Role at Home and Abroad*, Released March 20, 2002, p. 4.

٧ - George Gallup, *Surveying The Landscape*, Op. cit, pp. 11 and 137.

٨ - Pew Research Center, Op. cit, pp 4-5.

٩ - George Gallup, *Surveying...*, Op. cit, p.13.

١٠ - Glenmary Research Center, *Religious Congregations and Memberships*, 2000.

١١ - Robert N. Bellah, *Civil Religion in America*, Journal of the American Academy of Arts and Sciences, V. 96, N° 1, 1967.

١٢ - Will Herberg, *Protestant - Catholic- Jew, An Essay in American Religious Sociology* Garden City, New York, Doubleday, 1955, p. 97.

١٣ - Lipset, *The First New Nation*, New York, Basic Books, 1964, p.

١٤ - Alexis de Tocqueville, *De la Démocratie en Amérique*, Op. cit, Tome II, Ch.5

١٥ - Henri Bargy, Quoted in Bellah R. N., *Civil Religion*, Op. cit, p11

١٦ - Robert N. Bellah, *The Broken Covenant: American Civil Religion in a Time of Trial*, New York, Seabuny, 1975, p.

١٧ - Elizabeth Lesser, *The New American Spirituality: A Seeker's Guide*. Random House, New York, 200, pp. XI-XVII.

١٨ – George Gallup Jr. and D. Michael Lindsay, *Surveying the Religious Landscape*, Op. cit, pp. 40-41.

١٩ – Ibid, p.32

٢٠ – Peter W. Williams, *America's Religions From Their Origins To The Twenty-First Century*, University of Illinois Press, Chicago, 2002 3rd edition, p. 1.

٢١ – Wade Clark Roof and William McKinney, *American Mainline Religion, Changing Shape and Future*, in Thomas E. Dowdy and Patrick H. McNamara, (editors), *Religion, North American Style*, Rutgers University Press, New Jersey, 1997, pp. 75-80.

٢٢ – George Gallup Jr. and D. Michael Lindsay, *Surveying the Religion Landscape*, Op. cit, p18.

٢٣ – Barna Research online, www. Barna.org, Research Archives, *Evangelical Christians and Born Again Christians*.

٢٤ – George Gallup Jr. and D. Michael Lindsay, *Surveying the Religion Landscape*, Op. cit, p. 68.

٢٥ – George M. Marsden, *Defining American Fundamentalism* in Norman J. Cohen (ed) The Fundamentalism Phenomenon, Eederman. Grand Rapids Michigan, 1990. p. 22.

٢٦ – هذه العبارة عنوان لكتاب عن الخمسينيين وضعه أحد كبار اللاهوتيين المعاصرين.
Harvey Cox, *Fire From Heaven, the Rise of Pentecostals in the Twenty-First Century*, Cassel, 1996.

٢٧ – Lenni Brenner, *The Demographics of American Jews*, Counterpunch, October 24, 2003.

٢٨ – The American Jewish Committee, *American Jewish Year Book: A Record of Events and Trends in American and World Jewish* Life.

٢٩ – Glenmary Research Center, *Religious Congregations and Membership: 2000*.

٣٠ – Pew Research Council, *Americans Struggle With Religion's Role at Home and Abroad*, released in March 20, 2002.

٣١ – Center for Jewish Studies, City University of New York, *Jewish Identity* Survey, 2001.

الفصل الثاني

من صحوة دينية إلى أخرى

يضع مؤرخ كبير للمسيحية في أميركا[1] خمس مئة عام من التديّن تحت علامة «الحج». ذلك أن فئات واسعة من المسيحيين، على اختلاف مذاهبهم وأصولهم العرقية، أضفت على أصناف هجرتها وانتقالها معنى روحياً من خلال الرجوع الى القصص الديني والرموز الكتابية.

ويميل الكثيرون ممّن يستعيدون ماضي الولايات المتحدة الديني الى التأكيد أن لا سابقة تاريخية لتجربتهم الفريدة التي سمحت بتعايش جماعات دينية شديدة التنوع. ولا يفوتهم، في الغالب، الاعتزاز بأن الأميركيين حافظوا عبر العصور على خصوصياتهم الدينية من غير إكراه ولا تناحر دموي بينهم.

في البدء كانت الطهرانية

ولا يختلف معظم المؤرخين حول أولية دور الطهرانية البروتستانتية التي طبعت أميركا في زمن نشأتها بطابع يميزها عن سواها من الدول، بما فيها البروتستانتية في أوروبا. وهو ما زال مؤثراً في شخصيتها الجمعية حتى يومنا هذا.

وكانت الطهرانية هذه قد ولدت في رحم حركة الإصلاح التي بدأت في أوروبا، حوالي خمس وعشرين سنة بعد «اكتشاف» أميركا. غير أن بعض المؤرخين يتوقف عند العقود الثلاثة السابقة للبروتستانتية في أميركا ليبرز القراءة الدينية لرحلة كريستوفر كولومبوس الاكتشافية. فعلى خلفية الاحياء الديني في اسبانيا والبرتغال وقوة دفعها الإرسالي، يشار الى الحماسة الكاثوليكية والماسيانية اللتين عُرف بهما البحّار المغامر[2]. ولا ينفي ذلك، بطبيعة الحال، شهوتَي المجد والذهب وفعلهما في نفس كولومبوس. لكنهما اختلطتا بالتطلع الإرسالي التوسعي نحو آسيا ومع الرغبة في هداية

المستعمَرين الى المسيحية بقصد ضمان خلاصهم.

هذه الرغبة لم تكن مؤثرة بالقدر ذاته عند أوائل الذين استوطنوا أميركا بعد كولومبوس. فالغزاة الاسبانيون ومن ثم الفرنسيون الذين جاؤوا الى أميركا الوسطى، وبعض أطراف ما صار في ما بعد جنوب الولايات المتحدة، لم ينشغلوا البتة بخلاص السكان المحليين. ولم تكن في أعينهم أية قيمة لحياة أولئك الناس. فانصرفوا الى استعبادهم، ما خلا قلة من الاكليريكيين، وأبرزهم بارثولوميه دولاس كاساس Bartholomée de Las Casas الذي دعا الى مسح دموع «الهنود» والى تحمل العذاب معهم ولإجلهم[٣].

ليس قصدنا أن نتابع قراءة مختصرة لتاريخ الولايات المتحدة ولا أن نقدّم عرضاً تفصيلياً لتطور المذاهب الدينية المختلفة، أو نشأة بعضها الأميركية. بل ان ما يعنينا في الدرجة الأولى هو النظر في الجذر التاريخي للاستقطاب داخل البروتستانتية ودورها في الحياة العامة والأخذ والرد في علاقتها بالوطن الأميركي.

يبدأ تاريخ الاستيطان البروتستانتي في أميركا الشمالية مطلع القرن السابع عشر. جاء المستوطنون من أوروبا المنقسمة، دينياً وثقافياً، وتنافسوا على الأرض الأميركية، في السياسة والتجارة والدين. ومن الأوائل الذين استقروا على الشاطىء الشرقي في منطقة دعيت «انكلتره الجديدة»، كانت جماعات تؤمن ان العهد بين الله وبينها هو في أصل الهجرة الى البلاد الجديدة. وكلما قرأوا الكتاب المقدس، وكانوا يفعلون ذلك بتواتر، رأوا أنفسهم بمثابة شعب الله. ويقول بعض الطهرانيين الذين أتوا من أطراف الكنيسة الانغليكانية (أو بالأحرى كنيسة انكلتره) من أصحاب النزعة الإحيائية التي أوصلتهم حد الانشقاق عن جماعتهم الأم، ان رحلتهم الى أميركا تشبه العبور الى «أرض الميعاد»[٤]. لقد تشبَّع الطهرانيون بالكالفينية لكنهم طعّموها بحس جماعي قوي.

ولحق بالانكليز هولنديون من مزاج ديني مشابه وإن كانوا على عقيدة بروتستانتية أخرى. كما انضم اليهم بعض اليهود وأكثرهم من السفرديم الذين أخرجوا من اسبانيا إلى البرتغال فهولندة.

وحين أسّس المستوطنون كنائس في القارة الجديدة اعتمدوا النمط السائد في أوروبا لجهة التجانس الديني في مكان معيّن. وأقاموا علاقة وثيقة بين الكنيسة والسلطة تسمح باقتطاع حصة للأولى من الضرائب التي تجبيها الثانية. ولكنهم سرعان ما طوّعوا النموذج الديني الأوروبي بما يتلاءم مع خصائص بلادهم الجديدة فكان لكل تجمع استيطاني كنيسة رسمية أو ذات أفضلية. وأعطيت الحرية لمن خالف عقيدتها أو اعترض على تعليمها أن ينتقل الى مكان آخر.

صحيح أن حركة الإصلاح البروتستانتية في أوروبا أطلقت حريات جديدة في العالم المسيحي، إلا أنها بعد تحولها الى كيانات جديدة تعاملت بقساوة مع مناوئيها أو الغلاة من أتباعها، مما دفع بهؤلاء الى الرحيل. وحملوا خصوصياتهم الى أميركا وأنشأوا باسمها جماعات دينية جديدة.

ولم يقتصر التعدد داخل البروتستانتية الأميركية على الحركات الوافدة بل شمل أيضاً جماعات دينية تشكلّت في العالم الجديد نفسه. وبدت الانشقاقات داخل الكنائس وكأنها الشاهد الأول على التمتّع الكامل بالحرية الدينية. ولم يكن التشديد على الحرية الدينية ورفعها الى مرتبة المقدسات ضابطاً للمنافسة بين الجماعات الدينية بل كان، على الأرجح، حافزاً لها. إن العمل الإرسالي شهد سباقا محموماً بين تلك الجماعات خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، لكنه ما لبث أن تراجع.

من الصحوة الكبرى الى دين المؤسسين

وفي مطلع القرن الثامن عشر كثيراً ما استعاد الوعّاظ بالذاكرة أيام الأولين المجيدة حين عُرف الناس بالأمانة للعهد مع الله. وباسم العودة الى الأصل أوقدوا نار الإحياء الديني من جديد. وتزامن ذلك، في ثلاثينات القرن، مع فورة في المشاعر الدينية عرفتها انكلتره. وتغيّرت اشكال التدين والأفكار اللاهوتية المؤسِّسة لها منذ انطلاقة ما سمّاه أكثر المؤرخين «الصحوة الكبرى»، في البلاد القديمة كما في البلاد الجديدة. وازداد التشديد على أن يختار المؤمن يسوع المسيح بصورة شخصية ويدعو الروح القدس لكي يعمل

في قلبه ويلهمه باعتماد هذه الصيغة من المسيحية بدل تلك.

واليوم، وبعد أقل من ثلاثة قرون من الصحوة الكبرى هذه، تدين مجموعة كبيرة من الكنائس بوجودها للمنافسة بين الدعاة والوعّاظ التي استنهضت، بقوة لم تُعرف من قبل، العاطفة الدينية الكامنة. ويبلغ تأثير الصحوة المذكورة حداً دفع بالمرسلين الكاثوليك، الذين جاؤوا الى الولايات المتحدة بأعداد كبيرة في القرن التاسع عشر، الى اعتماد بعض أساليب البشارة البروتستانتية. وفعلت الصحوة إياها فعلاً كبيراً بين السود. قبل ذلك لم يُبذل إلا جهد قليل في سبيل دعوتهم الى اعتناق المسيحية.

وعقبت الصحوة الدينية الكبرى ثلاثة تحولات مهمة. أولها استقلال أميركا وثانيها إرساء قواعد جديدة للعلاقة بين الكنائس والدولة وثالثها اعتبار الدين شأناً يخص العقل أكثر من القلب، مما يجعله بمتناول الجميع، سواء آمنوا بالكتاب المقدس كوحي الهي خاص أم لم يؤمنوا. جاء التحول الأول نتيجة ثورة سياسية وعسكرية. وتحكّم بالثاني الاضطرار الى المواءمة بين واقع التعدد الديني وقيام الدولة الواحدة. أما الثالث فبدا انعكاساً لاكتشافات «عصر الأنوار» وأفكاره.

وساهم رجالات الدولة المؤسسون للولايات المتحدة في إحداث تغيير حقيقي في المجال الديني. فعملوا أولاً على إقناع المتدينين ان الدين يتعدّى حدود الجماعة التي ينتمون اليها. ووجّه عدد منهم، وأبرزهم بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin، طاقته الدينية صوب الأمة فتحدّث عن «الدين العام». ورأى آخرون، كتوماس جيفرسون Thomas Jefferson، التشديد على الفردانية في الدين، على نحو تشي بها عبارة لتوماس باين Thomas Payne «ان عقلي هو كنيستي»[٥]. وهكذا راجت، خلال العقود الأربعة التي تلت «الصحوة الكبرى»، فكرة «الدين العام» التي رأى فيها قطاع كبير من المتدينين خروجاً عن المسيحية المُصلحة، بل قالت فئة منهم انها كفر أو وثنية جديدة.

وعلى الصعيد الفلسفي، بدت هذه البدعة وكأنها الصيغة الأميركية المنتجة محلياً لحركة الأنوار الأوروبية والتي أخضعت شؤون الروح لسيادة

العقل. واعتبرها عدد من اللاهوتيين نوعاً من الربوبية Deism أي قبولاً بوجود الله من غير الاعتقاد بالوحي وبأيّ من الديانات بعينها. وعلى هذا النحو شهدت الولايات المتحدة ظهور ما سُمي «دين الجمهورية» وهو الأساس الذي قام عليه، بعد قرنين، ما دعي «الدين المدني»[٦]. وأياً كان من أمر النعت الذي أطلق على هذا «الدين»، فانه ينطوي على رغبة في إعطاء الأمة معنى في النطاق الرمزي على نحو يتعدى حب الوطن والولاء له. وهو محاولة، غير واعية عند فئة ونصف واعية عند فئة أخرى، لإعطاء أميركا مكانة خاصة في مقاصد الله للعالم.

لقد رأى الآباء المؤسسون للولايات المتحدة انهم بحاجة الى نوع من المعتقد الكوني الذي يتسع لكل المذاهب المسيحية الأميركية. وفيما مال أكثرهم الى الاكتفاء بإجلال إنسانية يسوع المسيح لا أكثر، ذهب البعض، على غرار بنجامين فرانكلين، الى القول إن المسيحية الأصلية قد غيّرتها العصور وأصابتها تشوّهات كثيرة.

وكان بعض رجالات الدولة الأوائل متدينين باعتدال. فجورج واشنطن Georges Washington كان يرتاد الكنيسة مرة واحدة في الشهر ولم يكن يُظهر اهتماماً يذكر بالعقيدة المسيحية. وكثيراً ما نظر الى الدين من حيث هو شرط للأخلاق وإليهما معاً كقاعدة للازدهار السياسي. على منواله شدّد توماس جيفرسون على ان طهارة الإيمان وبساطته أساس المسيحية والنظام الخلقي في آن واحد. وفي نص إعلان الاستقلال، عام ١٧٧٦، أتى على ذكر «الحقائق البيِّنة» التي تؤكد ان الخالق خلق الناس متساوين من حيث حقوقهم غير القابلة للتصرف في الحياة والحرية وطلب السعادة. كما لم تغب عن كتاباته وأقواله اللاحقة إشارات الى «رسالة أميركا» والى انها بمثابة «أمة مختارة».

لم يغفل إعلان الاستقلال ذكر «العناية الإلهية»، بل انه تحدّث أيضاً عن «قاضي العالم الأعلى» من غير أن يسمي الله باسمه. وتفسِّر هذا الحذر طبيعة الثورة الأميركية التي لم تكن حدثاً دينياً بل دهرياً. وحين أقرَّ الكونغرس عام ١٧٩١ شرعة الحقوق، جاء في التعديل الأول، من بين التعديلات العشرة

على الدستور الفدرالي، أن ليس من دين رسمي للحكومة غير أنها تضمن حرية العبادة للجميع. ويكاد المؤرخون يجمعون، ومعهم اللاهوتيون، على أن النص المذكور يتوخى تحرير السلطة من نفوذ دين بعينه وحماية الدين من تأثير السلطة، وذلك على نحو غير مسبوق وهو يميّز التجربة الأميركية عن سواها.

لم تدم «الصحوة الكبرى» طويلاً بعد تكوّن الولايات المتحدة. ونجح رجالات الدولة الناشئة ان يخففوا من تأثير العلاقة بين الجماعات الدينية والسلطة المدنية. ويمعنى ما، بشّروا بنوع من «الدين العام» الذي يكمّل، وينافس في الوقت ذاته، دين الجماعات الكنسية. وأدّى ذلك الى نوع من خسارة النفوذ لدى الكنائس في المناطق الممتدة على الساحل الشرقي. ومنذ مطلع القرن التاسع عشر، سعت الجماعات الدينية للتعويض عن خسارتها بواسطة عمل إرسالي موجّه نحو أصقاع أخرى من البلاد. وفيما لم تعر أي التفات جدير بهذا الاسم نحو السكان الأصليين الذين اقتلعتهم من أرضهم والسود الذين استعبدتهم، صوّبت جهودها نحو الغرب. وجرى تسابق محموم في ما بينها.

وقامت داخل الكنائس في «انكلتره الجديدة» حركات تبغي نقل البشارة المسيحية الى البلاد الآسيوية. وكانت شبه القارة الهندية والصين محطّ أنظار الكثيرين، فيما نادى آخرون بحملة تبشيرية تتوجه الى فلسطين. وتشبّعت تلك الحملة بفكرة إعادة انجيل المسيح الى الأراضي المقدسة، وقبل مجيئه الثاني بل استعداداً له. ولكنها سرعان ما فشلت في حمل اليهود، وكانوا على قلّتهم في فلسطين هدفاً أولاً للتبشير، على اعتناق المسيحية. وتراجعت عن هذه المهمة لتنصرف الى «تعليم» المسيحيين الشرقيين ومن ثم «اصلاحهم» وتنتهي الى إنشاء كنائس جديدة على حسابهم.

آثار الحداثة والصحوة الثانية

ورغم زخم الحركات التبشيرية، باتجاه الغرب والى ما وراء البحار، لم تنجذب أكثرية الأميركيين الى التيارات الإحيائية على اختلافها، بل مال

الأميركيون عموماً الى الإفادة من حرية الاختيار التي أتت بها الحداثة ليتديّنوا على نحو يلبّي حاجاتهم الفردية من دون ان يضعف ذلك من اعتقادهم ان الحقائق التي يؤمنون بها كونية. وهكذا بات «الدين العام» مقبولاً، بل مرضياً، على نطاق واسع. فنمت كنائس وضعفت كنائس أخرى. وظلت الأمة الأميركية نفسها الى جانب الكنائس حيناً وبديلاً منها حيناً آخر، مصدراً، وفي الوقت نفسه مستودعاً، للقيم وللعاطفة الروحية.

لكن نشوء طوائف جديدة وشيوع الفردانية الدينية وتحوّل الأمة ذاتها الى نوع من الكنيسة، لم يغيّر الخريطة الدينية بشكل جذري. فظل معظم الأميركيين بروتستانتيين بالمعنى الاصطلاحي، ممارسين بأقدار متفاوتة من التواتر. ونظروا، في غالبيتهم، الى سكان البلاد الأصليين وكأنهم مواطنون من بلد أجنبي يقيمون على الأرض الأميركية. وحلّ نظام التفرقة العنصرية محل العبودية التي تحرر السود منها. ووفدت الى أميركا، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، أقليات دينية متعددة أبرزها الكاثوليك واليهود.

ووجدت هذه الأقليات نفسها متنازعة بين الحاجة الى التكيّف والرغبة في الحفاظ على الخصوصية. فالكاثوليك مثلاً أصرّوا، رغم الصعوبات والاعتراضات، على انشاء مدارس خاصة بهم لان المدارس العامة المفتوحة أمام الجميع كانت بروتستانتية الطابع. في المقابل، اختاروا بسرعة الأمركة الثقافية على حساب الهويات اللغوية للبلدان الأوروبية التي أتوا منها خوفاً من وصم إيمانهم الديني بالأجنبي الوافد.

من جهتهم، لم يختبر اليهود مشكلات التكيّف بالحدّة اياها. ففي القرن التاسع عشر لم يكن العداء لليهود في أميركا بقوة العداء للكاثوليك. ربما كان السبب الرئيسي قلة عددهم. بيد أنهم وجدوا أنفسهم معرّضين لضغوط الأمركة. وانقسموا في تعاملهم مع هذا الضغط. فالتقليديون الأرثوذكس خافوا من أن يؤدي تكيّفهم على المستوى الديني الى تصديع انتمائهم الراسخ في القدم. واختلفوا بشأن اللغة المعتمدة في الصلاة والتعليم وفي أمر تطبيق كامل شرائعهم مع الذين اختاروا الانسجام مع الشائع في الحياة الأميركية. وكان هؤلاء أصرّوا على عدم التفريط بالنواة غير القابلة للتصرف في هويتهم

الدينية. وسمّوا في ما بعد المحافظين. وفي أواخر القرن التاسع عشر مالت الكفة لمصلحة تيار ثالث في اليهودية يدعى اصلاحياً، يشدّد على التجاوب مع «روح العصر» ويقول باصلاح العقيدة والعبادات ليصير الدين أقرب الى الأخلاق المنكَّهة بالروحانية اليهودية الخاصة.

لا يمكن فصل العمل الارسالي الذي ازدهر في النصف الأول من القرن التاسع عشر عن بدايات ثاني صحوة دينية كبرى في الولايات المتحدة. ويرتقي أصل هذه الصحوة العقدي الى الحركة الانجيلية التي شهدتها انكلتره واسكوتلنده في القرن الثامن عشر. وهي تتشابه مع الصحوة الأولى على غير صعيد. إلا انهما تختلفان في قضية مهمة. لقد شدّدتا على سلطة الكتاب المقدّس وعلى الاهتداء الشخصي للإيمان بيسوع المسيح وعلى ضرورة نشر الإنجيل بين الناس. لكن أهل الصحوة الأولى غالباً ما وجدوا أنفسهم في حالة انتظار وتقبّل لفعل الله فيهم. وكثيراً ما توقفوا عند خطاياهم التي تشلّ من قدرتهم على تلقي النعمة الإلهية. أما أهل الصحوة الثانية فكانوا أكثر تفاؤلاً، بل على ثقة بأن نعمة الله قد أنقذتهم من ربق خطاياهم.

وهذا ما جعل حيويتهم، بما فيها السياسية، أشدّ وقعاً على مجريات الأحداث التاريخية مما أحدثته الصحوة الأولى. ويظهر ذلك إبان الحرب الأهلية بين عامي ١٨٦١ و١٨٧٥. والغريب في الأمر هو أن المواقف والمشاعر الدينية أثّرت على طرفَي المواجهة الدموية بطريقتين متناقضتين.

لقد استعر صراع الشمال والجنوب بفعل الخلاف حول عبودية السود وخلافات أخرى، أقل أهمية، حول طبيعة الدولة الفدرالية. وكان المسيحيون المؤمنون من البيض الشماليين أول من عارضوا الرق في القرن الثامن عشر وقدموا مسوّغات دينية للمطالبة بإزالته. غير أن الدعوة الصريحة الى أن يأتي ذلك كاملاً وفورياً انتظرت مطلع الثلاثينات في القرن التاسع عشر. في المقابل، رأى عدد غير قليل من مسيحيي الجنوب ان الكتاب المقدس لا يتنافى مع العبودية. فالعبودية مقبولة في العهد القديم فيما يدعو العهد الجديد العبيد الى طاعة سادتهم. وأضافوا ان بقاء السود في العبودية عند البيض يعطيهم فرصة لتحقيق إنسانيتهم ويتيح تبشيرهم بالمسيح سعياً

وراء خلاص نفوسهم.

وهكذا فان الحرب الأهلية كانت بمعنى ما حرباً بين المسيحيين. أدّى الشرخ الكبير الى انقسام داخلي في كل الكنائس، بما فيها الكاثوليكية التي سرعان ما استعادت وحدتها بخلاف عدد من المذاهب البروتستانتية. وقامت نتيجة الانقسامات كيانات كنسيَّة متنافرة. ولم تحقق تقارباً بينها يستحق الذكر حتى العقود الأخيرة من القرن العشرين.

كان رجال الدين الشماليون يدعون للإسراع في التطهّر من خطيئة العبودية حتى تبدأ ألفية جديدة من السنين يتحقق خلالها السلم والازدهار اللذان وعد بهما الكتاب المقدس. أما الجنوبيون فردوا على ذلك بالقول أن الشمال صار أرض الكفر فيما ظلّت مناطقهم أرض الأمانة للمثل الكتابية.

لقد قرأ المحاربون الكتاب المقدس نفسه وتضرعوا الى الله نفسه ليؤيدهم في حربهم على أعدائهم. إلا أن المسيحية لم تكن سبباً للحرب. لكنها جعلت من حل مشكلة الرق بشكل سلمي أمراً متعذراً. وهذا ما دفع ابراهام لنكولن Abraham Lincoln إلى القول، بعد استهجانه الصلاة الى الله من أجل الحفاظ على نظام العبودية، ان الحرب الدامية كانت عقاباً إلهيا للجميع.

التنوع الديني والعلمانية الأميركية

كان للحرب الأهلية، في جملة ما خلّفته من آثار، دور كبير في التسبب بتباطؤ الهجرة الى الولايات المتحدة. لكنها عادت فتسارعت في مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى. ووصل الى الولايات المتحدة، خلال ربع قرن، ما يقارب الخمسة وعشرين مليون مهاجر. وكانت غالبية الوافدين من الكاثوليك، الايرلنديين أولاً والبولونيين والايطاليين من بعدهم. واعترى علاقة البروتستانت بهؤلاء الأميركيين الجدد نوع من الارتياب. وكان يتغذى من الخلافات العقائدية حول سلطة الكتاب المقدس وسلطان الكنيسة، ومن موقف تقليدي بروتستانتي معاد للبابا، ومن الاعتراض على تساهل الكاثوليك النسبي في

مسائل الكحول والميسر والتزام الراحة المطلقة أيام الآحاد. إلا أن هذا الارتياب تبدّد بشكل تدريجي في أواخر القرن. ونادى بعض الكاثوليك، والذين نُعتوا بالأميركانيين Americanists، بالتعاون مع البروتستانت والانخراط في الحياة العامة.

وفي الفترة نفسها، قصد الولايات المتحدة عدد من المهاجرين الأرثوذكس يقارب المئة ألف من بلدان شرق المتوسط كاليونان وسوريا فانضموا الى الروس. وكانت لهؤلاء جذور منذ وصولهم الى الاسكا، والتي انتقل منها الأرثوذكسيون الى كاليفورنيا فسائر أنحاء الولايات المتحدة. وتفردوا على هذا النحو بكونهم الجماعة الدينية التي سلك انتشارها طريق الغرب الى الشرق.

وخلال الفترة الفاصلة بين نهاية الحرب الأهلية والحرب العالمية الأولى، شاعت بين المسيحيين أفكار حول قرب الله من الناس وحول الكتاب المقدس بوصفه كتاباً بشرياً وحول التطور. ولم يعد غريباً الكلام عن أوجه التشابه بين المسيحية وغيرها من أديان العالم الكبرى. قبل ذلك التاريخ، لم يلتق معظم الأميركيين مسلماً أو هندوسياً أو بوذياً ولم يعرفوا شيئاً عن أخلاقياتهم وروحانياتهم.

وجنح عدد محدود من الأميركيين الى نوع من اللاادرية في ما يخص الايمان بالله وباليوم الآخر. ونظرت أقلية أخرى، أكثر عددا من اللاادريين، الى نفسها بوصفها جماعة من «المتدينين الأحرار» الذين لا تقيّدهم كنيسة بعينها. غير ان التيار الذي اتسع تأثيره على نطاق واسع كان تيار «الليبراليين» المسيحيين.

وتميز الوعي الديني الليبرالي بأولية الإيمان القائم على اختبار حضور الله في الحياة اليومية وفي قلوب الناس بدل ارتكازه على العقائد المجرّدة. ومن خصائص هذا الوعي التعامل مع الكتاب المقدس من حيث هو قصة أفعال الله الخلاصية في التاريخ. وكان المسيحيون الليبراليون، الذين احتلوا مواقع بارزة في الجامعات العريقة ولعبوا دوراً كبيراً في تنشئة القسيسين والوعاظ، على يقين بأنهم يحافظون على النواة الأساسية للإيمان التقليدي ولا يفرّطون

بها. ولم يجدوا فائدة في مقاومة التفكير النقدي الحديث بل اختاروا التوفيق بين القديم والجديد والأخذ بأحسن ما فيهما. كما آمنوا بانجيلية العدالة الاجتماعية.

ويرى دارسون كثر لهذه المرحلة، بمن فيهم بعض الانجيليين المحافظين[٧]، ان العقود الفاصلة بين الحرب الأهلية الأميركية والحرب العالمية الأولى، وضعت حداً لهيمنة البروتستانتية على المجتمع الأميركي. ولم تعد العلمانية الأميركية تعني الفصل بين الدين والدولة فحسب، بل اتسع مدلولها ليشمل حالة من الاستقلال المتزايد للمجتمع عن المؤسسات والأفكار والرموز الدينية. وهذا ما يوحي بأن الليبرالية المسيحية لم تكن مجرد تعامل إرادي مع التحديات الجديدة بل انعكاس أيضاً للحراك الاجتماعي وللتطور السياسي.

الاصطفاف داخل البروتستانتية

ومهما يكن من أمر، فان انتشار المقاربة الليبرالية لشؤون الدين والدنيا عجّل في اصطفاف البروتستانتيين الأميركيين في ما يشبه الكتلتين الكبيرتين المتخاصمتين مذاك وحتى يومنا هذا. فبقدر ما دفعت الحداثة ببعض المسيحيين الى مراجعة مفاهيمهم الدينية ولغتهم ونظرتهم الى العالم، فضلاً عن إعادة النظر في الحداثة نفسها، أثارت عند فئة أخرى رغبة مضاعفة في التمسك بالتقليد.

ففي أواخر القرن التاسع عشر، استعاد الكثيرون نوعاً من الاحترام لحكمة الأقدمين الدينية. واهتم الذين سُمّوا محافظين بالحفاظ على ثبات الحقائق الدينية في وجه المتغيّرات وكانوا على قناعة بأن الماضي مفتاح لفهم المستقبل. وانشغلت فئة كبيرة منهم بالدفاع عن سلطة الكتاب المقدس وصحّته. ومنهم من وجد فيه تعزية كبيرة إزاء غمّ الحداثة مستذكراً الوعد بمجيء المسيح الثاني. واستدعوا تعلق الأميركيين الكبير بالكتاب المقدس الراسخ في ذاكرتهم وتراث بلادهم الديني. وشاع على سبيل المثال إعطاء الأولاد أسماء كتابية، من العهد القديم والجديد، وراجت بينهم معرفة

القصص الكتابي بوصفه رواية تاريخية صحيحة. وحركت مشاعرهم قصص الخروج من مصر والوصول الى أرض الميعاد وصور المدينة على جبل والسماء الجديدة والأرض الجديدة. لهذا كله، لم يكن مستغرباً ان يشهروا الكتاب المقدس في وجه الليبراليين الذين اعتمدوا المعايير العلمية الحديثة في تفسيره. لقد شدّد المحافظون على اليقين أن الكتاب المقدس كتاب الحقيقة، جملة وتفصيلاً، لا يشوبه أي خطأ، تاريخياً كان ام علمياً.

وفي مطلع القرن العشرين، دُعي معارضو الليبرالية أصوليين. ولم تكن التسمية جديدة بالكلية، غير انها التصقت بالفئة الانجيلية المحافظة بعد صدور اثني عشر كتيباً بعنوان «الأصول» بين عامي ١٩٠٩ و١٩١٥، تضمّنت أهم الحقائق المسيحية غير القابلة للتصرّف أو المراجعة. ولم يكن للأصوليين قائد بارز ولم يؤلفوا كنيسة واحدة. تنوّعت مؤسّساتهم التعليمية والإرسالية وخرج بعضهم من الكنائس البروتستانتية التقليدية ليؤسس كنائس جديدة، فيما بقي البعض الآخر فيها ليكوِّن «كنائس داخل الكنائس».

ورسمت السجالات المتكرِّرة الحدود بين الأصولية والليبرالي، وأبرز هذه السجالات من حيث دويِّه في المجتمع الأميركي ما رافق صدور قانون في ولاية تينيسي Tennessee يمنع تدريس نظرية التطور في مدارسها وجامعتها، وما عقبه من ممانعة أستاذ شاب تجرأ على مخالفة القانون المذكور[٨]. لقد كُتب الكثير عن هذا السجال، المفصلي حسب مؤرخي المسيحية الأميركية، والذي طال أمده وصولاً حتى أيامنا هذه. ومال أهمهم، كمارتن مارتي Martin Marty، الى القول ان الأصوليين باتوا منذ ذلك التاريخ حركة معارضة داخل البروتستانتية الأميركية فيما صار أهل التكيّف مع الحداثة، لأربعة عقود من السنين، الجهة التي تحدد مسار الحياة الدينية الأميركية. وأمسك هؤلاء بقيادة ما اصطلح على تسميته «مذاهب الخط الرئيسي» والتي يشكل نواتها أبناء الطبقة الوسطى من أحفاد المهاجرين الآتين من بلاد أوروبا. وألَّف اللاهوت السائد في معظم الكنائس المذكورة بين الليبرالية الاجتماعية و«الانجيل الاجتماعي» ولون من الارثوذكسية العقدية المتجددة. وتعاونت هذه الكنائس في ما بينها متجاوزة الحدود التي

أورثها اياها تاريخ أوروبا أو أقامتها المنافسة بين الحركات الإحيائية والإرسالية داخل الولايات المتحدة نفسها. وأدّى التعاون بين الكنائس الى شيوع الفكرة المسكونية، أي فكرة السعي الى وحدة المسيحيين، وفي سبيل تعزيزها قام في عام ١٩٥٠ المجلس الوطني لكنائس المسيح في الولايات المتحدة، والذي ضمّ في عضويته أيضاً الكنائس الأرثوذكسية.

لم يكن التيار الأصولي وحيداً في ساحة الرد على الطريقة التي تكيّفت بها الكنائس مع الحداثة. فالى جانبه قام تيار عمل على مخاطبة قلوب المسيحيين لجذبهم الى دعوته. انهم الخمسينيون الذين تشكلت نواتهم الأولى في مطلع القرن. وكان الحدث التأسيسي للجماعات الخمسينية، التي تكاثرت بسرعة مذهلة مذذاك، نطق أحد الطلاب الأتقياء لغة لم يفهمها أحد من أقرانه، قيل عنها بعدئذ انها الصينية. وكانت في كل حال لغة لم يتعلمها الطالب المذكور في حياته. ولم يتردد المتأثرون بهذا الحدث في القول إن ظاهرة التكلم بالألسن هي هبة من الروح القدس، ورأوا هذه الهبة تعيد إشعال روحانية مسيحية كادت أن تنطفىء عند الكثيرين. وانتشر الإحياء الخمسيني، وقد دعي كذلك في نوع من الاستعادة الرمزية لخبرة تلاميذ المسيح يوم العنصرة، وأطلق في صفوف الشباب حميّة تبشيرية لم تكتف بالتشديد على التكلم بالألسن، كتعبير عن فعل الروح القدس، بل على نيل الشفاء بوصفه موهبة أخرى من مواهبه.

وساهمت التطورات الاجتماعية اللاحقة للحرب الأهلية، ومنها ما يتّصل بالنمو الصناعي وتضخُّم المدن، في التخفيف من تفاؤل الانجيليين المحافظين بإمكان بناء مجتمع يكون بمثابة البداية لملكوت الله الأرضي. وباتوا، بخلاف أسلافهم في القرن الماضي، لا يحسبون العالم في حالة تقدم الى الأفضل ولا يؤجِّلون مجيء المسيح الثاني. واعتقدت فئة منهم أن المسيح ربما عاد في أية لحظة وانه في كل حال لن يتأخَّر، وسوف يدعو اليه المؤمنين الحقيقيين ويدين معارضيهم. وحثت قراءات لتاريخ العالم، وكأنه حقبات تتجدّد وفق تدبير الهي، على الاهتداء الشخصي بدل العمل على تغيير المجتمع. وظهرت بمثابة لاهوت ينطوي على تراجع في الإيمان

بالإنسان وقدرته على صنع المستقبل.

وعلى هذا النحو تعزّز الاستقطاب الليبرالي-الانجيلي المحافظ حول الكتاب المقدس والعلم والحداثة بتباين شديد بين المنادين بالعدالة الاجتماعية التي يوصي بها الانجيل والقائلين بأهمية التحرر من بنى الخطيئة الاجتماعية من جهة والمهتمين بالخلاص الفردي من جهة ثانية.

وأحدثت الحرب العالمية الأولى انقساماً بين الأميركيين. فهناك كنائس رفضت الحرب بصورة مطلقة على أساس إيمانها بعدم جواز استعمال العنف أياً كانت الظروف والمبررات. بيد أن الأكثرية لم تعارض الحرب. أما المساندة الأقوى لها فجاءت من الانجيليين المحافظين الذين شدّدوا على الرابط الوثيق بين المسيحية والقومية.

وككل الحروب، كانت الحرب العالمية الثانية ظرفاً مؤاتياً للتدين. وازداد التدين بعد انتهائها، حتى أن الرئيس ايزنهاور قال، عام ١٩٥٢، لا معنى لنموذج الحكم عندنا ما لم يقم على أساس إيمان ديني. وأضاف «لا يهمني أي إيمان كان». ولعلّه يشير بهذا القول، وإن بخفر، الى التنوع الديني في الولايات المتحدة حيث لم تعد هيمنة البروتستانتية على المجتمع كما كانت في القرن التاسع عشر.

ووجد البروتستانتيون أنفسهم مضطرين لمراجعة مواقفهم تجاه أديان العالم غير المسيحية. ودفعهم ذلك الى إعادة التفكير بالعمل الإرسالي فمال الليبراليون الى احترام الأديان الأخرى. وهذا ما أثار ريبة الانجيليين المحافظين الذين اعتبروه بداية التنازل عن الواجب المسيحي الكبير أي تبشير الأمم كلها بيسوع المسيح. ونسبوا اليه نوعاً من النسبية اللاهوتية، واعية أم غير واعية، تحبِّذ تنوع الأديان وتجد فيه غنى للبشرية وتجنح الى الاعتقاد بأن لكل دين قيمة بحد ذاته لا تقلّ عن قيمة المسيحية.

وساهم الانفتاح على الكاثوليك واليهود، والقبول بحقهم في لعب دور فاعل في الحياة العامة الى جانب البروتستانتيين، في انتشار عبارة «التراث المسيحي- اليهودي». ولم يعد أحد يجد حرجاً في القول إن التراثات الدينية هذه شريكة في صنع طريقة العيش الأميركية[٩]. لكن الشراكة الثلاثية أدّت في

ما بعد، وعلى يد الانجيليين المحافظين، وظيفة اقصائية بحق المسلمين والهندوس والبوذيين والسيخ وغير المؤمنين بأي دين.

الصحوة الثالثة

وصعد نفوذ الانجيليين المحافظين عند منتصف القرن العشرين. ورأى فيه البعض صحوة ثالثة. وعادة ما يُنسب الدور الكبير في هذا الصعود للواعظ الشهير، ولعلّه أشهر وعّاظ أميركا، وليام فرانكلين (المعروف ببيلي) غراهام Billy Graham. كان صاحب موهبة أكيدة وبلاغة لافتة، وقد نجح في صياغة دعوته الدينية بلغة لا تحتمل التباساً أو حيرة أو تساؤل. فقال للأميركيين: توبوا عن خطاياكم واسألوا المسيح أن يحلّ في قلوبكم فتخلصون. واستمال غراهام الكثيرين وحظي بدعم لا يستهان به من النافذين من أهل السياسة والاقتصاد وذلك لأنه شنّ «حملة صليبية» مثابرة ضد الشيوعية، لم يوفّر فيها سلاحاً عقائدياً أو تاريخياً.

وعلى منوال غراهام، نسج عدد متكاثر من القسيسين والوعّاظ الجوّالين، يساعدهم في مهمتهم تطور وسائل النقل، الجوية خصوصاً، ووسائل الاعلام الإذاعية فالتلفزيونية. دعوا الأميركيين بلا كلل الى أن يولدوا من جديد ووعدوهم بالخير العميم. وبخلاف الكنائس المنضوية في المجلس الوطني للكنائس، لم تشغلهم، ولسنوات طويلة قضايا العنصرية والتفاوت الاجتماعي.

بيد أن هاتين المشكلتين الكبيرتين هزّتا الضمير الديني عند فئات مسيحية واسعة. ففي عدد كبير من الولايات الجنوبية، لم تلغ المساواة القانونية بين المواطنين سيادة البيض الشاملة على السود ولم تحل دون تكريس نظام الفصل العنصري. اما في الولايات الشمالية، فلم يُضطهد السود بالشكل السافر نفسه. لكنهم واجهوا الفقر والبطالة وما يجرّانه من مشكلات على صعد الصحة والسكن والتعليم. وساهم رجال الدين البروتستانتيون السود، وأبرزهم مارتن لوثر كينغ الثاني Martin Luther King Junior، مساهمة كبيرة في إطلاق حركة الحقوق المدنية الداعية الى المساواة الفعلية. وكانت لهم

حصة كبيرة في قيادتها. وعملوا على التأليف بين الحاجة الى تعبئة السود وتحدّي البيض أخلاقياً ومخاطبة الوعي الديني عند هؤلاء وأولئك. واحتل هذا الدور موقع الصدارة بعد حادثة ١٩٥٥ في مدينة مونتغومري Montgomery حين رفضت امرأة سوداء التراجع الى المقاعد الخلفية المخصّصة للسود في حافلة النقل وفجّرت غضباً عارماً وحركة احتجاج بدأت بمقاطعة وسائل النقل العامة.

واختار مارتن لوثر كينغ الدعوة الى إصلاح المجتمع باسم القيم المسيحية وسلك طريق اللاعنف متأثراً بأفكار المهاتما غاندي وتجربته في الهند. وارتفعت في المقابل أصوات من السود تستلهم تراثاً دينياً آخر. كانت جماعة «أمة الاسلام» The Nation of Islam تأسست في ثلاثينات القرن العشرين على يد والاس فرد Wallace Fard أو فرد محمد الذي علّم السود ان أصولهم عربية وان القرآن، لا الكتاب المقدس الذي استخدمه البيض أداة لاستعبادهم، هو كتاب أمتهم. وبعد اختفائه أعلن تلميذه اليجا محمد Elijah Muhammad انه نبي وقاد جماعة مناضلة جذبت فئات كبيرة من السود اليها، وما لبث ان انضمّ إليها مالكوم اكس Malcom X الذي دعا الى مواجهة العنصرية البيضاء بنوع من العنصرية المضادة. واختار اكس طريقاً غير الذي سار فيه مارتن لوثر كينغ المؤمن باللاعنف والمطالب بالاندماج بين السود والبيض. لكنه بعد حجّه الى مكة المكرمة وتعرّفه الى اسلام المسلمين الحقيقي خرج عن «امة الاسلام» والتزم مذهب أهل السنة والجماعة حتى اغتياله عام ١٩٦٥. ومثله فعل لاحقاً وارث الدين محمد (وكان اسمه من قبل والاس Wallace محمد) ابن اليجا محمد. ولحقت به الفئة الأكبر من «أمة الاسلام» فيما بقيت فئة أخرى أمينة لأفكار الأب ونهجه وأسلمت قيادتها الى لويس فراكان Lewis Farrakhan.

هكذا، لم تغب المسألة الدينية ولا مرّة، في تاريخ الولايات المتحدة، عن الحياة العامة رغم «الجدار الفاصل» بين الكنيسة والدولة الذي أقرّه الدستور وكرّسته الأعراف. ولم يجد المحافظون على الوضع القائم والمعترضون عليه، سواء بسواء، أي حرج في توسل اللغة الدينية في

الصراعات والمنافسات السياسية.

إلا أن انتخابات عام ١٩٦٠ الرئاسية اقحمت المسألة الدينية بشكل غير مسبوق. ورغم ان كاثوليكياً ترشح لرئاسة الجمهورية عام ١٩٢٨، فان خوض جون كينيدي معركة الانتخابات أثار مخاوف واعتراضات بروتستانتية وكأن الأمر نوع من الخرق لقانون غير مكتوب. واجتمع عدد من قادة البروتستانت في سويسرا ومن بينهم بيلي غراهام، عندما أدركوا أن كينيدي سيفوز بترشيح الحزب الديموقراطي، وبحثوا في كيفية الحؤول دون وصوله الى الرئاسة. وأيقظوا على هذا النحو مشاعر حذر بروتستانتية حيال الكاثوليك نابعة من ولائهم المفترض لقوة «أجنبية» هي دولة الفاتيكان.

من جهته، تعامل كينيدي مع هذا الحذر ببراعة، قبل انتخابه وبعده، ونجح في إقناع الأميركيين بجديته حين دعاهم للالتفاف حوله باسم المستقبل لا على أساس الانتماءات الدينية. وشدّد كينيدي، في تطلعه الى الآتي، على أهمية التقدم العلمي. ووضع جداول زمنية للإنجازات العالمية المبتغاة كمثل وعده الكونغرس عام ١٩٦١ ان انساناً سينزل على سطح القمر قبل انتهاء عقد الستينات.

وبوجه الإجمال، زادت ثقة الأميركيين بما يَعد به العلم وصاروا أكثر ولعاً بما تنتجه التكنولوجيا. ولم يكن ذلك عديم الأثرَ على الواقع الديني وتمثّلهم له. وتساءل الكثيرون، لا علماء الاجتماع وحدهم، ما إذا كان الدين مرشحاً للدخول في مرحلة من الأفول لا رجوع عنها. وانشغل عدد من اللاهوتيين الليبراليين بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من صدقية الإيمان بيسوع المسيح وبتعاليم الإنجيل. ورأوا في تكيف العقائد مع الواقع الجديد ثمناً لا مناص من دفعه. ويكاد يصح القول ان فئة من هؤلاء الليبراليين أقبلت على دفع هذا الثمن بسرور واستعجال.

بيد ان ردة الفعل على غزل الأميركيين مع العلم والتكنولوجيا لم تتأخر. وظهرت بصور شتّى. ففي أواخر الستينات تلوّن بعض الاعتراض على الحرب في فيتنام بلغة دينية جديدة. وجاءت هذه من انجذاب بعض الشباب الى «سحر الشرق» والحنين الى عالم لا يعرف ثنائيات الجسد والروح،

والانسان والطبيعة، والفرد والجماعة.

واهتزّت صدقية المؤسسات السياسية، بسبب الحرب ومن بعدها فضيحة ووترغيت، مما دفع الأميركيين الى البحث عن سياسيين بدائل من الذين عرفوهم. في هذا السياق، يفسّر البعض فوز المرشّح جيمي كارتر الآتي من بعيد والغريب عن واشنطن والطبقة الحاكمة.

وكان كارتر مبشراً معمدانياً يجهر بأنه مسيحي « مولود من جديد» ويعتزّ بتجربته كمعلّم في مدارس الأحد. ومن خصائص معركته الانتخابية نجاحها في إشراك فئة واسعة من المسيحيين الجنوبيين في الحياة العامة، بعدما كانت تميل في غالبيتها الى العزوف عن السياسة. استطاع كارتر ان يُخرج قطاعاً من المسيحيين عن انطوائه في الجماعات الدينية بوصفها نوعاً من المجتمعات البديلة، وجنّده في معركته الانتخابية مما سمح له بربحها. قبل ذلك، ألِف الانجيليون المحافظون القول ان العالم الخارجي فاسد ومعاد لهم وليس لهم، حفاظاً على أنفسهم، إلا الانكفاء الى كنائسهم ومدارسهم ومؤسساتهم المتنوعة. فلا يجوز للمؤمن ان ينزل الى حلبة السياسة لانها ملطخة بالإثم.

صحيح أن جيمي كارتر لم يحظ بدعم أكثرية إنجيلية محافظة كبيرة، لكن الفئة المؤيدة له بدّلت موازين القوى الانتخابية والسياسية. وفي ما يتعدّى ذلك، صالح كارتر مع السياسة فئة أوسع بكثير من فئة مؤيديه الانتخابيين. لكن أنصاره الإنجيليين المحافظين سرعان ما انقلبوا ضدّه لمواقفه في الشأنين الداخلي والخارجي، والتي تعطي لحقوق الانسان أهمية معيارية أكبر مما يسميه المحافظون *«قيم أميركا المسيحية»*. *واطلقت الشرارة حادثة*، لم تُثر ضجة كبيرة آنذاك، ساهمت في تعبئة الانجيليين المحافظين ضد تدخل الدولة في مؤسساتهم[١٠]. في أول الأمر، ثاروا على وزارة العدل التي أرغمت احدى كلياتهم في كاليفورنيا على احترام القوانين التي تمنع التمييز بين المواطنين. ثم ازدادوا غضباً وحماسة لممارسة الضغط السياسي، حين أدركوا أن دعاة الاجهاض اكتسبوا مشروعية قانونية استناداً الى أحكام المحكمة العليا، وأولها عام ١٩٧١، التي تجيزه. واختصر الحق في الاجهاض الكثير مما لم يعجبهم في تطور المجتمع الأميركي: دخول المرأة

الواسع الى سوق العمل والحرية الجنسية والتشديد عى خيار الأفراد المستقل عن مسؤولية العائلة .

تسييس الدين

في انتخابات عام ١٩٨٠ ، دخلت حلبة المنافسة السياسية هيئات مسيحية محافظة ، مثل «الأكثرية الأخلاقية» التي أسّسها القس جيري فالويل Jerry Falwell ، محذرة من الكارثة التي ستنزل بأميركا بسبب ابتعادها عن المسيح وسقوطها في الانحطاط الخلقي . ورافق هذا التحذير وعد بأن الله «سوف يبارك أميركا اذا ما باركت أميركا الله»[١١] . وخُذل جيمي كارتر في مواجهة رونالد ريغان الذي صوّتت لمصلحته غالبية جمهور الانجيليين المحافظين .

لم تكتف الهيئات الناطقة باسم هذا الجمهور او العاملة على استجماع قواه بالوعظ والتحذير والضغط ، بل صاغت برنامجاً دينياً وسياسياً وانتخابياً يبدأ من التأكيد على الفصل بين الدولة والكنيسة ثم يشدد على قدسية الحياة ، بما فيها حياة الذين لم يولدوا بعد ، وعلى أهمية القيم العائلية التقليدية . ويتوقف عند دعم اسرائيل والشعب اليهودي والتأكيد على ما يسمونه «حقه في أرضه» . ويقول بالعلاقات الوثيقة بين قوة أميركا وحريتها .

وفاجأ نفوذ الإنجيليين المحافظين المتصاعد عدداً كبيراً من الناس . ذلك أن نموّ حركتهم الدينية المتسارع منذ السبعينات لم يكن محط اهتمام الكثيرين أو قلقهم ، إذ نظروا اليه بوصفه ظاهرة دينية فحسب أو مشروع اصطفاف داخل الجماعة البروتستانتية لا أكثر . وهذا ما أوحت به ، في أول أيامها برامج الوعظ التلفزيونية التي راجت على نطاق واسع وترافقت مع براعة في جمع الأموال اشتهر بها أمثال جيري فالويل وبات روبرتسون Pat Robertson وروبرت شولر Robert Schuller وجيمي سواغارت Jimmy Swagart وأورال روبرتس Oral Roberts وجيم بيكر Jim Baker . حقق هؤلاء الوعاظ نجاحاً غير بسيط تدل عليه المبالغ المالية التي استطاعوا جمعها وهي على سبيل المثال في عام ١٩٨٧ ، وحسب مجلة تايم ، ١٨٣ مليون دولار لجيمي سواغارت و١٤٢ لبات روبرتسون .

لقد بشّر الانجيليون المحافظون بما دُعي «انجيل الرخاء» Gospel of Prosperity أو عقيدة الصحة والغنى وكانوا يعدون المحسنين الى مشاريعهم والعاملين في الحقل التبشيري بان الله سيغدق عليهم خيرات أرضية وفيرة. لكن بعضهم ما لبث أن تورط في فضائح مالية وجنسية (بيكر وسواغارت) مما أضعف صدقية هذه الفئة من الانجيليين المحافظين.

تحفّظ المسيحيون الآخرون عن تعليم القائلين بلاهوت يرى في الوفرة بركة إلهية ومكافأة على فعل الخير. وأزعجهم أن يقدَّم المسيح لا بوصفه مخلصاً للنفوس فحسب بل كواهب للنجاح والثروة يخص بهما محبيه ويحجبهما عن سواهم. وأقلق الكنائس البروتستانتية التاريخية، والكنيسة الكاثوليكية وفئة من الانجيليين المحافظين أنفسهم، اتساع الفقر في المجتمع الأميركي نتيجة السياسات الريغانية. فنشطت في محاربة الفقر عن طريق العمل الاجتماعي وعارضت حكماً أعطى الأفضلية لخفض الضرائب، وحماية أرباح الرأسمال، والانفاق على تطوير برنامج التسلّح المعروف باسم «حرب النجوم»، على حساب التخفيف عن كاهل الفقراء.

وباقتراب انتخابات ١٩٨٨ الرئاسية، حاول الذين انضووا تحت راية ما عُرف باليمين المسيحي ان ينظموا صفوفهم ومضاعفة نفوذهم داخل المجتمع الأميركي. صحيح انهم أيدوا رونالد ريغان وانه كان على صعيد المشاعر والأفكار والأقوال قريباً منهم. إلا انه لم يلتزم على قدر كاف تحقيق السياسة التي وعد بها ولم يحقق الآمال التي انتعشت في مخيّلة الانجيليين المحافظين لجهة منع الاجهاض والعودة الى إلزامية الصلاة الجماعية والعلنية في المدارس الرسمية.

وفي عام ١٩٨٧، أعلن القس بات روبرتسون ترشيحه في الانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري وأصاب في بعض الولايات نجاحاً مفاجئاً. لكنه ما لبث ان خرج من السباق لمصلحة جورج بوش بعدما حوّل الانجيليين المحافظين الى لاعب كبير في الحزب الجمهوري، لا يكتفي بالتذكير والتحذير والضغط بل يعمل على تأهيل نفسه حتى يصير شريكاً كاملاً في صنع السياسة[١٢]. ورغم انه لم يُتح للانجيليين المحافظين أن يصبحوا قوة

كبيرة ومؤثرة في انتخابات عام ١٩٨٨ ، فان ترشيح روبرتسون نقل نفوذهم من هامش الحزب الجمهوري الى وسطه، ومن أطراف الحياة السياسية الى مركزها .

وقام عام ١٩٨٩ «التحالف المسيحي» Christian Coalition الذي أضحى كتلة لا يمكن تجاهلها داخل الحزب الجمهوري. وتميزت أدبيّات هذا التحالف بمحاولة اضفاء نوع من المعنى الروحي على الاعتزاز القومي الأميركي. ولم يجد قادته حرجاً في القول إن أميركا بمثابة أمة ذات أفضلية في عين الله شرط ان تحكم، بما انها أمة مسيحية، حسب قيم هذا الدين[١٣] .

وتعامل سياسيو الحزب الجمهوري مع الانجيليين المحافظين وكأنهم جماعة من المهتمين بالشأن الاجتماعي، وأوله الدفاع عن ديمومة العائلة والقيم التي تصون وحدتها، والساعين الى تعزيز دور الجماعات الدينية في الحياة العامة. إلا أن جمهوريي اليمين المسيحي تعدّوا حقلَي الاختصاص المذكورَين للمطالبة بالمزيد من الحرية لاقتصاد السوق وبتقوية الدفاع الوطني. ووقفوا في مقدَّم من أعادوا إحياء فكرة «الاستثناء الأميركي» واشاعتها. ويظهر أثر الاعتقاد المذكور بصور متعددة في اللغة السياسية الأميركية المعاصرة. ففي معرض التهيئة للحرب على العراق، اذا ما اكتفينا بذكر هذا المثل، لا يخفي الأميركيون الذين تحمّسوا للغزو إيمانهم بدور خاص لأميركا في تاريخ العالم. واذا ما تحفظوا عن استخدام عبارات مثل «الأمة المختارة» فان حديثهم عن القيم الأميركية وشجاعة الأميركيين وصلاحهم كشف عن نظرة الى الذات والآخر مطبوعة بالماسيانية. تشهد على كل ذلك أقوال كثيرة للرئيس جورج دبليو بوش الذي لم يكتف بالقول إن أميركا ستأتي بالحرية للعراقيين، بل ذكر في خطاب له يوم ٢٦ آذار- مارس ٢٠٠٢ أن «رسالة» الجيش الأميركي حيثما حلّ هي تحرير المقهورين.

واحتلّت فكرة العودة الى الأصل مكانة كبيرة في خطاب السياسيين الجمهوريين. واستطاع «اليمين المسيحي» أن يسوّق لدى الكثيرين لغة تختلط فيها الإشارات الى الكتاب المقدس بتوقير الدستور، والتذكير بالعظمة

التي عرفتها أميركا في الماضي ثمرة لإيمانها بالله، واتكال الأفراد على ذواتهم وتحلّيهم بالانضباط الأخلاقي[١٤]. وبقدر ما وُفّق الإنجيليون المحافظون في اضفاء النكهة الدينية على اللغة السياسية اعتمدوا بدورهم طريقة الكلام في السياسة كأهلها عوض ان يحبسوا أنفسهم داخل عبارات الوعظ الديني المألوفة. ويلاحظ من يقرأ الوثيقة التي وضعها «التحالف المسيحي» عام ١٩٩٥ وعنوانها «عقد العائلة الأميركية» انها لا تتضمن اقتباساً واحداً من الكتاب المقدس. فمثلها كمثل أي نص سياسي محافظ يتناول قضايا الموازنة والضرائب وتعزيز المدرسة الخاصة وغيرها، حتى أن احد واضعيها، رالف ريد Ralph Reed، دعاها «الاقتراحات العشرة لا الوصايا العشر».

هناك دلالة مزدوجة للصعود السياسي للانجيليين المحافظين. فهم عادوا الى الحياة العامة بعدما زُيّن لهم انهم أعادوا الدين الى قلبها، وبعدما استجمعوا قواهم وتدربوا على أساليب العمل السياسي والانتخابي. وفي حقيقة الأمر، انتهوا الى اعتماد منطق المشاركة المسيحية في الحياة العامة التي حددت الليبرالية الدينية والسياسية شروطه وقواعده.

وجرى ذلك بعد هامشية ثقافية طويلة للانجيليين المحافظين تسبّبت فيها سيطرة الكنائس الليبرالية على مؤسسات التعليم والثقافة والنشر، بالاضافة إلى عزوفهم عن الانخراط في الحياة السياسية والثقافية العامة. وهذا الانتقال السريع من حالة شعورية الى أخرى، ومن لاهوت سياسي الى آخر، دفع ببعض الشخصيات الدينية والفكرية التي نشأت في رحم الحركة الانجيلية المحافظة الى التحذير من التسييس المفرط للعمل الديني في المجتمع الأميركي.

وهناك من أقلقه التحوّل في وعي الانجيليين المحافظين من فئة تحسب نفسها أقلية مضطهدة الى كتلة «أعمتها القوة»، حسبما جاء في عنوان أحد الكتب التي تناقش المسألة. ورأى أنهم خسروا الكثير من الصدقية فضلاً عن البراءة التي شدّت المؤمنين التقويين اليهم[١٥]. وهناك أيضاً من يأخذ عليهم تجاهلهم ان قوة الدين غالباً ما تكون في قدرته على مقاومة الثقافة السائدة

والقيم الرائجة وان لجوء رجالاته الى المساومة ينذر باضعاف دوره وتعلق الناس به .

ويدور منطق فئة ثالثة من المعترضين على التسييس المفرط للهوية الدينية حول التقيد ببعض الممنوعات أو رسم بعض الحدود عند ممارسة العمل السياسي. فهي لا تناقش مشروعية أن يُسمع الدين صوته في الميدان السياسي، انما تسجِّل تحفظها حيال استخدام المنابر الكنسية للدعاية الانتخابية وتجيير المصالح الدينية للمصلحة الفئوية الحزبية .

ويشير أصحاب الموقف النقدي هذا الى أن الانجيليين المحافظين قد اختاروا نهجاً سياسياً حائراً بين القول بهدم الجدار الفاصل بين الدين والدولة وبين ايديولوجية القبول الفعلي بمنطق الدولة المدنية، حيث تلعب مؤسسات التربية والقضاء والاعلام العلمانية دور الحكم الاخلاقي في المجتمع وتحدد للمؤسسات الدينية مجالها(١٦) .

ما زال مبكراً التحقق من الفرضية القائلة ان ظهور هذه المعارضة من داخل التيار الانجيلي المحافظ يؤشر الى انحسار نفوذه في السنوات الأخيرة من القرن العشرين وأول سنوات القرن الحادي والعشرين. فقليلاً ما نقرأ أو نسمع عن تغيير في المعادلة الرائجة التي تختصر موازين القوى المسيحية بالقول ان الليبرالية تواصل تراجعها المستمر لمصلحة الأصولية. فهي تتابع تقهقرها أمام العلمانية، ومعها نوع من علمنة الذات، مما يؤدي الى ضمور الهوية وغياب الحضور المسيحي، بوصفه مسيحياً، في الحياة العامة .

ورغم ذلك، يبدو الانجيليون المحافظون اليوم أقل تأثيراً مما كانوا في العقد الأخير من القرن الماضي. وليست قياسات الرأي العام المتوفرة حاسمة على هذا الصعيد، ذلك انها شهدت في الفترة الأخيرة مدّاً وجزراً لا يؤيد ثبات هذا الاتجاه أو ذاك(١٧) . بدورها لا تُظهر مرآة السياسة الأميركية، ا لداخلية والخارجية، صورة واضحة عن مآل النفوذ الانجيلي المحافظ . نستثني من ذلك الدور الفاعل الذي تلعبه فئات انجيلية محافظة منظمة وناشطة في تأمين الدعم الأميركي المتزايد لاسرائيل وحكومتها اليمينية. وهذا ما سنأتي على تفصيله في فصل لاحق.

هوية أميركا والتعدد الديني

لم تُحدث مساهمة الأصوليين المسيحيين في الحياة العامة الزلزال السياسي الذي أنذرت به. فقوة اليمين الحاكم في الولايات المتحدة ليست بحد ذاتها من قوة الأصوليين إلا بنسبة محدودة. ولا يمكن اختزال اليمين، في نظرته الى أميركا والعالم وفي لغته وقيمه، بطغيان الاتجاه المسيحي الأصولي داخل الحزب الجمهوري وانجذاب الرئيس جورج دبليو بوش الحقيقي اليه.

ويبقى ان مراقبة نفوذ الإنجيليين المحافظين لا تستطيع ان تتغافل عن قدرتهم على إثارة مشاعر الأميركيين، دفينة كانت أم مستجدة، واستدعائها في الأزمات، على غرار ما حصل بعد الحادي عشر من أيلول- سبتمبر وقبل الحرب على العراق وخلالها. ومما يجدر ذكره في هذا السياق ان مواقف رجال الدين الانجيليين المحافظين تخضع أحياناً كثيرة للحساب نفسه الذي يجريه رجال السياسة من حيث حرصهم على التوازن بين ما يريدون اقناع الناس به وبين إسماعهم ما يحبون سماعه.

فبعد الحادي عشر من أيلول- سبتمبر، مالت بعض الشخصيات الانجيلية المحافظة الى اعطاء الحدث معنى لاهوتياً واستعادت من الأدب الديني، المسيحي وغير المسيحي، الاعتقاد ان الله يخاطب الناس بواسطة المصائب التي تنزل بهم. لكنها لم تلق تجاوباً مع هذه القراءة للأحداث فارتدّت الى تمجيد قوة أميركا والإشادة برسالتها في العالم.

وعندما علت صيحة الحرب على العراق لم يفاجأ أحد بتأييد الانجيليين المحافظين لسياسة بوش. لكن التسويغ الديني للحرب لم يرد على ألسنتهم بالقدر الذي كان متوقعاً. لقد استطاعت كنائس «الخط الرئيسي» البروتستانتية والكاثوليكية والأرثوذكسية، والتي أجمعت على رفض الحرب اللاأخلاقية وغير الشرعية، ان تواجه بقوة حجة الانجيليين المحافظين اللاهوتية. وكانت الأخيرة قد اختارت، في تأييد بوش، أن تركِّز على الإيمان بصلاح أميركا واحترام سلطتها الشرعية والحرص على حياة جنودها أكثر من الاعتماد على فكرة الحرب العادلة.

وغني عن القول ان قوة الحجة الاخلاقية واللاهوتية المعارضة للحرب لا تعني ان ميزان القوى في المجتمع الأميركي، بين المسيحيين بصورة خاصة، تغيّر بشكل ملحوظ. فالقيادة المسيحية الرافضة للحرب، لم توفَّق في تعبئة الرأي العام المسيحي في الولايات المتحدة، قياساً مع أوروبا. ولعلّها راهنت على المستقبل أكثر مما استطاعته في الحاضر، على غرار ما حصل لما عارضت الحرب في فيتنام أو أيدت حركة الحقوق المدنية. ويصحّ ذلك أيضاً في محاربة التعصّب الديني والكراهية ضد المسلمين وأهل الأديان الأخرى والأجانب من ذوي البشرة الداكنة.

منذ عقدين أو أكثر، قالت كنائس «الخط الرئيسي» بأهمية الانفتاح على الأديان الأخرى، الاسلام منها بنوع خاص، كما سبق لها أن فعلت على صعيد العلاقة مع الكاثوليك واليهود، مما حملها على إعادة النظر في وعيها لذاتها ولهوية بلدها. ودعت الى فهم متجدد للرسالة المسيحية في سياق التعدد الديني والثقافي داخل اميركا نفسها. وجهدت للدفاع عن حقوق المسلمين والسيخ والهندوس والبوذيين المدنية، والتي يتهددها التعصب الديني، وفي حماية حقوق الأجانب التي تخرقها موجات العنصرية.

ومنذ الحادي عشر من ايلول- سبتمبر ٢٠٠١ وجدت الكنائس نفسها أمام مهمة كبيرة وطويلة الأمد، ألا وهي التصدي لحملات التجريح بالاسلام والكراهية ضد المسلمين. وكانت لهذه المهمة وجوه ثلاثة: العمل بجدية على التعريف بالاسلام وتعزيز احترامه، التضامن مع المسلمين في حياتهم الدينية الجماعية ومقاومة طغيان الهواجس الأمنية على احترام الحريات وصون حقوق الناس.

من جهتهم، لم يحرِّض الإنجيليون المحافظون بشكل واسع وسافر ومنظم على كراهية المسلمين. ورغم ما قاله الكثيرون من شخصياتهم تجريحا بالإسلام والذي ستتحدث عنه في الفصل الثالث من هذا الكتاب، أبدى بعض الوعاظ خشية من استهداف المسلمين ومضايقتهم دون تمييز بين الصالح والطالح. لكنهم لم يحركوا ساكناً على صعيد توعية مؤمنيهم دينياً وأخلاقياً من أجل محاذرة العداء للمسلمين وكره الأجانب. ولا غرابة في

ذلك، إذ ليس في تراثهم المعروف الكثير مما يدعو للتسامح الديني ولا في ثقافتهم السياسية حماسة تذكر للحريات الفكرية والسياسية ولحقوق الانسان.

لقد خرجت من أفواه بعضهم أقوال تسيء إلى الإسلام وتوقظ أحقاداً دينية قديمة وتستعيد صوراً من آلام الحروب الصليبية والحرب على المسلمين في الأندلس. قبل ذلك كانت للانجيليين المحافظين لغتان عند الحديث عن الاسلام. يسكن الأولى همّ التبشير المسيحي في البلاد البعيدة فيما تدور الأخرى حول مدى انسجام ذلك الدين مع الحضارة «اليهودية- المسيحية».

لم يكن الانجيليون المحافظون المنتج الأول لما يُسمّى «رهاب الاسلام» الذي عرفته أميركا. غير أن عدداً منهم لم يكن بعيداً عنه. ولعلّهم، في مجتمع لا تؤثر فيه الذاكرة التاريخية كثيراً على السلوك، كما هي الحال في أوروبا، يضيفون بعداً جديداً الى حسابات الاستراتيجية والأمن ومكافحة الارهاب حين يبرزون المغايرة الدينية بين المسيحية والإسلام. ويفعلون ذلك بشكل قلّ ما اهتم به منظّرو صدام الحضارات العلمانيون، رغم تأكيدهم على ضخامة الفروق بين الغرب وسواه وهوسهم بترسيم الحدود الدامية.

وهناك مفارقة تستحق ان يقف المرء عندها وهي ان عدداً من الانجيليين المحافظين من جهة والعلمانيين من جهة أخرى، رغم اختلافهم حول صدارة المسيحية في الهوية الأميركية، متفقون على التخوّف من التعدد الديني المتعاظم في بلادهم من حيث خطره على شخصية أميركا. فهي مسيحية بالمعنى الثقافي بالنسبة الى هؤلاء وبالمعنيَين الثقافي والديني عند أولئك.

فالعلمانيون الإيديولوجيون لا يقيمون وزناً للتراثات الدينية وينظرون الى الأميركيين الجدد من أتباع الديانات غير المسيحية على ضوء انتماءاتهم الثقافية. لكنهم اليوم، وبسبب حملات التهويل بالاسلام، ينظرون بعين الارتباك والشك الى شرعية التعدد الديني، رغم انه الوجه الآخر للحرية الدينية التي طالما اعتزوا بها.

أما الانجيليون المحافظون فانهم لا يطمئنون الى ما يعتبرونه ممانعة المسلمين للانصهار في المجتمع الأميركي الذي لا تنفصل هويته الأصلية عن

القيم المسيحية. ويذهب غلاتهم الى حد الدعوة لمراجعة قانون ١٩٦٥، بل إلغائه، لأنه رفع القيود على هجرة «الآسيويين» وبات مضراً بالمصلحة الأميركية. وفي وقت الأزمات، حين ترتفع الدعوات الى الله ان «يبارك أميركا» تتحول الوطنية، التي أريد لها أن تتسع من حيث المبدأ لتشمل ذوي الأصول الثقافية والدينية المتنوعة، الى قومية تضيق بالتعدد الديني وتجنح الى إقصاء المسلمين وسواهم من غير المسيحيين، بحجة تعثر اندماجهم بالمجتمع الذي استضافهم.

في المقابل، يلتقي المسيحيون الليبراليون ومعهم فئة من العلمانيين الذين تدفعهم المواقف السياسية للتضامن مع أبناء الأديان غير المسيحية في النظر الى التعدد الديني كفرصة تستطيع أميركا، إن أحسنت التعامل معه، ان تغتني به. فهو يعد بتنوع خلاق كان في أصل ازدهار أميركا وهو يفتحها اليوم على احتمالات التعاون والتفاعل مع شعوب العالم كله. ويبدي هؤلاء المسيحيون، منذ الحادي عشر من أيلول- سبتمبر، معارضة للنزعة القومية الأميركية الضيقة من حيث خطرها لا على المسلمين فحسب بل على المسيحيين أنفسهم اذ تجعلهم بمثابة «أميركيين خائفين من أنفسهم»[١٨].

هوامش الفصل الثاني

١ - Martin B. Marty, *Pilgrims in Their Own Land, 500 Years of Religion in America*, Little, Brown and Company, 1985.

٢ - Samuel Eliott Morison, *Admiral of the Ocean sea: A Life of Christopher Columbus*, 2 vols, Boston: Little, Brown, 1942.

٣ - Juan Freid and Benjamin Kean (eds), *Bartolomé de Las Casas in History: Toward an Understanding of the Man and his Work*, De Kalb, Northern Illinois University Press, 1971.

٤ - على نحو ما جاء عند أخوة بلايموث Plymouth. المراجع عن الأدب الطهراني كثيرة وكذلك المؤلفات التي تستعرض أهم ملامحه ومن أبرزها:

Perry Miller and Thomas Johnson (ed), *Errand Into the Wilderness*, Cambridge; Harvard University Press, 1956.

٥ - Marty, *op. cit*, p. 15

٦ - Robert N Bellah., *Civil Religion in America*, in Bellah, Robert (ed), *Beyond Belief: Essays on Religion in a Post-Traditional World*, New York: Harper and Row, 1970.

٧ - Stephen L. Carter, *God's Name in Vain, The Wrong and Right of Religion in Politics*, Basic books, 2002 , pp. 96-99.

٨ - Stephen. L. Carter, *God's Name in Vain*, op. cit, pp. 96-99.

٩ - John Butler, Grant Wacker and Balmer Randall, *Religion in American Life*, New York, Oxford University Press, 2003, p. 367.

١٠ - Cal Thomas and Ed Dobson , *Blinded by Might, Why The Religious Right Cannot Save America*, Zondervan Publishing House Grand Rapids, Michigan 1999, p. 39 .

١١ - John Butler (ed), *Religion in American Life*, p. 420.

١٢ - Gary Wills, *Under God: Religion and Politics in American Politics*, Simon and Shuster 1990, pp. 76-85.

١٣ - Cal Thomas and Ed Johnson (Ed), *Blinded* by Might, op. cit, pp. 169-175.

١٤ - Justin Watson, *Christian Coalition*, quoted in Carter Stephen, *God's Name in Vain*, op. cit, p. 54.

١٥ - Cal Thomas and Ed Johnson , *Blinded by Might*, op. cit. pp. 53-69.

١٦ - Stephen Carter, *God's name in Vain*, op. cit, pp. 67-83.

١٧ - Pew Research Center Polls. March 19, 2003, March 20, 2002, December 6, 2001.

١٨ - Diana Eck, *A New Religious America, How a Christian Country Has Become the World's Most Religiously Diverse Nation*, San Fransisco, Harper, 2001, pp. 294-335.

الفصل الثالث

بين القومية الأميركية والخصوصية المسيحية

على ضوء القراءة التاريخية التي تبين لنا الملامح الرئيسية للشخصيّة الإنجيلية المحافظة، لا يبدو غريباً أن تحتل القومية الأميركية اليوم مكانة أعلى في وعي الذات والنظرة الى الآخر المختلف عند هذه الفئة من المسيحيين. واذا ما أخذنا بالحسبان ان القومية المذكورة تنتمي الى «الدين المدني» ولعلّها دعامته الأولى، وجب التساؤل في أمر العلاقة بين منطق «الدينَين» الإنجيلي المحافظ والمدني وفي التأثير المتبادل بين القوى الفاعظلة في الترويج لهما. وبقدر ما نحاول الإجابة على هذا التساؤل، وهذا ما يرمي اليه هذا الفصل، نقترب من معرفة أفضل لدين المحافظين في أخذه وردّه بين هويته الأميركية وخصوصيته المسيحية. وفي الوقت ذاته، ندرك على نحو أدق ما أصاب المسيحية الليبرالية لجهة تأثيرها في المجتمع الأميركي. ونبحث عن الأسباب التي تجعل من أصحاب المواقف المسيحية المنفتحة على أهل الأديان الأخرى والساعية الى علاقة أكثر إنصافاً بين الولايات المتحدة وبلدان العالم، وهم أكثرية داخل النخبة الليبرالية المتدينة، أضعف نفوذاً داخل المجتمع الأميركي ممّا توحي به حسابات الأرقام الباردة.

الضحية البريئة

وجد الأميركيون أنفسهم، بعد زلزال الحادي عشر من أيلول- سبتمبر ٢٠٠١، معلّقين بين الحيرة والخوف والرغبة في الانتقام. وفي ظاهر الأمور، بدا الظرف مؤاتياً للتساؤل، من منظور ديني، في معنى هذا الحدث وتبعاته.

لم يتردد بعض الإنجيليين المحافظين في قراءة الحدث دينياً وعلى الطريقة المعروفة في تاريخ المسيحية وسواها من الأديان والتي تبدأ من السؤال: ماذا

فعلت أميركا حتى سمح الله أن تُعاقَب على هذا النحو؟ بالطبع، لم يتأخر الجواب عند هؤلاء وجاء تنديداً بابتعاد الولايات المتحدة عن دينها وشيوع الانحراف الأخلاقي فيها والطلاق بين السياسة والقانون والقيم المسيحية التقليدية.

وبلغة أخرى لا تقحم الله في التاريخ بنفس الطريقة سأل المسيحيون الليبراليون السؤال نفسه. غير ان معظم اجاباتهم كانت أخلاقية وسياسية تميل الى تحميل صلف السياسة الأميركية وعدم إنصافها الشعوب الأخرى المسؤولية الأولى عن استدعاء التعصب ومشاعر الكره ضدّها بين الكثيرين في العالم، مسلمين كانوا أم غير مسلمين.

غير أنه بدا للجميع، بعد فترة وجيزة، ان المجتمع الأميركي لم يكن مستعداً على نحو كاف للإنصات الى أسئلة المعني هذه وكان استعداده أقل لإعطاء فرصة حقيقية للتبصّر والإجابة.

فهمَ الإنجيليون المحافظون ذلك بسرعة كبيرة. وعلى غرار السياسيين المشغَولين باتجاهات الرأي العام وتأثيرها على مستقبلهم، آثروا تعديل خطابهم. فغادروا موقع التأنيب لأمة أخطأت وتركوه لحفنة صغيرة من المبشرين بنهاية العالم الوشيكة. وشاؤوا، على غرار معظم الأميركيين، ان يروا أنفسهم بصورة الضحية البريئة. ولم يتردد الانجيليون المحافظون في تلميع هذه الصورة بقصد استنهاض الهمم، على نحو ما جاء عند أحد قادة «الرابطة الوطنية للإنجيليين» National Association of Evangelicals القائل: «نحن ضحية بشكل رهيب. غير أن شخصيتنا كأمة ما زالت تدعو الى الاعتزاز»[1].

أما المسيحيون الليبراليون فلم يتراجعوا عن موقفهم إزاء سياسة أميركا غير المنصفة، إلاّ انهم سرعان ما أدركوا حجم المجازفة بصدقيتهم داخل كنائسهم نفسها، ناهيك عن الرأي العام. فخفت صوت البعض وبات البعض الآخر يعي نفسه وكأنه «الصوت الصارخ في البرية».

ومنذ رأى الأميركيون أنفسهم بصورة الضحية، سلكت سياسة رئيسهم بخطى متسارعة طريق الترهيب واعتماد لغة القوة، واختار مؤيدوه الانجيليون

المحافظون ان يعزّزوا، تسويغاً للسياسة المذكورة، فكرة المواجهة بين «أمة الخير» و«أمة الشر».

صور الإسلام

سوف يضيق بنا المجال ها هنا للنظر في كل التحولات التي أحدثتها، أو نسبت اليها، جريمة الحادي عشر من أيلول - سبتمبر على الصعيدين الداخلي والخارجي. يهمّنا في المقام الأول أن نتبيّن ملامح التفاعل بين المواقف والمشاعر الدينية المحافظة حيال الإسلام والمسلمين، وغيرهم ممن صاروا يحسبون أعداء أميركا، وتلك التي تشرب من ماء «الدين المدني».

أطلّ عدد من المسيحيين المحافظين، الذين لا تحركهم الذاكرة الدينية الا قليلاً، والذين لا يعرفون الكثير من الأدب المسيحي السجالي ضد الاسلام في العصر الوسيط، على الرأي العام بلغة تستعيد الصورة النمطية والعدائية التي نجدها في ذاك الأدب عن نبي الإسلام وعن خصائص الدين الذي بشّر به. كانت الفكرة المحورية ان الاسلام دين يسوّغ العنف بل يمجّده، وان قتل الكفار، والكفار هم غير المسلمين، عمل مبرّر. لم يكتف هؤلاء المسيحيون بالهجوم على المتطرفين المسلمين وإدانة الإجرام الذي مارسه بحق الأبرياء أشد المتطرفين تطرفاً. ذهبوا الى أبعد وتناولوا عقيدة الاسلام وشريعته وأسهبوا في الحديث عن الفوارق الكبيرة أو المضخّمة بينه وبين المسيحية.

غير ان مصلحة الرئيس جورج دبليو بوش كانت تقتضي أن يتودد الى المسلمين ممن لا يعادون أميركا ويصف الإسلام بأنه دين السلام. وبدا الناطق باسمه محرجاً غير مرة بسبب العبارات الحادّة وغير اللائقة التي تفوّه بها أنصاره الانجيليون بحق الاسلام ونبيّه. فبعدما صرّح القس جيري فاينس Jerry Vines، الرئيس السابق للمؤتمر المعمداني الجنوبي Southern Baptist Convention ان اله المسلمين غير اله المسيحيين واليهود الذي لا يدفع بأحد الى الارهاب وقتل الأبرياء[٢]، وتعرض بالإساءة الى شخص النبي محمد، اضطر آري فلايشر إلى القول ان الرئيس بوش لا يؤيد الرأي المذكور ولا

يوافق كل ما قيل عن نبي الإسلام محمد من كلام مسيء. غير ان اغضاب المعمدانيين، وهم جزء مهم من قاعدته الانتخابية، لم يكن في مقاصد الرئيس بوش الذي قال لدى حضوره الجمعية العامة للمؤتمر المعمداني الجنوبي المنعقد يوماً واحداً بعد تصريح فاينس «ان المعمدانيين هم من رواد التسامح الديني الأوائل»[٣].

من جهته، لم يتأخر القس فرانكلين غراهام Franklin Graham في الاعلان بعد الحادي عشر من أيلول - سبتمبر ان الاسلام «دين عنيف»، لكنه اضطر الى نوع من الاعتذار من دون أن يغيّر رأيه. يقول في كتابه «الاسم»[٤] «ان الإسلام بخلاف المسيحية يتضمن في تعليمه الأساسي رفضاً قوياً للذين يتبعون ديناً آخر». وفي مقابلة له بعد صدور كتابه، رأى أن الارهاب ينتمي الى التيار الرئيسي في الإسلام وليس من فعل حفنة من المتطرفين. وعاد الى القول انك اذا ما قرأت القرآن وجدت فيه دعوة الى العنف. ولم تكن هذه الإشارة عابرة بل ان غراهام وأعوانه دعوا المسيحيين «ممن أعمتهم السذاجة» الى قراءة جادة للقرآن لمعرفة حقيقة ما يؤمن به المسلمون. وقد وُجهت هذه الدعوة الى كاتب هذه السطور شخصياً. بصيغة رسالة من سيدة تعمل في مكتب غراهام تنصح بدراسة القرآن والاستناد إلى كتب «تفسير» من عندهم. وكان قد ساءها الاطلاع على محاضرة لبناني مسيحي يعمل في مجلس الكنائس العالمي، ألقاها في تشرين الثاني - نوفمبر ٢٠٠٢ في تامبا أمام الجمعية العامة لمجلس الكنائس الوطني في الولايات المتحدة ورأت انها تتضمن جهلاً وسذاجة.

لم يقتصر الكلام العدائي ضد الإسلام على فاينس وغراهام وأتباعهما، بل انتشرت على نطاق واسع نسبياً كتب لم تكن معروفة من ذي قبل تجرّح بإيمان المسلمين وتتوقف في معظمها لا عند المسائل العقدية المعروفة في السجالات القديمة، بل أمام مسألة العنف ومحاربة الكفار وما تشكّله من تصور للعالم هو أقرب الى الدعوة الدائمة للحرب.

ان تخصيص الشخصيتين الانجيليتَين اللتين سبق ذكرهما، دون من هم أقل تأثيراً منهم، يعود الى أن الأول رأس طائفة من البروتستانتيين غالباً ما

تخرج عن الاجماع الكنسي بشأن الحوار مع المسلمين. أما الثاني، وهو ابن الواعظ الشهير بيلي غراهام، فهو من أكثر الشخصيات المسيحية تأثيراً في الولايات المتحدة وتفوق شعبيته بكثير ما يحظى به جيري فالويل Jerry Falwell أو بات روبرتسون Pat Robertson، وهو بوجه الإجمال أقل تطرفاً منهما. وهو بالإضافة الى ذلك صديق شخصي للرئيس بوش (الابن). وكان تلا الدعاء يوم تنصيبه ومازال يلتقي به بانتظام ويصلي من أجله، أكان ذلك بطلب من الرئيس أو بمبادرة من القسيس. وهذا ما يدفع البعض الى التساؤل حول انتقاده موقف بوش العلني من الإسلام: هل يرى نفسه قادراً على ممارسة الضغط على بوش أم انه يعرفه جيداً ويعرف حقيقة مواقفه فيحسب ما يقول مسايرة أو ملاطفة ليس إلا؟

لا يمكن إغفال التساؤل حول إحجام بوش عن تأنيب أصدقائه أو توجيه اللوم إليهم بلغة واضحة بسبب مخالفتهم مواقفه العلنية وتشويشهم على سياسته، أياً كان من أمر قناعاته الدينية الشخصية. لعلّ التفسير الأبسط هو ان انتقاد غراهام على نحو جليّ قد يؤدي الى شيء من الخسارة السياسية لبوش، في وقت تبدو أنظاره مشدودة الى نسب شعبيته في استطلاعات الرأي العام.

ولعلّه، وان لم يجد في حقيقة الأمر غضاضة في ان يهاجم سواه الإسلام، لا يتردّد في مراعاة مشاعر المسلمين الأميركيين، وقد أيّدته غالبيتهم في الانتخابات. فللإحجام فائدة وللمراعاة فائدة أخرى. وازدواج المواقف أمر مألوف في سياسة عينها على تقلّب الموازين الانتخابية ويتحكم فيها، بقدر كبير، قياس اتجاهات الرأي العام. ولا يفوتنا، في هذا المجال، التذكير ان السياسيين، اليوم أكثر من الماضي، لا يقودون الرأي العام ولا ينقادون اليه، حسب اختزال البعض للنقاش حول الديموقراطيات المعاصرة، بل يسعون الى تشكيل توقعاته ثم يتجاوبون معها.

يقودنا ذلك الى السؤال: هل تأثرت اتجاهات الرأي العام الأميركي بالنسبة إلى الإسلام والمسلمين بمواقف بوش المعلنة أم بتأجيج المشاعر المعادية الذي لجأ اليه الانجيليون المحافظون وسواهم من المتشددين من

اهل اليمين؟ وهل تتميّز المواقف المسيحية عن سواها من مواقف الأميركيين؟

في استطلاع للرأي أجرته ABC News مع شبكة Belief net المسيحية، في تشرين الأول - أكتوبر ٢٠٠٢، يظهر أولاً ان اعتبار الإسلام ديناً لا يحترم المعتقدات الأخرى يحظى بتأييد بين الأميركيين (٣٠٪) أوسع مما كان عليه (٢٢٪) في استطلاع أجرته المؤسسة نفسها في مطلع السنة. كما ينال القول ان الإسلام يحض على العنف تأييداً بنسبة ٢٣٪ بعدما كان لشهور خلت ١٤٪. وعلى المنوال نفسه، ارتفعت نسبة أصحاب الرأي الإجمالي غير المتعاطف مع الإسلام من ٢٤٪ الى ٣٣٪.

وتلازم هذا التغيير تراجعاً في تقويم الأميركيين لمعرفتهم عن الإسلام على نحو يستغربه من ظنوا أن رواج الكتابات والتصريحات ضد الإسلام والمسلمين يعزّز السعي الى المعرفة أو وهمها. فنسبة الذين يقرّون بجهلهم لعبادات الإسلام ازدادت من ٦١٪ الى ٧٣٪.

بالطبع ليس من تطابق بين مواقف الأميركيين عامة وموقف المسيحيين الانجيليين المحافظين من جهة وسواهم من المسيحيين من جهة أخرى. ففيما تبلغ نسبة الأميركيين الذين لا ينظرون بعين الرضا الى الإسلام ٣٣٪، ترتفع عند الانجيليين المحافظين الى ٤٥٪ وتنخفض عند باقي المسيحيين الى ٢٣٪. أما نسبة القائلين ان الإسلام يحض على العنف، وهي ٢٣٪ كما سبق ذكره، فهي ترتفع الى ٣٢٪ عند الانجيليين المحافظين وتنخفض الى ١٧٪ عند سواهم من المسيحيين.

ويرى الكثيرون أن هذا الاستطلاع لم يأت بنتائج تخالف القناعات الحميمة لأي مراقب للحياة الدينية والسياسية الأميركية. غير أن بعض المعلقين استغرب ارتفاع نسبة الذين يرتابون في أمر المسلمين ولا يكنّون أية مودة لهم فيما كان متوقعاً أن تنخفض[٥]. ويستند هذا التوقع الى التأثير المفترض أن يحدثه مرور بعض الزمن على أحداث ١١ أيلول - سبتمبر فضلاً عن محاولات الحكومة العلنية واللفظية للتخفيف من التعصب ضد المسلمين، وقيام جهود كثيرة بذلتها الهيئات الاسلامية لتقديم صورة مطمئنة

عن الإسلام والمنتمين إليه. لقد جرت الرياح بخلاف ما اشتهاه أصحاب النيات الطيبة.

ليس من تفسير واحد حاسم لازدياد نسبة الذين لوّثهم «رهاب الإسلام» خلال عام ٢٠٠٢. لكن المتغيّر الذي يستحق أن نتوقف قليلاً عنده هو انتشار الأدب التحريضي الذي أنتجه الانجيليون المحافظون وتراكم تأثيره في فترة خفّ فيها طغيان الهم الأمني وازداد استعداد الأميركيين، المتدينين منهم أكثر من سواهم، لاستقبال اجابات بسيطة على اسئلتهم القلقة والمعقّدة عن الإسلام.

بالإضافة الى ذلك، جاءت نتائج الاستطلاع مخالفة لانتظارات الكثيرين من المسيحيين الليبراليين وسواهم من دعاة احترام المسلمين وعدم الخلط بين أقلية متطرفة والسواد الأعظم منهم. صحيح أن نسبة المسيحيين من غير الإنجيليين المحافظين الذين لا ينظرون بعين الرضا الى الإسلام أقل من المعدل الأميركي العام، وبالطبع أقل من النسبة لدى التيار المسيحي الآخر، فهي ٢٣٪ مقابل ٣٣٪ و٤٥٪، لكنها تبقى أعلى مما يظنه أصحابها.

لقد بذلت الكنائس المنضوية في مجلس الكنائس الوطني في الولايات المتحدة جهداً كبيراً في مواجهة الحملة على الإسلام والمسلمين على كل صعيد، واستقوت بمواقف ومبادرات وأدبيات مسيحية من الخارج، مصدرها مجلس الكنائس العالمي ومجلس كنائس أوروبا ومجلس كنائس الشرق الأوسط، وتضامنت مع الأميركيين العرب. إلا أن تأثيرها، على أهميته، لم يأت بالحجم الذي انتظرته نخب هذه الكنائس. فهناك تفاوت بين مواقفها وبين مشاعر القاعدة المسيحية. وهو يزداد في أوقات الأزمات حين تتفاعل مشاعر المؤمنين العاديين مع المزاج الشعبي العام وتبدو أكثر استماعاً لصوت المسيحيين المتشددين العالي.

أمة تعرف أعداءها

ولا بدّ من التوقف عند تفسير آخر لازدياد مشاعر الريبة والعداء للمسلمين عندما أجري الاستطلاع الذي نناقش. فهو يتعلّق بالاستعدادات للحرب على

العراق المتصاعدة منذ ان تحدّث الرئيس بوش في كانون الثاني ٢٠٠٢، بلغة ذات وقع على المشاعر الدينية، عن المواجهة مع «محور الشر». فتهيئة الرأي العام للحرب، أياً كان من أهدافها المعلنة والفعلية، تستقي من مشاعر العداء للآخر المختلف، الكامن منها والظاهر. ثم ان الحرب على العراق، بسبب العجز في شرعيتها القانونية والأخلاقية، كانت تتطلب من دعاتها تأكيداً على ارتباطها بالحرب الكونية ضد الارهاب الاسلامي، بما فيها تلك المتعلقة بتجفيف منابعه.

لقد توسلت الحرب على العراق لغتين لكل منهما إيقاعها. تتحدث الأولى عن تهديد العراق لجيرانه والعالم لان نظامه «مارق» لم يمتثل للقرارات الدولية لجهة نزع أسلحة الدمار الشامل. أما اللغة الثانية فهي مشبّعة بالإيحاءات ذات اللون الديني أو شبه الديني والتي لا نجدها عند الانجيليين المحافظين من المتدينين فحسب، بل في «الدين المدني» وان بصيغة مخففة. فهناك عبارات ترد هنا وثمة تختصر الدين المدني بالقول ان أميركا أمة لها روح جماعة دينية وان كل رئيس يرى نفسه بصورة واعظ على منبر[٦]. ويصح القول الأخير في جورج دبليو بوش اكثر من أسلافه، بمن فيهم الرئيس كارتر الذي يتفرد بكونه قد مارس الوعظ الديني قبل انتخابه رئيساً.

غني عن القول أن أول ما يستوقفنا في تهيئة الأميركيين للحرب على العراق عن طريق مخاطبة المتدينين وإيقاظ المشاعر الكامنة في «الدين المدني» هو استخدام مصطلح «محور الشر». فهو الوجه الآخر للإيمان شبه الديني بأن أميركا أمة خيِّرة تعرف الأشرار وتسميهم وتتوعَّد بملاحقتهم ومعاقبتهم، من دون أن يدعوها كل ذلك لأن تضع صلاحها هي تحت السؤال الديني والأخلاقي.

نقرأ عند دافيد فرام في كتابه «رئاسة جورج دبليو بوش المفاجئة» عرضاً، على قدر من التفصيل، لقصة عبارة «محور الشر»[٧]. ويظهر ما كتبه الصحافي الذي عمل معداً لخطب الرئيس ان استخدامها يستبطن نظرة للعالم ولمكانة أميركا فيه تتوخى، بشكل واع، تسييس العاطفة الدينية. فقبل الخطاب عن «حال الاتحاد» لعام ٢٠٠٢ طلب مايكل غرسون، وهو إنجيلي

محافظ يعمل مستشاراً لبوش، ان يختصر دافيد فرام في جملة او اثنتين أفضل مسوّغ لملاحقة العراق. فاختار الأخير إجراء مقارنة بين الوضع الدولي الراهن والظروف المحيطة باندلاع الحرب العالمية الثانية عند قيام محور برلين- روما- طوكيو. ورأى ان الدول المنتمية الى هذا المحور لا تثق الواحدة بالأخرى، مما ينطبق على العلاقة بين العراق وإيران اللذَين يلتقيان على العداء للولايات المتحدة ليشكلا «محور الكراهية». غير ان العبارة تبدّلت على يد غرسون ليضمَّ الى المحور المذكور كوريا الشمالية بحيث يصير ثلاثياً ولكي تحل عبارة «محور الشر»، بسبب من وقعها الديني المحتمل، محل «محور الكراهية».

ليس مستغرباً أن تثير هذه الكلمات استياء فئة واسعة من الأميركيين، وفي مقدمهم المسيحيون الليبراليون. غير ان صداها ترجّع عند المحافظين، القدامى والجدد، الذين ينظرون الى دور أميركا في العالم بصورة القوة المسؤولة عن معاقبة الأشرار والراغبة في تحمل هذه المسؤولية والقادرة عليها. كما لاقى تجاوباً عند الانجيليين المحافظين الذين سبق لهم ان رحبوا، منذ أيام ريغان، بإدخال الحكم القيمي، الأخلاقي والسياسي، على سياسة أميركا الخارجية. ومنهم من رأى ان أي كلام في السياسة يستعير لغة من الكتاب المقدس «تسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية»[8] خطوة على طريق استعادة أميركا لهويتها كأمة مسيحية وضرورة لإحياء الإيمان بتفوقها الأخلاقي. ومن نافل القول إن التأكيد على التفوق الأخلاقي المذكور يقتضي أن تكون الحرب، أي حرب تشنها الولايات المتحدة، حرباً عادلة.

آراء في الحرب العادلة

لا يخفى على أحد ان الدعوة الجادة للحرب على العراق، وهي سابقة للحملة العلنية التي بدأت مطلع عام ٢٠٠٢، بل لأحداث ١١ أيلول - سبتمبر ٢٠٠١، لم تصدر في البداية عن جهات مسيحية متدينة. كما انها لم تكن محكومة بثنائية الخير والشر بل بثنائيات أخرى، كالمروق والعقاب، والديموقراطية والاستبداد، والتقدم والتخلف، والعبودية والحرية. إلا أن

المتدينين من الانجيليين المحافظين سارعوا الى تأييد الجنوح نحو الحرب وتسويغه باسم فكرة الحرب العادلة، وان كانت مختزلة أو مضمرة.

ولم تكن هذه أول مرة في التاريخ الأميركي المعاصر. فعندما قرّر الرئيس بوش الأب عام ١٩٩١، شنّ الحرب على العراق لإخراجه من الكويت، لجأ في جملة ما لجأ اليه من تبريرات الى استخدام حجة الحرب العادلة ومعاييرها. ورأى بوش الثاني نفسه في وضع مختلف، لأن الحرب العادلة كانت قد رُفعت الى مستوى المبادىء التي ينبغي للإدارة الأميركية، التي تجهر بمسيحيتها، أن تتقيّد بها.

لقد شقت نظرية الحرب العادلة طريقها في السنوات الأخيرة وبسرعة ملحوظة إلى الثقافة السياسية والعسكرية في أميركا. لم تكن معاييرها ولغتها متداولة في الولايات المتحدة. وحتى الحرب العالمية الثانية، لم ترد الإشارة إليها إلاّ بأقلام المفكرين الكاثوليك الذين انشغلوا بمخاطبة بعضهم بعضاً في مجلات لاهوتية متخصّصة. أما اليوم فان مفاهيم الحرب العادلة صارت رائجة، علماً بأنها لا تستخدم بدقة إلا قليلاً. وهي تدرَّس في الأكاديميات العسكرية وفي أقسام العلوم السياسية في الجامعات. كما شاع استخدام بعض العبارات التي تنتمي الى المعجم الاصطلاحي الديني والخاص بهذه النظرية.

فخلال الحرب على العراق، استعملت على نطاق واسع عبارات مثل «صواب النية» و«شرعية السلطة صاحبة الحق في إعلان الحرب» و«عدالة الأسباب التي تبرر اللجوء الى القوة» و«عدالة الوسائل المعتمدة». ووصل الأمر ببعض المحافظين الجدد النافذين الى الظن انه، من فرط هذا الاستعمال الواسع، بات القول بانطباق نظرية الحرب العادلة على ما يهيأ له أمراً مفروغاً منه[٩]. إلاّ أن هذا الافتراض كان يفتقر الى سند حقيقي. فعند اقتراب موعد الحرب لم تجازف إلا قلة في مناقشة جادة لأفكار مناوئيها الذين استلهموا تلك النظرية المسيحية.

لم يجد بوش الثاني نفسه مضطراً إلى التأكيد على أن الحرب العادلة صالحة للحكم على صوابية أي قرار سياسي قد تمليه في البداية اعتبارات

ليست كلها أخلاقية. بل كان عليه ان يبيّن انطباق مبادىء الحرب العادلة على الحملة العسكرية التي أعدّ لها. أكثر من ذلك، لم يكتف عند محاولة البرهنة على ان المبادىء هذه تجيز استعمال القوة ضد العراق بل ذهب الى التشديد على انها تحث عليها.

لقد سبق لوزير دفاعه دونالد رامسفيلد، عند بدء الحرب على أفغانستان، أن سأل عدداً من القادة المسيحيين المؤيدين لرئيسه أن يطلعوه بالتفصيل على ما يعنيه مصطلح الحرب العادلة. ودعاهم خلال الحرب لكي يسمع منهم إشادة باحترام الولايات المتحدة المبادىء التي إن لم تتقيّد بها أفقدتها صفة القوة العادلة. ثم دعاهم ثالثة عند تسارع الإعداد الفعلي للحرب على العراق. وفي ردّه على سؤال حول تبرير الحرب الاستباقية، لم يجد سوى القول ان هجوم اسرائيل عام ١٩٨١ على المفاعل النووي العراقي كان ضربة وقائية لم يشكك أحد في مشروعيتها[١٠].

بالطبع لم يرضَ رجال الدين واللاهوتيون والمتخصصون في الأخلاق من ذوي الميول الإنجيلية المحافظة لأنفسهم خفة رامسفيلد. فكان سؤالهم، وقد سبقهم إليه المترددون في أمر الحرب على العراق والمعارضون لها، عمّا إذا كان الإرهاب الدولي، كما ظهر في أيلول- سبتمبر ٢٠٠١، يستدعي مراجعة لمعايير الحرب العادلة بحيث يكون الهجوم الوقائي على عدو مارق أمراً شرعياً على الصعيد الأخلاقي نظير الدفاع عن الذات أمام تهديد القوة الشريرة.

أول محاولة جادة للإجابة على هذا السؤال من موقع لاهوتي محافظ جاءت على لسان مجموعة من الأساتذة الجامعيين، ومن بينهم بعض المثقفين الذين أطلقوا بعد الحادي عشر من أيلول رسالة موجهة الى مثقفي العالم ومعنونة «من أجل أية قضية نناضل: رسالة من أميركا». ففي وثيقة دُعيت «إعلان مبادىء»، دلّت إجابتهم على سؤال الحرب الاستباقية على قدر ملحوظ من الحيرة[١١]. قال الأساتذة، بداية، انهم لا ينتمون الى أيّ من الفئتين الواقفتين على طرفي نقيض أمام احتمال الحرب على العراق: فئة المسيحيين الذين يرفضون الحرب مهما كانت أسبابها، وفئة الواقعيين الذين

يعتقدون ان المصلحة العليا وتقدير السلطة لها يتحكمان بالمسألة على نحو لا يترك مجالاً واسعاً للتساؤلات الأخلاقية.

وأشاروا إلى أنهم يأتون من تراث مسيحي غني ترتقي أصوله إلى ألف وخمس مائة عام. وهو يضع معايير أخلاقية واضحة للنظر في صراعات القوى المسلّحة ومشاركة المسيحيين فيها وتأييدهم لها. وأول هذه المعايير، حسب قراءتهم المقترحة للتراث المذكور، هو التأكيد ان الحرب والوسائل التي تعتمد في خوضها مدعوة ان تستند الى مفهوم العدالة، على صعيدَي الأهداف والوسائط. فبسبب من أهمية العدالة تكون الحرب أحياناً عادلة وضرورة من ضرورات الحياة السياسية. من جهة أخرى، ليست الحرب العادلة الا شراً لا بد منه، فهي تؤدي الى خسارة أرواح الناس وهي سبيل غير مضمون النهاية لجهة تحقيق الأغراض المعلنة.

لذلك فإن القائلين بالحرب العادلة، منذ القديس أغسطينوس، يتوقفون عند الشروط الضرورية التي ينبغي ان تتوفر لها وهي: أن تكون القضية محقة، والسلطة صاحبة القرار شرعية، والنية من ورائها إقامة العدل والسلام، وان يتم اللجوء الى القوّة بعد استنفاد كل الوسائل الأخرى الممكنة، وألا تفوق الخسائر التي تؤدي اليها الحرب الأضرار التي يرجّح ان تقع فيما لو لم يستخدَم العنف. ويضيفون ان التراث المسيحي الخاص بالحرب العادلة يعلم ان المساواة في الكرامة الإنسانية غير قابلة للتفريط. وان الحرب، أياً كانت ظروفها، ليست مبرراً لنفي مبدأ المساواة بين الناس أو تعليق احترامه.

من هذا المنظور ذكر مؤيدو «اعلان المبادىء» انهم سوّغوا استخدام القوة ضد مرتكبي جريمة الحادي عشر من أيلول- سبتمبر وضد الذين يقدمون الدعم لهم. إلا انهم فيما يخص الحرب على العراق، تردّدوا في تأييد الخيار الذي اعتمده الرئيس بوش لشنّ حرب استباقية. ذلك ان فكرة الحرب الاستباقية لا تنسجم كلياً مع فكرة الحرب العادلة ولأنها تعزّز احتمالات الحرب، في غير مكان وظرف في العالم. وخلصوا الى القول ان اللجوء الى الحرب يجب ان يظهر للملأ انه الملاذ الأخير. وفيما دعوا الإدارة الأميركية لاعتماد كل وسائل الضغط المتاحة الواحدة بعد الأخرى، لم يحرجهم القول

ان على أميركا إقامة العدل بحيث يعترف الآخرون بصلاح دورها.

في المقابل، بدت فئة متطرفة غير معنيّة بسؤال الحرب من أساسه فاختارت أن تصلي صلاة أميركية من أجل النصر عوض الصلاة المسيحية من أجل السلام. فعلى سبيل المثال وُزِّع في بعض الكنائس نصّ صلاة تسأل الله أن يربك الأعداء، ويزرع الشقاق بينهم، ويشتت شملهم، وتدعوه ان يكشف لهؤلاء الأعداء عن حبه لهم وعن حرب المسيح ضد الشر من أجلهم وصولاً الى موته على الصليب[١٢].

غير ان التيار الرئيسي من الانجيليين المحافظين، وان لم يجار المتطرفين، أحجم عن مشاركة أصحاب إعلان المبادىء ترددهم. ولم يشغله مثلهم الحرص على صورة أميركا، إذ بدا على يقين ان أمته على حق في مواجهة الشر، مهما كان من أمر نظرة الشعوب الأخرى اليها.

في حقيقة الأمر، اعتمد التيار الرئيسي من الإنجيليين المحافظين، بصورة أو بأخرى، مبدأ الحرب العادلة لإعطاء المبرر الديني والأخلاقي لسياسة أميركا ولإقناع الآخرين بها. واعتبر قطاع واسع من المنتمين إلى هذا التيار أن معايير الحرب العادلة تنطبق على الحرب على العراق التي، وان سُمّيت استباقية، تنهي ذيول حرب ١٩٩١ العادلة والشرعية[١٣].

ونجد عند فئة من الشخصيات الانجيلية المحافظة إشارة الى مبادىء الحرب العادلة وملاءمتها للحرب المزمع شنّها على العراق في رسالة الى الرئيس بوش في تشرين الأول ٢٠٠٢[١٤]. تبدأ الرسالة بتوجيه تحية الإعجاب بشجاعة الرئيس وصفاته القيادية وبراعته في إظهار المثل العليا للأمة والمتعلقة بالحرية والعزم على الدفاع عنها في كل أنحاء المعمورة. وتؤكد له ان سياسته في التصدي لأعداء أميركا أمثال صدام حسين صائبة وعادلة. وتكاد الرسالة تخلو من أية إشارة إلى تراث المسيحية فيما عدا التذكير بالقديس اغسطينوس دون تسميته والاكتفاء بالحديث عن الذين صاغوا نظرية الحرب العادلة في أواخر القرن الرابع ومطلع القرن الخامس.

يأتي الكلام بقلم هذه الشخصيات سياسياً بامتياز من دون اهتمام جاد بتقديم الحجج الأخلاقية واللاهوتية. فهم يقولون ان استخدام القوة

العسكرية لتجريد صدام حسين من أسلحة الدمار الشامل المفترضة قضية عادلة لأنها دفاع عن الحرية ضد الدول التي ترعى الإرهاب. أما نية الحرب فهي أيضاً عادلة ونبيلة لأن الأمة الأميركية لا ترغب في تدمير العراق أو احتلاله واستغلاله. كما أن السلطة التي تعلن هذه الحرب شرعية. فالولايات المتحدة، لا مجلس الأمن في الأمم المتحدة، صاحبة الحق في استخدام القوة العسكرية. وتضيف الرسالة، لدى الإشارة إلى الشروط التي ينبغي توفرها أثناء الحرب العادلة، انها تثق بسياسة الولايات المتحدة من حيث قدرتها على تحديد الأهداف بدقة واحترام حصانة غير المقاتلين والعمل على تخفيف الخسائر البشرية. وعلى جاري العادة، تختتم الرسالة بالتأكيد ان عشرات الملايين من المواطنين يعلنون تأييدهم للرئيس بوش. وهكذا فالغاية من وراء هذا النص تتعدّى إضفاء الشرعية المسبقة على قرار سياسي مرجّح الى تجديد الثقة بأميركا وحكامها. وكأن الشخصيات السياسية الانجيلية المحافظة مشغولة بتعبئة الناس لا بمخاطبة ضميرهم الديني.

تبقى فئة ثالثة من أنصار الحكومة الأميركية اختارت التذكير بالأبعاد اللاهوتية لموقفها. فبنظر بعض المسيحيين المحافظين، لا تقوم عقيدة الحرب العادلة على الانتقام والعقاب ولا تجاوب على متطلبات العدالة بقدر ما تترجم واجب المحبة، حسبما جاء عند توما الاكويني عند تناوله محبة الله في موسوعته اللاهوتية. وفي كتاب، لعلّه الوحيد من نوعه صدر عام ٢٠٠٢[١٥]، يقول اللاهوتي دريل كول، في سياق استعراضه لتطور نظرية الحرب العادلة، ان المسيحي الذي يعجز عن تقديم العون لجاره، رغم ان الحكمة تدعوه للاعتراف بأن القوة خير طريق لتأمين العون الضروري، هو مسيحي لا يريد أن تكون محبّته فعّالة[١٦]. بل يرى ان المسيحيين الذين يرفضون بشكل واع المساهمة في حرب عادلة يخفقون في إظهار محبتهم لقريبهم ولله نفسه.

ومهما يكن من أمر كل هذه المواقف المعلنة، ظلت الأصوات المؤيدة للحرب، بوصفها عادلة بالمعنى المسيحي التقليدي، محصورة في أقلية من المسؤولين الكنسيين واللاهوتيين المسيحيين على اختلاف اتجاهاتهم،

بصرف النظر عن شعبية الحرب الواسعة بين الانجيليين المحافظين وبين الأميركيين بوجه الإجمال.

ربما كان المعمدانيون الجنوبيون الاستثناء الوحيد من حيث اتفاق الرأي بين القيادة والقاعدة على محض الرئيس بوش دعماً قوياً وتأييد حربه على العراق من دون أدنى تردد. ولم يخرج عن إجماع هذه الطائفة من شخصياتها المعروفة غير الرئيس الأميركي السابق جيمي كارتر. ففي مقال له، لم يخف قناعته ان الحرب التي يعدّ لها ليست مبررة وفق معايير الحرب العادلة. وقال «بوصفي مسيحياً ورئيساً أميركياً واجه أزمات دولية كبيرة صرت أكثر إدراكاً لشروط الحرب العادلة وبات واضحاً لدي ان هجوماً أحدي الجانب على العراق لا يستوفي هذه الشروط»[١٧]. على هذا النحو تحدث السياسي كارتر بلغة المسيحي فيما جاء كلام مسؤولي كنيسته قومياً أميركياً أكثر منه مسيحياً. وظهر انهم اختاروا الانسجام مع اتجاهات الرأي العام المحافظ من دون تردد.

المعارضة المسيحية للحرب على العراق

من جهتهم، أدرك قادة الكنائس والجامعيون المسيحيون الليبراليون، من البداية، ان موقفهم الديني والأخلاقي والسياسي والمعارض للحرب ليس شعبياً. أرادوا أن يُسمعوا الناس صوتاً آخر على أمل أن ينصتوا اليه. وكانت لهم مبادرات متنوعة، داخل الولايات المتحدة وخارجها، بخلاف الذين أوكلوا الى الحكومة الأميركية النطق باسمهم والقيام بالحرب نيابة عنهم.

لم يكن موقف مجلس الكنائس الوطني في الولايات المتحدة ومجلس الكنائس العالمي ضد الحرب مستغرباً. لكن إجماع الرأي، التلقائي والقوي هذه المرة، وفّر على هاتين المؤسستين، وهما في الأصل منبر حوار بين الكنائس وأداة للتعاون بينهم، الكثير من النقاش الداخلي. وهذا ما سمح للهيئتين المذكورتين ان توظفا جهوداً أكبر من السابق في مخاطبة الرأي العام ومحاولة الضغط على الحكومات.

لم يأت موقف الكنائس البروتستانتية، المؤثرة في المجلسين

المذكورين، من عدم. فهناك تاريخ يعود الى الستينات حيث قامت الكنائس المنضوية فيهما بمعارضة الحرب الأميركية على فيتنام وساهمتا في حركة الدفاع عن الحقوق المدنية للسود في وجه العنصرية، ومنها ما كان يتوسّل هوية مسيحية. وتضامنت مع قضايا الاستقلال الوطني والتحرر لدى شعوب العالم الثالث. ومنذ التسعينات شاركت بصورة أفعل من السابق في الحياة العامة الأميركية نصيرة للأقليات ولحقوق النساء وداعية للعدالة الاجتماعية. وتعاطفت بشكل متزايد مع حقوق الشعب الفلسطيني التاريخية وحريته في تقرير مصيره. كما دعت الى الحوار مع أهل الأديان الأخرى والى مراجعة جذرية للفكر والعمل الارساليَين ومواجهة التعصب والعداء للمسلمين، بعد الحادي عشر من أيلول - سبتمبر بصورة خاصة.

وكانت أكثرية الكنائس الأعضاء في مجلس الكنائس الوطني ومجلس الكنائس العالمي عارضت حرب ١٩٩١ ضد العراق[١٨] فيما اعتبرتها الأقلية شرعية من الناحيتين القانونية والأخلاقية. لكنها سرعان ما أجمعت على رفض سياسة تجويع العراقيين وإذلالهم عن طريق الحصار الطويل الذي فرض على بلدهم وتسبب بمآس إنسانية كبيرة.

غير أن تطور المواقف المسيحية الليبرالية على امتداد العقود الثلاثة الماضية، ترافق مع انحسار الشعبية التي لكنائس الخط الرئيسي وصعود نفوذ التيارات الانجيلية المحافظة. وكان الانجيليون المحافظون قد قاموا بحملات ناجحة في الأوساط الشعبية المسيحية، في عمق الولايات المتحدة الريفي والتقليدي. وانتقدوا بشدة نخبة مسيحية مسكونية نُعتت بالليبرالية، وهي عبارة تكاد تكون في قاموس المتدينين المحافظين مرادفة للانحراف العقائدي واليسارية أو التقدمية. كما أُخذ عليها الانفتاح على المسلمين من دون ضوابط والعطف على الفلسطينيين وانتقاد اسرائيل.

ووجد مجلس الكنائس نفسه متهماً باللاوطنية، وهذه أشد إيلاماً من كل النعوت الأخرى. وهذا ما قيّده، في الغالب، بالمنطق الدفاعي أو دفع به لصياغة مواقفه من دون حساب دقيق لما يفرضه التعامل الواقعي مع اتجاهات الرأي العام وتوقعاته. لقد وعت الكنائس البروتستانتية التاريخية، منذ تصاعد

التهديدات ضد العراق بل منذ الحادي عشر من أيلول - سبتمبر، ان المشاعر السائدة في الولايات المتحدة لن تحسن استقبال مواقفها وان فرصتها على التأثير في مجريات الأحداث محدودة جداً. غير ان ذلك بدا لها حافزاً لعمل موصول يندرج في سياق الزمن الطويل ويكتسب صدقيته من انسجامه مع نفسه وابتعاده عن المساومة والتزامه، على الصعيد السياسي، القيم المسيحية الأخلاقية التي يؤمن بها. وعلى ضوء ذلك تُفهم بعض المبادرات والنداءات الجسورة التي لم تلق أي تجاوب مثل الرسالة التي وجهها القادة الدينيون الى الرئيس بوش وهي بعنوان «غيّر يسوع قلبك، دعه الآن يغيّر عقلك»[١٩].

اتسم الموقف المسيحي المعارض للحرب على العراق بسمات خمس رئيسية[٢٠]. أولها إحياء لغة السلام المسيحية على نحو يكشف التباسات لغة تدعو للحرب المبرّرة بلهجة التهديد والقوة والعظمة وتبقى ضعيفة من حيث سندها الإنجيلي. وثانيها استعادة نظرية الحرب العادلة في مبادئها والشروط التي تتطلبها والبرهنة انها لا تتوفر في الحرب التي يُعدّ لها. وثالثها نقد التوظيف السياسي للمشاعر الدينية المشبعة بالمخاوف وثنائية الخير والشر، والدعوة الى أخلاق المواطنة بما فيها واجب المسيحي ان يحتكم الى ضميره الديني. ورابعها التحذير من انعكاسات الحرب على العلاقات المسيحية - الإسلامية في العالم. وخامسها رفض اختزال العراق في نظام عدو مارق ومعارضة من صنع أميركي.

وواجهت الكنائس المعارضة للحرب الانعزالية الأميركية على الصعيد المسيحي بصفة خاصة، وذلك بالتشديد على الصلة الوثيقة بين مواقفها والاتجاه السائد في المسيحية خارج الولايات المتحدة والذي يرى في الحرب عملاً غير أخلاقي وغير شرعي وغير حكيم، والذي عبّرت عنه الكنيسة الكاثوليكية بصوت البابا والكنائس الأخرى منفردة، بأصوات رؤسائها، أو مجتمعة، بلسان مجلس الكنائس العالمي.

بالطبع، يضيق المجال لاستعراض كل مواقف النخبة الكنسية الأميركية. حسبنا التوقف عند بعض الأمثلة مما صدر عن كنائس عرفت بليبراليتها وسبق لها ان لعبت دوراً مهماً في تاريخ الولايات المتحدة وما زالت تضم في

صفوفها ممثلين كثراً للنخبة الأميركية السياسية والاقتصادية والثقافية .

ففي ٥ نيسان - ابريل ٢٠٠٣ ، نشر أبرز قادة كنيسة الميثوديست اعلاناً في مجلة كريستيان سانتشوري Christian Century (العصر المسيحي) تحت عنوان «رسالة نبوية من الميثوديست المتحدين تدعو أخانا جورج دبليو بوش للتوبة»[٢١] . وأوصوه بالإقلاع عن سياساته الداخلية والخارجية التي لا تنسجم مع قدوة المسيح وتعاليمه . وقالوا له ان رسالة الكنيسة لا تتعلق فقط بالخلاص الأبدي والقداسة الشخصية بل بالعدالة الاجتماعية والتحرر السياسي أيضاً .

ووجهوا اللوم الى الرئيس، الذي انتمى الى كنيستهم عند زواجه قبل أكثر من عشرين سنة ، لأنه يروّج للعنف فيما يرى نفسه بصورة المسيحي الشفوق . وكان الأعيان الميثوديست قد طلبوا موعداً للقائه فلم يعط لهم . وسبق لعدد منهم ان ادلوا بتصريحات جريئة مثل المطران مالفين تالبرت Melvin Talbert ، المسؤول عن العلاقات الخارجية وممثل الكنيسة في مجلس الكنائس العالمي، الذي قال لدى عودته من زيارة للعراق ان الذين التقاهم هناك لا يعرفون الأسباب التي تدفع بالولايات المتحدة الى قتلهم . وأضاف ان العراق لا يشكل خطراً على الولايات المتحدة . وتساءل عمّا اذا كانت هذه الأخيرة تتصرف وكأنها وكيل لإسرائيل . ولدى ذكره الإسلام، أثار ردود فعل إنجيلية محافظة ساخطة لمّا قال انه يؤمن بالمسيح طريقاً للخلاص بالنسبة إليه رغم اعتقاده ان للأديان الأخرى طرقاً أخرى للخلاص[٢٢] .

بدوره ذهب المطران جو سبراغ Joe Sprague بموقف المعارضة للحرب الى حد العصيان المدني ورفض الانصياع لأوامر الشرطة بالتفرق وعدم السير في تظاهرة ممنوعة أمام البيت الأبيض، مما أدّى الى اعتقاله . ولم تكن معارضة رجال الدين الكبار للسياسة الأميركية بهذه الطريقة أمراً مستغرباً . فالعصيان المدني يعود بالذاكرة الى حركة الحقوق المدنية التي قادها القس مارتن لوثر كينغ الابن ومؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية . ثم ان الكنائس استعادت اللغة، وسواها من وسائل التعبير، التي تشكلت واختُبرت خلال حركة المعارضة للحرب في فيتنام .

أضف الى ذلك ان الشخصيات المسيحية والمؤسسات الكنسية وجدت نفسها لأول مرة أمام أبواب مسدودة كلياً على صعيد المخاطبة المباشرة للرئيس وباقي صنّاع القرار. كما أوصدت في وجهها أبواب وسائل الاعلام الوطنية. لم ترغب السلطة في أي حوار مع الشخصيات الكنسية التي بدت لها غير مؤيدة لسياساتها. أما وسائل الاعلام الكبرى فانها مارست بوجه الإجمال نوعاً من الرقابة على الأصوات المعارضة لسياسة الإدارة الأميركية. ولعلّ هذا ما دفع عدداً من الشخصيات المسيحية الى اتخاذ مواقف أكثر جذرية من تلك التي تأخذ بالحسبان أصول الحوار وتراعي اتجاهات الرأي العام.

ونجد مثلاً عند فرانك غريسوولد Frank Griswold المطران المترئس للكنيسة الأسقفية، أي الكنيسة الانغليكانية في الولايات المتحدة والتي ينتمي اليها جورج بوش الأب، تحذيراً من «تسمم الروح الوطنية»[٢٣]. ونسمعه يأخذ على دعاة الحرب الخفة في اعتماد اللغة الدينية وتجاهلهم السؤال المتعلق بأثر العمل العسكري على حياة الأبرياء وتغذيتهم مشاعر الغضب تجاه الولايات المتحدة، لا في العراق وحده بل في غير منطقة من العالم. ويضيف ان المسيحيين الذين يدعمون بوش لا يدركون، في حقيقة الأمر، بأن ليس للولايات المتحدة وكالة حصرية للفضيلة والخير. ولا يعون ان نعتهم صدام حسين بالشرير لا يعني ان الولايات المتحدة منزّهة عن الشر. لذلك فهو يخلص الى دعوة أمته الى التوبة مذكراً بأن الله معني بالبشرية كلها وهو لا يخصص شعباً بعينه أو بلاداً. ويتمنى بمرارة أن يأتي يوم يستطيع فيه الذهاب الى بلدان في العالم كثيرة من غير ان يجد نفسه مضطراً إلى الإعتذار للناس بسبب من انتمائه للولايات المتحدة.

لقد بدأت حركة المعارضة المسيحية للحرب الأميركية على العراق بالظهور الى العلن يوم الذكرى السنوية الأولى لأحداث الحادي عشر من أيلول - سبتمبر ٢٠٠١، رداً على سياسة القمع والتأديب التي اعتمدتها إدارة الرئيس بوش في سبيل القضاء على حركات الإرهاب وتجفيف منابعها. ففي الثاني عشر من أيلول ٢٠٠٢ وجّه ثمانية واربعون من قادة الكنائس في

الولايات المتحدة رسالة الى الرئيس بوش تحذره من القيام بأي عمل عسكري وقائي أو استباقي ضد العراق بحجة مكافحة الارهاب أو معاقبة نظام مارق وتغييره. وقبل أن تصبح الحرب على العراق مسألة رئيسية في النقاش الوطني الأميركي، توالت الرسائل من قادة الكنائس تحذر من استعجال الحرب وتبريرها مسبقاً.

وفي ٣٠ أيلول ٢٠٠٢، كتب رئيس مجمع الكنيسة المشيخية Presbyterian Church والمسؤول التنفيذي فيها Staked Clark رسالة الى بوش تؤكد أن العدوان العسكري الأحدي الجانب، أكان ضربة استباقية أم محاولة للإطاحة بحكومة في دولة ذات سيادة، لا يعالج المشكلات المؤثرة في ممارسة العنف كما يظهر في الإرهاب. ورداً على أصحاب الرسالة الذين يصفون منطلقهم في المعارضة بانه أخلاقي، أعلن ممثلون لتيار الأقلية داخل الكنيسة أن مصدر الشرعية الأخلاقية هو الكتاب المقدس وهو لا يقدم أي سند لرفض استخدام القوة العسكرية. بل انه يعلّم ان «لا سلطة الا من الله والسلطات القائمة هو الذي أقامها . . . فانها لم تتقلّد السيف عبثاً لانها في خدمة الله، كما تنتقم لغضبه من فاعل الشر (رومية١٣ : ١و٤). وعلى هذا النحو نقل المعترضون على موقف قيادة كنيستهم الخلاف حول مسألة بعينها الى خلاف حول جواز الحرب أو عدمه من وجهة نظر مسيحية. وبهذه الصورة، دفعوا الأكثرية المعارضة للحرب الى القول ان الحرب، أياً كانت مبرراتها، غير أخلاقية.

وكانت الجمعية العامة للكنيسة المشيخية المنعقدة في حزيران - يونيه ٢٠٠٢ ذكرت العراق مرتين حين شددت على قراراتها السابقة والداعية لرفع العقوبات الإقتصادية المفروضة عليه وحين دعت حكومة الولايات المتحدة لممارسة ضبط النفس فيما يخصّ العمل العسكري ضد العراق. ولم يكن الحديث عن «ضبط النفس» خالياً من الالتباس. فهو يعني بنظر الأكثرية الإحجام عن أي عمل عسكري فيما فسّرته الأقلية بانه نصيحة بعدم الاستعجال في استخدام القوة، لا أكثر. غير أن هذا الالتباس لم يمنع المجلس المنبثق من الجمعية العامة والمنعقد في ٢٨ أيلول - سبتمبر ٢٠٠٢

من تبني «رسالة الى الكنيسة والأمة»(٢٤) دعت كل المشيخيين الى اسماع ممثليهم في الكونغرس رغبتهم في الوصول الى حلول ديبلوماسية للمشكلات الدولية عوض اللجوء الى القوة العسكرية. كما دعت الى الحثّ على السلام عوض الحرب والامتناع عن استخدام لغة تُطلق على أفراد وشعوب نعت الأشرار وترى آخرين بصورة أخيار. وناشدت الإدارة الأميركية إعطاء الوقت اللازم، من دون تلويح بالحرب ولا ضغط سياسي ومعنوي، للمفتشين الدوليين أن يعملوا بحسب ما رسمته قرارات الأمم المتحدة. وطالبت برفع العقوبات الدولية التي لم تستهدف، في حقيقة الأمر، صدام حسين بل أساءت بشكل بالغ الى الشعب العراقي كله.

لم تؤد محاولة الكنيسة المشيخية التأثير على أعضاء الكونغرس إلى اي نجاح يذكر، بل أن ٣٣ من أصل ٤٣ عضواً من أعضائه ينتمون اليها صوّتوا مع الحرب ضد العراق. وتفرّدت احدى نواب الحزب الديموقراطي من الذين عارضوا الحرب بالقول ان لوجهة نظر الكنيسة التي تنتمي اليها تأثيراً كبيراً على قرارها. لقد ظهرت صورة الكنيسة المشيخية في الكونغرس «بالمقلوب». فأكثرية النخبة الدينية المشيخية عارضت الحرب فيما دعمتها أكثرية النخبة السياسية ذات الانتماء المشيخي. وهذا ما يدعونا للنظر في التعارض بين أجنحة النخبة المسيحية، الدينية والسياسية، وفي التفاوت بين القيادة الدينية والقاعدة التي ينتمي اليها عدد من أبناء النخبة السياسية.

في شباط ٢٠٠٣، أظهر استطلاع للرأي ان نسبة الأميركيين المتدينين المؤيدين للحرب على العراق أعلى من النسبة العامة في المجتمع الأميركي(٢٥). بدا الأمر مفاجئاً للكثيرين لأن الكنائس الأميركية، ما خلا الاستثناء المعمداني الجنوبي، عارضت الحرب ولأن الانجيليين المحافظين ليسوا بحسب معظم التقديرات أكثر من ثلث المسيحيين. أشارت نتائج الاستطلاع إلى ان اثنين من ثلاثة يرتادون الكنيسة بانتظام يميلون الى تأييد الحرب بصورة أو بأخرى. وتنخفض النسبة الى ثلاثة من خمسة عند الذين لا يعيرون الدين أهمية تذكر.

ربما وجدنا ها هنا تفسيراً لقلة اكتراث الرئيس بوش بالإنصات الى

رجالات الكنيسة ومراعاة مشاعرهم التي لا تعكس على نحو دقيق مشاعر أعضاء كنائسهم. ومن شأن هذه النتائج أيضاً أن تدعو لمراجعة الحساب وتقويم الذات عند الذين استبشروا خيراً في ارتفاع الأصوات المسيحية الرافضة لمنطق القوة وتوقعوا ان يكون هذا الرفض قابلاً للتحول الى تأثير سياسي جدي.

بالطبع ليس من إجابة واحدة على السؤال المتعلق بتراجع النفوذ المعنوي للنخبة الكنسية الليبرالية التي بات الكثيرون يرونها بعيدة عن نوازع القاعدة وميولها، وصاحبة لغة لا يفهمها الناس ولا تجاوب حاجاتهم الدينية وتوقعاتهم. فالفكر الذي يُعنى بالوصل بين الدين والسياسة ويحاذر الفصل بين هواجس الفرد والقضايا العامة ويقرِّب المسافة بين الأخلاق الاجتماعية والخيارات السياسية، لا يخاطب إلا فئة محدودة من المؤمنين العاديين.

ويذهب البعض الى القول إن الطهرانية الأميركية مازالت أقوى مما يعتقد الكثيرون. وغالباً ما يعطى تديّن الرئيس بوش مثلاً على ذلك. فما حقيقة تقوى هذا الرئيس والتي تظهر في الخارج وكأنها استعلاء وتبدو في الداخل أشبه بالمحافظة على القيم التقليدية؟

نقرأ عند أحد الصحافيين العارفين بهذه المسألة تحفظاً شديداً حيال القول السائد إن أصولياً يحكم الولايات المتحدة[٢٦]. صحيح أن تديّن بوش يحتل مكانة كبيرة في نظرته الى ذاته والى العالم. غير أن هذا التديّن القوي، وعلى غرار السواد الأعظم من الذين يتحدثون عن «ولادتهم الجديدة»، علامة انعطاف في الحياة الشخصية حيث تؤدي الروحانية المسيحية وظيفة علاجية وتحقق اطمئناناً ورضى عن الذات. لذلك فان العاطفة الدينية تطغى على الوعي الديني. فالرئيس بوش، وان كان يدعو العاملين معه لأن يمضوا بعض الوقت في قراءة الكتاب المقدس، لا يعتنق مذهباً معيناً في تفسير النصوص الكتابية. بهذا المعنى ليس أصولياً أي لا يتقيد بالقراءة الحرفية للكتاب المقدس. ويقول بعض المحيطين به[٢٧] ان الإيمان عنده حافز لفعل الخير، أو ما يحسبه خيراً، أكثر مما هو طريق لاكتشاف الخير في عالم معقّد. وهو يعظِّم قدرة الإيمان على صنع المعجزات[٢٨]. والشعور بالإيمان عنده أقوى

من محتوى الإيمان نفسه. وليس الاعتقاد بانه صاحب رسالة أو دعوة بعيداً من هذا الشعور. لقد كرّر الكثيرون قصة عن عظة لقسيس ميثوديست ألقاها في دالاس بحضور بوش عشية بدء ولايته الثانية حاكماً لتكساس. وتحدثت هذه الخطبة عن تردد موسى في إحساسه انه مختار لقيادة شعبه. واستوقفهم قول الذي أصبح في ما بعد رئيساً أن سماعه تلك العظة كان لحظة حاسمة في إدراكه أن طموحه لرئاسة أميركا استجابة لإرادة الله[٢٩]. ولأنه لا يهتم بالمسائل اللاهوتية لم يعنه كثيراً النقاش حول الحرب العادلة. يكفيه أن يعزز ضميره الديني الشعور بالواجب ولا حاجة بعد ذلك للاستعانة بالوعي الديني للنظر في معنى أفعاله وآثارها.

غني عن القول إن هذه الطهرانية تختلف عن سابقاتها. لكن نواتها «الصلبة» طالعة من الذاكرة التاريخية حيث تحتل الثقة بالذات الفردية والجماعية والإيمان برسالة أميركا والأميركيين مكانة كبيرة. اننا نجد هذه النواة الصلبة، وان بصيغة متعلمنة، في قلب الدين المدني الأميركي. وربّ قائل ان الخطاب المسيحي الليبرالي، المنسجم مع الدين المدني في غير قضية، يفترق عنه حين يتعلق الأمر بدعوة أميركا ودورها في العالم. وهذا ما يفسر انحسار جاذبيته ابان الأزمات وعند أخذ القرارات الحرجة.

هناك اعتبارات أخرى، لعلّها أقل أهمية، توضح أسباب التفاوت بين أكثرية كبيرة داخل النخب المسيحية تعارض الحرب وأكثرية كبيرة بين المتدينين تؤيدها. فالانجيليون المحافظون، وكما سبقت الإشارة، لم يوظفوا جهداً كبيراً في السجال اللاهوتي حول الحرب العادلة ممّا أضعف موقعهم في الساحة الفكرية. ولهذا الموقف دوافع كثيرة منها الخوف على المسيحيين في العالم الاسلامي من مفاعيل غضب المسلمين نتيجة القول جهاراً بأن الحرب على العراق ذات مسوغات دينية[٣٠]. ثم ان السنوات الأخيرة شهدت تسييساً، بالمعنى الحزبي والانتخابي للكلمة، عند الانجيليين المحافظين الذين اختاروا الانضمام بأعداد كبيرة إلى الحزب الجمهوري. وهذا ما أدى بطريقة نصف واعية، الى تسييس لغتهم عند الحديث عن أميركا والعالم على حساب اللغة الدينية. فهي لا تظهر بصورة

جلية الا عند الكلام عن الحرية الدينية والتعليم الديني والإجهاض والإباحية وغير ذلك من القضايا الأخلاقية العامة.

ومن أسباب التفاوت بين النخبة والقاعدة أن الفكر المسيحي الذي دافع عنه المعارضون للحرب بات في نظر الكثيرين طوباوياً ومثالياً في فهمه، أو عدم فهمه، للطبيعة الانسانية وقصور الناس في ضبط نوازع العنف والاعتداء عندهم. كذلك فالقول ان الحرب ليست قدراً «محتوماً» لا يخاطب عقول المتدينين العاديين وقلوبهم ممّن هم أكثر اقتراباً من رؤية «واقعية» للعالم الخاطىء والساقط.

أما السبب الأخير الذي يستحق الذكر فهو يتعلق باستعادة الكثيرين من أعضاء النخبة المسيحية لغة حركة السلام المناهضة للحرب الأميركية في فيتنام. وهذا ما لم يأخذ بالاعتبار الكافي التحول في المزاج الأميركي العام لجهة طيّ صفحة الشعور بالإثم التي رافقت تلك الحرب، في أيامها الأخيرة خصوصاً.

انجيليون محافظون وانجيليون محافظون

لا يعني كل ما سبق أن النخبة المسيحية الليبرالية لم تستطع منذ صعود الحركة الانجيلية المحافظة ان تؤثر على الاطلاق في المزاج الديني العام داخل الولايات المتحدة. فإذا ما كانت معارضة الحرب الأميركية على دولة «مارقة» موقفاً محدود الشعبية لتعارضه مع المشاعر العامة، فان بعض المواقف أتت أوسع تأثيراً لأنها تواكب، أو تستبق، تحولات كبيرة عرفها قطاع واسع من الأميركيين المسيحيين، من حيث وعيهم لذاتهم في ظل التنوع الديني المتسع. لقد تغيّرت اتجاهات الرأي العام المسيحي في الولايات المتحدة بالنسبة إلى مسألة احترام الخصوصيات الثقافية والدينية وإعادة النظر في قضية التبشير بين غير المسيحيين ووسائلها.

لم يجمع مؤيدو حرب العراق المسيحيون على موقف واحد من تبشير العراقيين واستكمال «تحريرهم»، و«بسلاح الانجيل» هذه المرة. بل ان الخلاف سرعان ما نشب بين المسيحيين ذوي الميول المحافظة عندما دعت

شخصيات معروفة الى ارسال المتطوعين والمعونات الى العراقيين من دون اخفاء الدوافع الدينية. فبعد الغزو العسكري، قامت هيئات مسيحية محافظة بحملات من أجل مساعدة العراقيين. وأعلن المؤتمر المعمداني الجنوبي ان المجلس الإرسالي الدولي التابع له سوف يرسل متطوعين لتوزيع الطعام والكساء ومساعدة العراقيين «لينالوا الحرية الحقيقية في يسوع المسيح». من جهته، ذكر القس فرانكلين غراهام Franklin Graham، ابن الواعظ الانجيلي الشهير بيلي غراهام وصديق الرئيس جورج دبليو بوش المقرّب، ان هيئة الإغاثة التي يرعاها والتي تدعى «محفظة السامري» Samaritan Purse تستعد لدخول العراق. كما صرّحت هيئة مسيحية ثالثة تسمّى الاهتمام بالعالم World Concern انها «سوف تسعى بالطرق الفضلى الى نقل محبة المسيح بالكلمة والفعل».

سرعان ما بدا ان هذه الحماسة الإرسالية لا تلاقي تجاوباً واسعاً بين المسيحيين، بمن فيهم الانجيليون المحافظون. واستغرب مبشرو العراق «المقمطين» embedded هذا الأمر واستهجنت وندي نورفل Wendey Norville إحدى المسؤولات في المؤتمر المعمداني الجنوبي ان يُنظر الى المسيحيين الذين يقومون بواجبهم الديني، ويقدمون أموالهم من أجل المساعدات الإنسانية ولا يترددون في نوع من المخاطرة، وكأنهم يتعمدون الإساءة الى العراقيين.

لا يذهب المتحفظون من الانجيليين المحافظين حيال التصرّف الإرسالي الى حدّ اتهام أصحابه بسوء النية، ولكنهم يأخذون عليهم، وهذا هو بيت القصيد عندهم، المطابقة بين قضية أميركا وقضية المسيح. ويقول روبرت باين Robert Payne، الأستاذ في كلية دالاس اللاهوتية المحافظة Dallas Theological Seminary ان الزمان والمكان غير ملائمين لحضور مسيحي غربي ظاهر. ويضيف: «نحن نعتقد انه يترتب علينا القيام بكل شيء بأنفسنا، وهذه صورة الأميركي البشع. علينا أن نبتعد كمسيحيين عن كل ما يظهر للعالم وكأننا ننفذ بنداً من سياسة أميركا»[٣١].

في المقابل، هناك تحفظ تجاه النيات الإرسالية يخضع لمنطق معاكس.

فبعض المسيحيين المؤيدين لبوش رأى أن المشروع التبشيري المقترح لا يخدم سياسة أميركا الخارجية. فالخلط بين تأييد بوش وتحقير الإسلام ودعوة المسلمين الى اعتناق المسيحية، وهو ما ارتبط بأسماء دعاة تبشير العراق أنفسهم، يفاقم حذر المسلمين حيال أميركا بل كراهيتهم لها. ووصل الأمر بعدد من هؤلاء الى مطالبة بوش بالتنصل العلني من غراهام والمؤتمر المعمداني الجنوبي. وفي هذا تراجع عن صداقة قوية وقدر من المجازفة الانتخابية.

وفي حرص على التماهي مع سياسة أميركا، لا التمايز عنها كما جاء عند الفئة الأولى من المعترضين، قدّم أحد المعلقين صيغة عملية تحول دون إساءة المبشرين الى مصلحة أميركا. واقترح تنظيم حملة مساعدات وطنية لمساعدة العائلات العراقية على أن تقوم بتوزيعها هيئات «حيادية»، فيما يسلّم القسم الآخر الى الهلال الأحمر فيُساهم ذلك في تعزيز التسامح الديني بين المسلمين والمسيحيين، غرباً وشرقاً[٣٢].

لقد دفع هذا السجال المسيحيين المحافظين الى مراجعة الموقف المسيحي من الإسلام والمسلمين كما تضخمت ملامحه منذ الحادي عشر من أيلول - سبتمبر ٢٠٠١. ففي الوقت الذي بدا فيه المسيحيون منقسمين حول الحرب على العراق، والانجيليون المحافظون مختلفين حول تبشير العراقيين، ظهرت الحاجة الى النظر مجدداً الى العلاقة مع المسلمين بوصفها شأناً داخلياً وخارجياً، سياسياً وعقدياً في الوقت نفسه.

في ٧ أيار - مايو ٢٠٠٣، عُقد اجتماع كبير عن الإسلام بدعوة من الرابطة الوطنية للانجيليين National Association of Evangelicals والتي تضم ٤٣,٠٠٠ رعية أو جماعة دينية محلية، و«معهد الدين والديموقراطية» Institute of Religion and Democracy وهو منظمة محافظة معروفة بتحاملها الدائم على البروتستانتية الليبرالية والهيئات المسيحية المسكونية. ووجه المجتمعون تحذيراً مزدوجاً من مخاطر العداء المسيحي للإسلام والمسلمين ومن منزلقات الحوار والتعاون بين المسيحيين والمسلمين الذي تدعو له «بسذاجة» هيئات مثل مجلس الكنائس الوطني في الولايات المتحدة

ومجلس الكنائس العالمي. ثم نادوا، ولأول مرة في تاريخهم، بالحاجة الى تشجيع العلاقات المسؤولة والتفاعل البنّاء بين الانجيليين المحافظين والمسلمين.

وسمح هذا الاجتماع لمعهد الدين والديموقراطية، ولأول مرة منذ تأسيسه، أن يصدر وثيقتين تقترح الأولى توجهات من أجل الحوار المسيحي- الإسلامي[٣٣] وتقدم الثانية «إحدى وعشرين أطروحة لتوجيه التعامل المسيحي مع الشرق الأوسط»[٣٤].

تؤكد الوثيقة الأولى على أولية المعرفة، معرفة الإسلام والمسلمين الدقيقة، وعلى انفتاح المسيحيين على أبناء الدين الآخر والاعتراف بتنوعهم. وتشدد على تحرير الحوار من استقطاب الشمال والجنوب والعرب والغرب. وتدعو للتلاقي مع المسلمين في الدفاع عن الأخلاق والحرية الدينية والى مناقشة مشكلات الديموقراطية وحقوق الانسان من منظور كوني. وفي تمايز واضح عن مواقف أميركية أخرى رائجة، تدعو الوثيقة المسيحيين الى الإقلاع عن ممارسة الألاعيب السياسية التي تبرز مسلمين يفضّلهم المسيحيون على حساب آخرين لا يحبونهم.

أما الوثيقة الثانية فانها لا تتردد بداية في أخذ بعض المسافة من المواقف المسيحية الانجيلية المحافظة السافرة في تأييدها غير المشروط لإسرائيل. وتتحدث عن مسؤولية الكنائس الأميركية في تخفيف عذابات شعوب الشرق الأوسط، ومراعاة المصالح القومية الأميركية بحذر، والإصغاء الى كنائس المنطقة، وتفهم الأسباب التي تدعو معظم المسيحيين في العالم العربي الى معاداة اسرائيل، والدعوة الى سياسة متوازنة لحل النزاع بين اسرائيل والعرب. لكنها لا تلبث أن تتراجع نحو التأكيد على دعم اسرائيل بوصفها ديموقراطية حليفة للولايات المتحدة ولا ترى ضرورة لعودتها الى حدود ١٩٦٧. ولا توافق على أن القدس مدينة مقدسة بالقدر ذاته للأديان الإبراهيمية الثلاثة. ولا تعتبر الأمم المتحدة جهة صالحة للوساطة في الصراع العربي – الإسرائيلي والمساهمة في حلّه بل تحصر هذا الدور في الولايات المتحدة.

قد يرى البعض أهمية هذا التباين بين معارضي الحملة التبشيرية والداعين للحوار مع المسلمين وتعديل مواقفهم من اسرائيل والفئة الأخرى من الانجيليين المحافظين التي لم تغيّر شيئاً في مواقفها التقليدية. فتأثيره على الرأي العام مازال محدوداً. إلا انه يكشف الفرق بين منهجين فكريين وسياسيين يتوزع عليهما المسيحيون الانجيليون المحافظون والمؤيدون بوجه الإجمال للرئيس بوش.

فهناك الفئة المتمسكة بمبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة وهي راسخة في التراث الديني الأميركي، بما فيه التيار المعمداني. يقابلها التيار المنظم خارج البنى الكنسية والأكثر تسيّساً والداعي منذ سنوات الى «الزواج» بين المسيحيين المحافظين والحزب الجمهوري بكل ما لهذه الكلمة من معنى[٣٥].

يبقى أن الكلام عن ديمومة هذا الزواج قليل، اليوم أكثر من أمس. كذلك الأمر بالنسبة إلى التحالف اليميني النافذ. فالتلاقي بين الانجيليين المحافظين واليهود من مؤيدي الليكود و«المحافظين الجدد»، وهم الأوسع نفوذاً في صناعة قرار الحرب على العراق، يفتقر الى قاعدة ايديولوجية ثابتة. فالأطراف الثلاثة تلتقي على ماسيانية سياسية وتختلف حول محتواها. وهي تأتي من طرق مختلفة الى استنهاض قوة أميركا وعظمتها والإيمان بأن القيم الأميركية ذات رسالة كونية.

ولأنها تأتي من طرق مختلفة فهي مرشحة دائمة للتباعد حين يتعلق الأمر ببعض القضايا الاجتماعية الأخلاقية والسياسية فضلاً عن قضية الدين نفسه ومنزلته في المجتمع. لقد ألقى التباين حول العراق الضوء على احتمالات هذا التباعد لكنه لم يعدل شيئاً يذكر في أولية السياسة، بما فيها ما يتصل بعلاقات القوى الانتخابية، على الإيديولوجية.

هوامش الفصل الثالث

١ - Rich Cizik, Christianity Today, March 2002 p. 3.

٢ - نُشر التصريح في ١٠ حزيران ٢٠٠٢وفي صحف كثيرة.

٣ - Southern Baptist Convention Annual Meeting, Saint Louis June 11-13, 2002.

٤ - Graham Franklin, *The Name*, Thomas Nelson, 2002.

٥ - Caldwell Deborah, Belief net, October 2002.

٦ - Howard Fireman, *Bush and God*, Newsweek, March 10, 2003.

٧ - David Frum, *The Surprise Presidency of George W. Bush*, New York, Random House, 2003, pp. 225-238.

٨ - Richard Cizik, in Michael Parker, President Stirs Heated Debate on American Tradition, San Antonio Press News, April 12, 2003.

٩ - Christopher Lynch, *Cold War Theory*, Standard Weekly, Nov 3, 2003.

١٠ - Charles Colson, *Just War in Iraq, Sometimes Going to War is the Charitable Thing to Do*, in Christianity Today, December 2002, vol 46, N° 13, p. 72.

١١ - The Institute of Religion and Democracy, *Pre-emption, Iraq and Just War: A Statement of Principles*, Sept 14, 2002.

١٢ - Michael Horton, *Onward Christian Soldiers. Alliance of Confessing Evangelicals*, www.christianity.com, no date.

١٣ - Micheal Novak, *The Winning of a Just War*, National Review online, April 9, 2003.

١٤ - Jim Lobe, *Conservative Christians Biggest Backers of Iraq War*, Interpress, service, October 10, 2002.

١٥ - هناك كتب عدة صدرت لاحقاً ومنها:

- Schannon French, *The Values and Ideas of Warriors Cultures Throughout History*, Rowman and Littlefield, 2003.

- Jean Bethke Elshtain, *The Burden of America's Power is a Violend World*, Basic, 2003.

١٦ - Darrel Cole, *When God Says War is Right, The Christian Perspective on When and How to Fight*, Waterbrook Press, Colorado Spring, 2002, pp. 27-51.

١٧ - New York Times, March 8, 2003.

١٨ - The World Council of Churches, Statement on the Gulf War, *Seventh General Assembly*, Canberra, Australia, 1991.

١٩ - Religions Leaders Sensible Priorities, *A letter to President Bush, Jesus Changed Your Heart: Let Him Now change Your Mind*, January 2003.

٢٠ - للاطلاع على المواقف والمبادرات المسيحية الأميركية والدولية المعارضة للحرب على العراق راجع فهارسها ونصوصها على الصفحات الالكترونية الآتية:

http:www.nccc usa.org/iraq/iraqstatements.html

http:www. wcc-coe.org/wcc/what/international/iraq/html

http: www.wcc-coe.org/wcc/behindthenews/index/html

٢١ - Senior United Methodist Officials, *A Prophetic Epistle from United Methodists Calling on Brother George W. Bush to Repent*, full-page ad, Christian Century, April 5, 2003.

٢٢ - Mark Tooley, *United Methodist Bishops Applaud Bishop Talbert*, Institute of Religion and Democracy News, May 8, 2003.

٢٣ - Nelson Erik, *Griswold Latest Statement is Disrespectful of Christians who Support the War*, the Institute of Religion and Democracy, News, April 1, 2003.

٢٤ - Presbyterian Church In the United States of America, General Assembly Council, A *Message to the Church and Nation Regarding Iraq*, September 28 ,2002.

٢٥ - The Gallup Organization, *Support for Bush Significantly Higher Among Religious Americans*, Fabruary 19, 2003.

٢٦ - Bill Kelleb, *God and George W. Bush*, New York Times, April 18, 2003

٢٧ - حسب Kelleb وFrum الذي سبق ذكر كتابه.

٢٨ - James Hefling, *Wonder-Working Power*, Information Clearing House, April 18, 2003.

٢٩ - Joan Didion,, Bush and The Divine, Opcit,p.6.

٣٠ - Mark Toley, *Church Goers Support War with Iraq*, The Institute of Religion and. Democracy, News March 18, 2003.

٣١ - New York Times, April 6, 2003, p. 14.

٣٢ - Steven Waldman, *Jesus in Baghdad. Why We Should Keep Franklin Graham out of Iraq*, Christianity Today, April 11,2003.

٣٣ - Institute of Religion and Democracy, *Guidelines for Christian-Muslim Dialogue.*

٣٤ - Idem, *Twenty-one thesis to Guide Christian Engagement with the Middle East.*

٣٥ - عبارة استخدمها لأول مرة عام ١٩٨٨ أحد قادة اليمين المسيحي ريتشارد لاند Richard Land.

الفصل الرابع

لقاء الماسيانيين واختلاف الماسيانيات

قبل وصول جورج دبليو بوش الى الرئاسة في الولايات المتحدة، وخاصة بعده، نُسجت علاقة تحالف سياسي بين المحافظين الجدد، ومنهم عدد مؤثر من اليهود، وجماعات الضغط العاملة لحساب إسرائيل والإنجيليين المحافظين الناشطين في صفوف الحزب الجمهوري. ويتساءل البعض ما اذا كانت هذه العلاقة هشّة، بسبب التباين في المنطلقات العقدية بين الفئات الثلاث، وغير قابلة للحياة بفعل ظرفية الأوضاع التي دعت الى بنائها.

أما البعض الآخر فيرى ان اجتماع هذه الفئات الثلاث على تأييد بوش، والضغط عليه في آن واحد، والتقاءها على نوع من الماسيانية السياسية، ومحورها صلاح أميركا وعظمة دورها الانقاذي والتحريري في العالم، يؤسس لتحالف قوي. ولا يضعفه التنوع على صعيد المضمون القيمي الذي يعطيه هذا الطرف أو ذاك لرسالة الولايات المتحدة في الداخل والخارج.

ويقود الأخذ والردّ بين وجهتَي النظر هاتين الى التساؤل في أمر الصلة بين السياسة والإيديولوجية. ويبدو للوهلة الأولى، وبعد أحداث الحادي عشر من أيلول – سبتمبر ٢٠٠١ والحرب على العراق، أن الإيديولوجية باتت عند البعض ذات أولية على حسابات السياسة، بخلاف ما كانت الحال في الماضي من حيث طغيان منطق الذرائعية والفاعلية على المنافسات والصراعات. ويكشف خطاب كل طرف من الأطراف الثلاثة عن هذا التغيير.

لكن حسابات السياسة سرعان ما تتغلّب على النوازع الايديولوجية حين يتعلق الأمر بإدارة التحالف بين هذه الأطراف. لكنه يعاد توظيفها، وبطريقة يختصّ بها كل فريق، لمصلحة الأفكار الدينية وشبه الدينية التي يؤمن بها. وتظهر هذه الحركة بين السياسة والايديولوجية وبشكل واضح في الدعم

الذي تقدمه هذه الأطراف لإسرائيل، بحكومتها اليمينية ومستوطنيها المتدينين المتطرفين، والذي تتقاطع عنده علاقات القوى الأميركية الداخلية والدور الذي يريده المنضوون في التحالف لأميركا في الخارج.

في هذا السياق، سوف نخص بالنظرة المتفحصة للتفاصيل فريقاً واحداً من أعضاء هذا التحالف. فنتناول المواقف الداعمة لإسرائيل عند الانجيليين المحافظين، الآتين من مشارب لاهوتية متنوعة، وما تنطوي عليه من تصور للعلاقة بين الدين والسياسة يتعارض مع المواقف المسيحية الأخرى. ونتوقف أيضاً عند العلاقات بين المسيحيين الانجيليين المحافظين واليهود كما تظهر لنا في مرآة المصالح السياسية المتلاقية.

صداقة جديدة

من المعروف في تاريخ الولايات المتحدة الحديث ان المنظمات اليهودية الرئيسية اتخذت مواقف تراوح بين العداء والحذر حيال الجماعات الانجيلية اليمينية. ولم يكن تأييد هذه الجماعات لإسرائيل كافياً بحدّ ذاته لبناء علاقة صداقة مستقرة. إلا أن العداء انحسر وتبدّد الحذر في السنوات الأخيرة.

فعلى سبيل المثال، تغيّر موقف رابطة مكافحة التشهير The Anti-Defamation League، وهي الأبرز بين المنظمات اليهودية الناشطة في الحياة العامة الأميركية والتي أمضت سنوات طويلة في محاربة مبادرات من سمّتهم «المسيحيين الثيوقراطيين». ففي خطوة ذات دلالة رمزية نشرت على نفقتها، وفي أيار ٢٠٠٢، إعلاناً في صحيفة النيويورك تايمز[١] عنوانه: «نحن المؤمنين نقف بثبات الى جانب اسرائيل».

وهذا الاعلان نص وضعه رالف ريد Ralph Reed، الرئيس السابق للتحالف المسيحي Christian Coalition، وهو يفسّر بلغتَي السياسة واللاهوت الانجيلي المحافظ الأسباب العميقة لتأييد اسرائيل الذي تجاهر به الجماعات المسيحية التي ينطق باسمها. وتبدو له هذه الأسباب جليّة في المجال السياسي وهي تتصل أولاً بالعلاقة بين الولايات المتحدة واسرائيل، بوصفها الديموقراطية الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط والشريك

الاستراتيجي للقوة الأعظم. غير أن الأسباب الدينية تبدو أقل وضوحاً مما يتوقعه أي متابع لمواقف الانجيليين المحافظين. فتأييد اسرائيل، بحسب رالف ريد، وهو بالاضافة الى صفته المسيحية رئيس الحزب الجمهوري في ولاية جورجيا وأحد كبار مستشاري معركة الرئيس بوش الانتخابية، ينبع من مجرد الإقرار بالواقع الديني لجهة أن اسرائيل مهد اليهودية والمسيحية. ويضيف ان الرابط الروحي بين الإيمان المسيحي واسرائيل قوي، بقطع النظر عن الأفكار الأخروية المتنوعة والاتجاهات اللاهوتية التي تظهر لدى المذاهب المسيحية المختلفة. ولعلّ الفكرة الأهمّ في نص ريد والتي توحي بديمومة التعاطف مع اسرائيل القول: «إن ما من برهان أقوى على سيادة الله في عالم اليوم مثل بقاء اليهود ووجود دولة اسرائيل».

لا يخفى على أحد أن هوية صاحب هذا النص الدينية والهوية السياسية للمنظمة اليهودية التي نشرته تعززان الاعتقاد بجدية التحالف الجديد القائم بين يهود التيار الرئيسي في الولايات المتحدة واليمين المسيحي، وهو القطاع المنظم والمسيّس من الحركة الانجيلية المحافظة. ولسنا ها هنا أمام مثل وحيد. فالاسبوع نفسه شهد مبادرة غير مسبوقة وهي دعوة المرشح السابق للرئاسة الأميركية غاري باور Gary Bauer، وهو مسيحي يقف على يمين الرئيس بوش، للحديث خلال فطور نظم في السفارة الاسرائيلية. وفي الشهر السابق، تحدثت شخصيات بارزة من التيار الانجيلي المحافظ، ومنها ديك ارمي Dick Armey وجانيت بارشال Janet Parshall، في مهرجان لدعم اسرائيل. بدوره، تحدث توم دولاي Tom Delay، أمام مؤتمر لجنة اسرائيل الأميركية للقضايا العامة American Israel Public Affairs Committee. وخاطب وزير العدل والانجيلي المحافظ، جون أشكروفت John Ashcroft، اجتماعاً لرابطة مكافحة التشهير، رغم أنها أصدرت قبل شهرين بياناً ينتقد بقوة قوله: «في أميركا لا ملك لنا سوى يسوع»[٢].

لسنوات خلت كان نفوذ الانجيليين المحافظين داخل الحزب الجمهوري سبباً رئيسياً لابتعاد أكثرية اليهود عنه. تغيّرت الصورة اليوم. فهناك نفر غير قليل من المراقبين يرجّح أن اليهود سيصوّتون بنسبة أكبر للحزب

الجمهوري، لا رغم قوة الانجيليين المحافظين داخله بل بسبب منها، أي بفعل تحوّلها المتزايد الى قوة ضاغطة لمصلحة اسرائيل. ويتوقع رالف ريد ان يرتفع دعم اليهود لجورج دبليو بوش الى «مستوى تاريخي» عام ٢٠٠٤، أي ما يفوق الـ٣٩٪ من ناخبي هذه الطائفة الذين أيدوا ريغان في معركته الرئاسية الأولى[٣].

ويرجّح التحالف اليهودي الجمهوري The Republican Jewish Coalition استناداً الى استطلاع للرأي أجراه فرانك لونتز Frank Luntz في أيار ٢٠٠٢ ارتفاع نسبة مؤيدي بوش بين اليهود الى ٤٥٪. هذا مع العلم ان نسبة مؤيدي بوش عام ٢٠٠٠ المتدنية جاءت أفضل من التوقعات بقليل. فقد نال ٣٪ أعلى من نسبة أصوات اليهود التي سبق للمرشح الجمهوري بوب دول Bob Dole ان نالها في الانتخابات السابقة، رغم انه نافس مرشحاً اختار لأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة شخصية يهودية كنائب له. ويرى ابراهام فوكسمان Abraham Foxman، مدير رابطة مكافحة التشهير، ان «هذا الحدث التاريخي»، أي اختيار مرشح يهودي لنيابة الرئاسة على لائحة الحزب الديموقراطي، لم يضعف نسبة المؤيدين لبوش قدر ما كان متوقعاً. وأضاف انه تبيّن في حقيقة الأمر أن اليهود ليسوا بعد اليوم ديموقراطيين بلا تردد[٤].

فبعد ثلاثين عاماً أو أكثر من التصويت شبه التلقائي للحزب الديموقراطي، مال عدد متزايد من اليهود منذ أواخر الستينات الى التصويت لغير مصلحة الليبراليين، ما خلا الانتخابات التي عوقب خلالها جورج بوش الأب بسبب من سياسته حيال اسرائيل. فاليوم، عوض أن يختار ثلاثة من أربعة يهود الحزب الديموقراطي صاروا اثنين من ثلاثة.

ليس هذا التطور بعيداً عن ظهور حركة المحافظين الجدد، التي قادها مثقفون يهود من أمثال ايرفنغ كريستول Irving Kristol ونورمان بودوريتز Norman Podhoretz، ومعهم سياسيون مؤثرون في ادارة الرئيس بوش الابن مثل بول ولفوويتز Paul Wolfowitz وريتشارد بيرل Richard Perle. ولا هو بعيد عن تحوّل الانجيليين المحافظين، المجاهرين بحماستهم لاسرائيل،

من قطب ينفِّر اليهود من الحزب الجمهوري الى جاذب لهم . فهم يلتقون مع المحافظين الجدد، لا على صعيد المحتوى المعطى للهوية الأميركية، بل في تسمية حلفاء الولايات المتحدة وأعدائها في الخارج وتصويرهم. ويرى غاري باور ان الموقف من اسرائيل بالغ الأهمية لأنه يرسم الحدود لصدام الحضارات المحتمل.

ويعزو بعض اليهود التغيير في موقف أبناء طائفتهم من الانجيليين المحافظين الى شعورهم بانهم محاصرون معنوياً أكثر من الماضي، حتى وإن كانت المشاعر غير مطابقة للواقع، وانهم بحاجة الى كل يد صديقة تمتد اليهم. إلا ان أبرز المطّلعين مثل فوكسمان يرون خلاف ذلك. فهم يتوقفون عند تطور العداء للسامية الذي نما في الماضي بشكل ظاهر داخل أوساط اليمين، رغم انه لم يكن غائباً عن سواها، والذي بات خطره اليوم يأتي من صوب اليساريين والليبراليين الذين اختاروا جانب القضية الفلسطينية في سياق دعوتهم لإحقاق العدالة في العالم.

وعلى غرار فوكسمان الليبرالي يرى بودوريتز المحافظ ان اليهود الأميركيين خائفون لأسباب جدية من اتساع موجة العداء لاسرائيل ومشاعر كره اليهود في غير مكان من العالم والتي يتحمل اليسار قدراً كبيراً من المسؤولية عنها. ولذلك فانهم أقل عناداً من الماضي من حيث تمسكهم بالليبرالية وأكثر استعداداً للانفتاح على المحافظين بمختلف أطيافهم(٥).

حذر لم يتبدد

رغم كل ذلك، لم يتبدد كامل الحذر لدى اليهود حيال الانجيليين المحافظين، فهم يرحبون بدعمهم لاسرائيل لكنهم لا يشاطرونهم الرأي نفسه لا في مسائل الأخلاق الاجتماعية، ومنها ما يتعلق بالإجهاض وحقوق مثليي الجنس، ولا في قضية العلاقات بين الدولة والدين. لكن السؤال حول ترتيب القضايا غالباً ما يؤول الى التأكيد ان دعم اسرائيل من حيث الأهمية يفوق سائر الشؤون التي تشغل التيار الرئيسي بين اليهود الأميركيين .

لهذا السبب نسجت جماعة الضغط اليهودية الرئيسية، أي لجنة اسرائيل

الأميركية للقضايا العامة AIPAC ، علاقة وثيقة مع اليمين الصاعد منذ منتصف الثمانينات. وأدركت ان دعم اليمين، الإنجيلي المحافظ أو المحافظ الجديد، يختلف جذرياً عن الدعم التقليدي الذي قدمته الإدارات الأميركية المتعاقبة للدولة الصهيونية والذي استند تاريخياً الى سياسة أميركا الخارجية ومحورها العداء للاتحاد السوفياتي. فاليمين الأميركي الحالي لا يبدي أي اهتمام لسجل اسرائيل في مجال حقوق الانسان الذي يثير القلق في أوساط الليبراليين. أما القطاع المسيحي من هذا اليمين، فان نظرته الى العالم من منظور معسكرَي الخير والشر لم تتغيّر بسقوط الاتحاد السوفياتي.

ويرى روبرت كالتنر Robert Kultner، الكاتب في مجلة نيو ريبابليك New Republic المحافظة، ان الفائدة كانت متبادلة بين اليمين وجماعات الضغط من أجل اسرائيل. فاليهود الناشطون لمصلحة الدولة العبرية لم يترددوا في توفير الدعم المالي الى مرشحين، لمجلس النواب أو الشيوخ، هم على يمين موقف الغالبية بين أبناء طائفتهم من مختلف القضايا السياسية والاجتماعية وعلى الصعيدين الوطني والمحلي. في المقابل لعب السياسيون اليمينيون، وفي مقدمهم المسيحيون الانجيليون منهم والمحافظون الجدد، اللعبة نفسها، وأدركوا ان رفع تأييدهم لاسرائيل الى أعلى سلّم شعاراتهم الانتخابية يعزّز فرصة نيلهم دعماً أقوى من اليهود، دون ان يضطروا الى أي تغيير في مواقفهم الأخرى طمعاً باستمالتهم.

لم تؤد التغييرات الحقيقية في العلاقات السياسية والانتخابية، التي تناولنا بعض مظاهرها، الى إقناع مجموع اليهود والليبراليين بجدوى التحالف مع الانجيليين المحافظين، وسواهم من اليمينيين، وديمومته. ولم يخف عدد منهم استغرابه الشديد لاستعجال حكومات اسرائيل اليمينية وجماعات الضغط العاملة لحسابها في تجاهل الخلافات العميقة بين طرفي التحالف الناشئ. وتذهب بعض الشخصيات البارزة، كروبرت زيمرمان Robert Zimmerman رئيس المؤتمر اليهودي الأميركي The American Jewish Congress، الى التذكير بان صعود الحركات الأصولية المسيحية يهدِّد الحريات التي أعطت لليهود أماناً في الولايات المتحدة لا مثيل له في بلدان أخرى.

ولا يذهب الليبراليون اليهود، رغم التزامهم القوي بدعم اسرائيل، الى حد تغليب حسابات المدى القصير، الانتخابية والسياسية، على التي تتحكم بالمدى الطويل أي القناعات الإيديولوجية والدينية. فتأكيد الانجيليين المحافظين على هوية أميركا المسيحية، وسعيهم الى مراجعة جذرية للفكرة العلمانية الأميركية، لا يغيبان عن أعينهم. كما انهم لا يثقون بما يحسبونه تعليقاً موقتاً للتبشير المسيحي بين اليهود. ويعتقدون ان الدوافع المتصلة بتفسير النبوءات الكتابية راسخة في الأذهان والمشاعر أكثر مما يُظنّ ويُخشى من ان تُحدث في أي وقت، وان لم يكن بالضرورة قريباً، تغييراً بل انقلاباً في المواقف من اسرائيل.

قراءات كتابية ورؤى انقضائية

يثير تعلّق فئة واسعة من الانجيليين المحافظين باسرائيل قدراً من الاستغراب عند الكثيرين داخل أميركا نفسها. وتثير العلاقة التي تطورت بسرعة في العقدين الأخيرين اسئلة كثيرة لا يجيب عليها القول ان محبة اسرائيل قد تربّى عليها الانجيليون في صفوف مدارس الأحد، حيث تعرّفوا على خريطة الأراضي المقدسة وسمعوا القصص الكتابي أحداً بعد أحد. ولا تفسِّر الالفة مع العهد القديم وحدها التعلق بإسرائيل. ولا يغني عن البحث في التفاصيل اللاهوتية التأكيد على أن معاشرة الأميركيين البروتستانت للكتاب المقدس، واستعارة صور منه عند الحديث عن تاريخ أميركا وخصوصيتها ورسالتها بين الأمم، تجعل من الأراضي المقدسة نوعاً من الوطن الروحي بعيداً من الوطن، وتعزّز عند الأميركيين المتدينين الشعور بأنهم أصحاب مصلحة في تلك الأرض وكأنهم من المالكين الرمزيين لها(٦).

إن أول التصورات اللاهوتية التي تثير عند فئات مؤثرة من الانجيليين المحافظين اهتماماً، الى حدّ الهوس أحياناً، بحاضر إسرائيل ومستقبلها، تتصل باعتبارها الأرض المقدسة مسرحاً لأحداث تمهّد لمجيء المسيح الثاني.

فهناك عدد لا يستهان به من الانجيليين المحافظين يقرأ الكتاب المقدس وكأنه مجموعة نبوءات متقاطعة مركزها هذه الأرض، التي لا يسمّيها باسمها التاريخي، أي فلسطين، بل إسرائيل. وهم يؤمنون بأن التاريخ البشري يتبع مخططاً إلهياً، وان لإسرائيل دور محوري فيه. وهذا ما يستدعي حباً لليهود حيناً ورفضاً لليهودية حيناً آخر.

لقد ترعرع العداء للسامية وحب اليهود معاً في كنف القراءة الحرفية للكتاب المقدس منذ القرن السادس عشر، حيث وضعت حركة الإصلاح العصمة في الكتاب المقدس بعهديه. وعوض ان يفسر المسيحيون النبوءات كما فعل آباؤهم، إذ شددوا على انها تحققت في المسيح، مالت قراءة بعضهم الحرفية الى التعامل مع العهد القديم بوصفه كتاب تاريخ وفي الوقت نفسه حامل رؤية لنهاية الأزمنة. وهذا ما عزّز الاعتقاد لديهم ان ما من شيء حصل في فلسطين غير الذي جاء ذكره في الكتاب المقدس.

وكانت هذه المقاربة للعهد القديم في أصل دعوة، هي الأولى من نوعها، الى البعث اليهودي في الأراضي المقدسة. وكان أطلقها اللاهوتيان الإنكليزيان توماس برايتمان Thomas Brightman وتلميذه هنري فينش Henry Finch الذي كتب عام ١٦٢١ ان لا بد لليهود من أن يعودوا الى بلادهم ويعيشوا فيها الى آخر الأزمنة بعد ان يسودوا على أعدائهم «الأتراك» كما يسميهم والذين يشير اليهم الكتاب المقدس بذكره جوج وماجوج(٧).

وفي القرن السابع عشر قامت في انكلترا حركة طهرانية تماهت مع اليهود واستخدمت العبرية في الصلوات وشدّدت على ان العهد القديم هو النموذج المثالي للحاكمية الالهية في تاريخ أمة من الأمم. وتميّزت هذه الحركة، التي دعاها المؤرخ سيسل روث Cecil Roth «حب السامية»، بتأثرها بالمثالية العبرية وبشعور الإثم تجاه آلام اليهود في الماضي والحاضر وبالرجاء ان تتحقق النبوءات لجهة «العودة» الى فلسطين(٨).

لكن هذه الحركة ما لبثت أن تقهقرت بعد موت كرومويل Cromwell وارتقاء آل ستيوارت Stewart عرش انكلترا ثم اندلاع ثورة ١٦٨٨. بيد ان فكرة البعث اليهودي من حيث هو تمهيد لمجيء المسيح الثاني شقّت طريقها

واستقرّت في فكر فئة من المسيحيين، لا في انكلترا فحسب بل في عدد من بلدان أوروبا. وتبنّى بعض الفلاسفة هذه الفكرة فكتب جون لوك «ان الله قادر على ضمّ اليهود في جسم واحد وتأمين ازدهارهم على أرضهم»[٩]. ومما يدعو للاستغراب أن بعض فلاسفة عصر تميّز بالتشديد على مركزية العقل، ومنهم نيوتن، قَبِل الرواية اليهودية الأخروية مسوّغاً عودة اليهود الى فلسطين.

وارتبطت فكرة البعث اليهودي الممهد لمجيء المسيح الثاني بالنظرة الى المستقبل المسماة «ألفية»، وهي القائلة بان العالم كما نعرفه أشرف على النهاية وان ألفاً من السنين سيبدأ من بعدها تسود فيه العدالة والسلام والأخوّة والوفرة. وراجت النظرة الألفية بعد الثورتين الأميركية والفرنسية. فالاقتلاع العنيف للمؤسسات السياسية والاجتماعية القديمة دفع البعض الى الاعتقاد ان النهاية باتت قريبة[١٠]. وفسّر المؤرخ فروم Froom ان استنطاق الكتاب المقدس أتى بعد الاضطرابات خلال الثورة الأميركية وبعد الآثار المدمرة الناجمة عن جهود الثوار والفلاسفة الفرنسيين. وتوقف عدد من المتدينين عند نبوءات دانيال، في سعيهم الى تفسير مقنع لانحسار التدين وبحثهم عن سبيل الهي للخروج من هذا الوضع[١١].

نبوءات يفسرها الحقباتيون

وعرفت مجموعة من الأفكار المسيحية المتصهينة، قبل الصهيونية اليهودية، بعض الرواج في إنكلترا في مطلع القرن التاسع عشر حيث قامت حركة أحيانية تتشارك مع سابقتها الطهرانية في خصائص متعددة. وتأسست في لندن عام ١٨٠٧ جمعية لنشر المسيحية بين اليهود The London Society for the Promotion of Christianity Among the Jews. وعمل القس لويس واي Louis Way، الذي أصبح عام ١٨٠٩ مديراً للجمعية، على ترويج فكرة عودة اليهود الى فلسطين تحقيقاً للنبوءات وإبراز معنى الأحداث التي تشير الى ان مجيء المسيح صار قريباً. وبعدما تخصصت الجمعية المذكورة بتثقيف المهتدين من اليهودية الى المسيحية، وهم قلة، تحوّلت الى دعم نوع

من الصهيونية التي تعارض اندماج اليهود في المجتمع الانكليزي، على ما جاء عند اللورد شافستبري Shaftesbury الذي يرى اليهود غرباء في كل مكان ما خلا فلسطين.

ولم يكن اليهود الأوروبيون شديدي الحماسة للذهاب الى فلسطين. كان همّهم الأول الحصول على الحقوق السياسية والمدنية في بلدانهم، الى ان تغيّر الأمر عند نشوء الحركة الصهيونية في عام ١٨٩٤ مستفيدة من المناخ الذي هيّأه لها بعض المسيحيين.

وفي الولايات المتحدة لعبت القراءة الحرفية للكتاب المقدس والأفكار الطهرانية دوراً مشابهاً لما شهدته أوروبا. وانتشرت الفكرة الألفية في منتصف القرن التاسع عشر على يد المبشر البريطاني جون داربي John Darby الذي قسّم التاريخ الى حقبات تحددها كيفيات التدخل الالهي وهذا ما دعي Dispensationalism أو الحقباتية. وأعطي سفر الرؤيا في العهد الجديد أهمية لم يعرفها من ذي قبل. كما بشّر بقرب تحقيق النبوءات لجهة عودة اليهود، الى فلسطين والمجيء الثاني الذي يليها.

ورأى داربي وتلامذته منذ منتصف القرن التاسع عشر ان النبوءات الكتابية الخاصة بجماعة من الناس لا تنطبق على جماعة أخرى مما يعني تفصيل كلمة الحق على وجه مستقيم (٢ تيموتاوس٢ : ١٥) بينهما. واعتبر ان التعامل الالهي مع اسرائيل بمثابة مفتاح للنظام الحقباتي. ففي سفر دانيال ٩ : ٧، يكشف الله عن خطته الالهية. فسبب من الخطيئة سوف تخضع الأمم اسرائيل أربع مرات حتى تنقضي حقبة الأمم. وبحسب الاشارة الالهية يصدر أحد حكام الأمم أمر بناء أسوار أورشليم. وبعد ذلك بتسعة وستين أسبوعاً يأتي ماسيا الى المدينة المقدسة لكن شعبه لا يعترف به. وفي الأسبوع السبعين، سوف يحاول الحاكم «الاممي» ان يقضي على اليهود، لكن ماسيا يعود ويهزمه ويعيد ملك داوود.

ويؤمن الحقباتيون ان معظم نبوءة دانيال قد تحققت في تاريخ اسرائيل ومجيء المسيح الأول، لكنهم يواجهون مشكلة كبيرة: لماذا لم يعد المسيح ليكمل عمله في نهاية الأسبوع السبعين كما تنبأ دانيال؟ للجواب على السؤال

جرت الاستعانة بفكرة التأجيل. فلما رفض اليهود المسيح، أجّل الله بشكل غير متوقع عودته وأقام شعباً آخر هو شعب الكنيسة.

أما السؤال الثاني الذي لا مفر من الإجابة عليه فهو متى وكيف يستأنف الله «العد العكسي» لتحقيق كامل نبوءات دانيال. ويجيب الحقباتيون ان الله، بسبب تعامله مع كل شعب في زمن خاص به، سوف يخرج الكنيسة من الأرض حتى يصرف اهتمامه الى اليهود. ويخطف الله المؤمنين بالمسيح في الغمام (اتسالونيكي ٤ : ١٣-١٧) ويبدأ عندئذ اسبوع دانيال السبعون أي زمن الحروب وقيام أمة على أمة والتي لابد من حدوثها بحسب انجيل متى (٢٤ : ٢-٨).

لم تلق الأفكار الحقباتية التي كرّرها داربي خلال زياراته للولايات المتحدة في السبعينات من القرن التاسع عشر، تجاوباً كبيراً. فالإنجيليون كانوا إذذاك أقرب الى ما بعد الألفية، أي مؤمنين بان المسيح سيجيء ثانية بعد ان يتم تبشير العالم كله بالمسيحية، أو غير مؤمنين البتة بالفكرة الألفية.

ففي عصر التفاؤل، بدت عقيدة الحقباتيين لمعظم الإنجيليين بالغة التشاؤم، وهذا ما دعا بعضهم الى وصمها بالهرطقة. غير ان الحقباتيين استطاعوا بعد سنوات من التبشير برؤيتهم الانقضائية، ان يحظوا في العشرينات من القرن العشرين بنوع من الصدقية في الأوساط الانجيلية وبقابلية للاستماع لديها. وبقي لهم قسط وافر من كل ذلك حتى يومنا هذا، رغم تزايد أعداد الانجيليين الذين يقرأون أدبيات الحقباتيين تحت علامة النبوءات التي لم تتحقق[١٢].

هناك ثلاث مراحل رئيسية يتوقف الحقباتيون اليوم عندها، بأقدار متفاوتة من التفسير التفصيلي للنبوءات. تبدأ الأولى عند انتهاء «زمن الأمم» واجتماع اليهود في الأرض المقدسة. وعندها تشهد البشرية انحطاطاً أخلاقياً وارتفاعاً في الجرائم وفوضى كبيرة. وتمتد الثانية من اختطاف الكنيسة وظهور المسيح الدجال الى الحرب بين قواته و«ملوك الشرك» في هرمجدون شمال غرب القدس. وتسبق هذه المجابهة الأخيرة، بحسب تفسير لرؤيا القديس يوحنا يميل اليه الألفيون من الحقباتيين، إعادة تأسيس مملكة داوود وبناء الهيكل

من جديد. أما الثالثة فمطلعها احتدام الحرب المذكورة وعودة المسيح وانتصاره على الدجال واعتراف اليهود به، أو بالأحرى من بقي منهم، أي الثلث الثالث الذي ينقذه الله فيما يسقط الثلثان الأولان في الحرب. عندها يحكم يسوع العالم لألف من السنين ويحقق الله كامل وعوده.

غني عن القول اذاً ان لقيام اسرائيل على أرض فلسطين دوراً مهماً في هذه الخطة النبوية، بحسب الحقباتيين. لذلك كانوا في الماضي أكثر حماسة لهجرة اليهود الى فلسطين من اليهود أنفسهم وكان وليام بلاكستون William Blackstone الحقباتي الأميركي من أول الداعين لانشاء دولة يهودية، وفي عام ١٨٨٠ زار المستوطنات اليهودية في فلسطين وعاد الى شيكاغو متحمساً للمساعدة في تعزيز الاستيطان. ونظّم عام ١٨٩٠ أول مؤتمر للمسيحيين واليهود لهذا الغرض. ورغم انه لم يتخلَّ عن كل الجهود الرامية لهداية اليهود الى المسيحية، أصبح صديقاً حميماً لزعماء الصهيونية. لكن موقفه من اليهود ومواقف الذين سلكوا في طريقه ظل مزدوجاً فهم شعب الله المختار وورثة الوعود الالهية. لكنهم خاضعون اليوم لسلطان ابليس وهم يساهمون في انحطاط العالم. لذلك فان مجد اسرائيل ينتمي الى المستقبل لا الى الحاضر. وهذا ما يفسِّر ردة الفعل عند الحقباتيين لدى سماعهم أخبار حرب الإبادة التي استهدفت اليهود في المانيا النازية. فهم استفظعوا ما حدث، لكن الأحداث أيقظت فيهم الأمل باستعجال التاريخ. وفيما دانوا اضطهاد اليهود، رأوا في ذلك أمراً لا بد منه وان النازيين هم كالبابليين قديماً أدوات يستخدمها الله ليعزز رغبة اليهود في الهجرة الى فلسطين. فالمخطط الالهي كما يقرأونه يأتي بمن بقي من اليهود الى فلسطين.

ورأى عدد كبير من الانجيليين المحافظين، حقباتيين كانوا أم متأثرين بهم، ان قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ بداية النهاية، وتطلعوا الى اليوم الذي تستولي فيه اسرائيل على أرض الكتاب المقدس كلها. ولهذا السبب اعترضوا عام ١٩٥٦، وان بصوت خافت، على موقف الولايات المتحدة من العدوان الثلاثي على مصر، وسرّوا بنتائج حرب ١٩٦٧، وان من دون ضجّة كبيرة، لأن خريطة اسرائيل الجديدة بدت أقرب لتلك التي يرسمها الكتاب المقدس،

ولان القدس، ولأول مرة منذ عام ٧٢، وقعت بكاملها تحت السيطرة اليهودية مما يجدد في نظرهم الثقة بصحة الكتاب المقدس ويفسر قول الانجيلي لوقا: (٢١ : ٢٤): «وتدوس أورشليم أقدام الوثنيين الى أن ينقضي عهدهم»[١٣].

النبوءات في حسابات السياسة

وفي دراسة له حول الإيمان بالنبوءات في الثقافة الأميركية المعاصرة يرى المؤرخ بول بوير Paul Boyer ان عدد الذين يعرفون النبوءات الكتابية ويفسرونها ويظهرون وكأنهم قادرون على استشراف المستقبل قلة. غير ان الملايين من الأميركيين غير المطّلعين مازالوا يؤمنون بأن الكتاب المقدس غني بالإشارات الى مستقبل العالم. حتى ان فئة من غير المتدينين، الذين يجهلون الكتاب المقدس أو يتجاهلونه، تبدي اهتماماً بما يقوله في أزمنة الشدّة مفسّرو الكتاب المقدس ونبوءاته المتعلقة بنهاية الأزمنة. ويستنتج من كل ذلك ان وجهة نظر الحقباتيين المتعلقة باسرائيل تؤثر في الرأي العام بما يتعدى حدود المؤمنين بعقيدتهم[١٤]. لكن هذا التأثير لم يكن ولا مرة ثابتاً بل يتفاوت من سنة الى أخرى. وهو يتراجع عندما ينحسر ضغط الظروف السياسية والاقتصادية، فيضعف بدوره الشعور بان نهاية الأزمنة وشيكة كما يوحي الحقباتيون في عزّ حماستهم.

لكن الحقباتيين ليسو أكثرية بين الانجيليين المحافظين. انهم أقلية يترجّع صدى كلامها عند فئة أوسع ترى ان الكتاب المقدس غني بالإشارات الى مستقبل العالم، وهي إشارات تنتظر مَن يفسرها وتحتمل، بالطبع، تفسيرات شتى تبدو الحرفية منها أكثر غرابة، ولكنها بمعنى ما أكثر وضوحاً للعقل الديني الخاضع للنص خضوعاً أعمى.

إلا أن الأمور أخذت حجماً مختلفاً في مطلع السبعينات حين أدرك الاسرائيليون الوزن السياسي والمعنوي للانجيليين المحافظين. ويرى بول بوير Paul Boyer ان ذلك يرتبط بالتغيير التدريجي في مواقف الكنائس الليبرالية التي تفاعلت مع سياسة مسكونية جديدة، تشكلت في مجلس

الكنائس العالمي ومجلس الكنائس الوطني في الولايات المتحدة، مؤيدة للحق الفلسطيني في تقرير المصير. لعب الاسرائيليون ورقة الإنجيليين المحافظين بينما كانوا في حقيقة الأمر يسخرون من القراءة الحقباتية للنبوءات.

من جهتهم، رأى عدد من كبير من الإنجيليين المحافظين أن دعم إسرائيل بات أكثر الحاحاً، لانها تتعرض لمطالبة دولية بالانسحاب من الأراضي المحتلة مما يؤخر في حال حصوله، أو يعرقل، تحقيق النبوءات.

وبدأ الغزل الموصول في عام ١٩٧١ عندما نظّم كارل هنري Carl Henry رئيس التحرير السابق لمجلة «المسيحية اليوم» Christianity Today، مؤتمراً في القدس حول مسألة النبوءة. وحضر المؤتمر ألف وخمس مائة مندوب من اثنين وثلاثين بلداً في ظل ضيافة اسرائيلية لا سابق لها. ومنذ ذلك المؤتمر، درج عدد من الرسميين الاسرائيليين على استقبال الشخصيات الانجيلية المحافظة لدى زيارتها الأراضي المقدسة وأقاموا صلات وثيقة معها. ويسّرت وزارة السياحة جولات للقسيسين ووفود من المؤمنين ترافقهم.

وكان عام ١٩٧٠ شهد صدور كتاب هال لندسي Hal Lindsay «الأرض هذا الكوكب الكبير الراحل»[١٥]. وتكمن أهمية الكتاب، وشعبيته التي وصلت مبيعاته الى ثلاثين مليون نسخة، في انه قدّم الفكرة الحقباتية، على نحو يفسّر علاقتها بالأحداث السياسية الراهنة، الى أوسع جمهور ممكن. فامبراطورية المسيح الدجال هي ما كان يدعى إذذاك السوق الأوروبية المشتركة والتحالف الشمالي هو الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية، والتحالف الجنوبي هو عربي - افريقي بزعامة مصر. اما ملك الشرق فهم الشيوعيون الصينيون. وقال لندسي انه قبل ظهور الدجال وتسارع أحداث نهاية الأزمنة سوف يتراجع نفوذ الولايات المتحدة بسبب المادية التي تنخرها والانحطاط الأخلاقي والمخدرات والأديان الباطلة.

غير انه بعد عشر سنوات نظر لندسي الى العالم بطريقة أخرى. ففي كتابه «العدّ العكسي نحو هرمجدون»[١٦]، نجد خطة سياسية تبدأ من الهجوم على الذين تسببوا بانحطاط أميركا وأضعفوا المؤسسة العسكرية وقوّضوا النظام

الاقتصادي الحر . وتنتهي هذه الخطة بالدعوة الى تنظيف واشنطن واختيار رئيس وكونغرس من نوع آخر . وتزامن رواج الكتاب مع دخول الانجيليين المحافظين الصاخب معترك السياسة الانتخابية وتأليفهم منظمات لعبت دوراً كبيراً في وصول رونالد ريغان إلى الرئاسة عام ١٩٨٠ . وللمرة الأولى في تاريخهم، بات الحقباتيون فريقاً داخل اللعبة السياسية .

ولم يعد سراً على أحد من قرّاء كتاب لندسي أو تيم لاهاي[١٧] Tim Lahaye أن بين الإيمان بتحقيق النبوءات والكتابية ودعم اسرائيل مسافة قصيرة يسهل عبورها . وتألفت هيئات انجيلية محافظة تخصّصت بدعم اسرائيل . ومنذ أيام مناحيم بيغن، لم يتردد أي رئيس وزراء اسرائيلي من الاتصال بقادة ما سُمي «اليمين المسيحي» . وتميّز بنيامين نتنياهو بنجاحه عام ١٩٩٨ في حشد التأييد الواسع لسياسته في صفوف الانجيليين المحافظين ونال منهم وعداً بان يقوم مائتا ألف قسيس أميركي يسيرون في ركبهم بحملة واسعة للحؤول دون ممارسة الرئيس كلينتون أي ضغط على اسرائيل .

لسنا في وارد تعداد الأمثلة عن ألوان الدعم الإنجيلي المحافظ لإسرائيل فهي كثيرة . ولعل ما يستحق الذكر هو ان العشرين سنة الماضية شهدت تأسيس عدد من المنظمات الصغيرة المحلية التي تعنى بالتأثير على المؤمنين العاديين الانجيليين المحافظين وتعبئة قواهم من أجل تقديم العون الى اسرائيل . ولبعض هذه المنظمات تخصص . فهناك من يهمّهم تذكير المسيحيين على نحو مستمر بالجذور اليهودية لإيمانهم . ومن بينهم من يقولون بعودة المسيحيين الى القرن المسيحي الأول[١٨] حيث الحدود الفاصلة بين المسيحية واليهودية لم تكن مرسومة بشكل كامل الوضوح . وهناك هيئات تضع برامج لتدريس تاريخ «الشرق الأوسط»[١٩] . وهناك أيضاً من يبشرون بيهودية ماسيانية بوصفها أنقى أشكال المسيحية فيدعون المؤمنين الى الصلاة يوم السبت والتزام روزنامة الأعياد اليهودية ودراسة العبرية واحترام مبادىء الطعام الحلال عند اليهود (كوشير)[٢٠] . وتصبّ بعض المجموعات جهدها في المجال الانساني إلى جانب التربوي والإعلامي وأكثرها يرغب في مساعدة سكان المستعمرات اليهودية في الضفة الغربية وغزّة[٢١] .

وحين اجتاحت اسرائيل لبنان عام ١٩٨٢ لم تجد من يدافع عنها بالقوة التي ظهر فيها موقف الانجيليين المحافظين. وبعد اتفاقات اوسلو، الإسرائيلية - الفلسطينية عام ١٩٩٣، لم يجد زعماء اليمين الاسرائيلي حليفاً في الولايات المتحدة مثل الانجيليين المحافظين.

ولا ينطبق ذلك على اليمين السياسي الاسرئيلي فحسب، بل على التيارات اليهودية المتطرفة أيضاً. فعلى سبيل المثال، يحظى المتدينون الاسرائيليون الذين لا يقبلون أية مساومة بشأن القدس بتأييد في أوساط الانجيليين المحافظين المتشددة. فالذين يرغبون في الاستيلاء على الحرم الشريف يعتمدون على دعم نشط من جماعات مسيحية ترسل حجاجاً بأعداد كبيرة لمؤازرتهم. ويشمل الدعم المذكور تصرفات تثير استغراباً لدى العديد من الانجيليين المحافظين أنفسهم. فهناك مزارعون أميركيون يعملون على استيلاد عجلة حمراء يشير ظهورها الى جواز البدء في بناء هيكل سليمان، فتحرق ويستخدم رمادها في التطهر بالغسل الواجب على كل مساهم في العملية المذكورة[٢٢].

وبعد وصول نتنياهو الى السلطة في اسرائيل، فقدت حكومة اسرائيل قدراً ملحوظاً من تأييد الرئيس الأميركي وجزءاً لا يستهان به من تأييد اليهود الأميركيين. ولذا كان نتنياهو على حق عندما قال ان الانجيليين المحافظين هم خيرة أصدقاء اسرائيل.

لم تكن صداقة الانجيليين المحافظين لاسرائيل بلا ثمن على الصعيد الديني. فدعم اسرائيل غالباً ما كان يقتضي ان يكون الانجيليون المحافظون أقل اهتماماً بتبشير اليهود مما يرغبون. وأدركوا أن التعاون الذي سعوا اليه مع الاسرائيليين يتعثّر اذا ما عملوا على تبشير اليهود بالمسيحية. ولم يعنِ ذلك انهم تراجعوا عن ايمانهم بحاجة اليهود الى الخلاص، بل ان التبشير لَم يعد في مقدم اولويات العلاقة المسيحية - اليهودية التي يحرصون عليها. وازدادوا خبرة على هذا الصعيد حين انخرطوا في عالم السياسة أواخر السبعينات. فالأكثرية الأخلاقية، وهي تنظيم انجيلي محافظ ومسيّس، رحّبت بالتعاون السياسي مع اليهود مؤكدة ان منظمتها حركة سياسية مفتوحة

لا دينية مغلقة. وفرض الكثير منهم، ولاعتبارات سياسية، قيوداً على نشاطهم الديني ذي الطابع التبشيري.

غير ان الإقلاع عن العادات القديمة ليس أمراً يسيراً، إذ يجد الانجيليون المحافظون صعوبة كبيرة في وضع التبشير بالانجيل جانباً باسم صداقتهم مع اليهود ودعمهم لاسرائيل. اما اليهود فيجدون أنفسهم مضطرين لتجاهل ما يؤمن به الانجيليون المحافظون لجهة النبوءات الكتابية وضرورة ان يأتي اليهود كلهم الى يسوع المسيح. في المقابل، يقف بعض اليهود مرتبكاً ولا يطمئن بشكل كاف، كجيمس رودين James Rudin مدير العلاقات بين الأديان في اللجنة اليهودية الأميركية، الى موقف يغضّ النظر عن القناعات الدينية لأصدقاء اسرائيل. لكن الفئة الأكبر من اليهود المسيّسين ليست مهجوسة بأحداث آخر الأزمنة. ولهذا فانها لم تتردد في إقامة شبكة من المنظمات اليهودية – الانجيلية المحافظة متجانسة في موقفها السياسي، أياً كان من تنوّع الأفكار الدينية لدى المنتمين اليها.

من تفسير النبوءات الى الأخلاق

تثير العلاقة بين الانجيليين المحافظين واسرائيل أسئلة لاهوتية لم تبحث بالجدية التي تستحقها. فقراءة الحقباتيين للنصوص الكتابية ليست معتمدة إلا في صفوف أقلية من الأسرة الإنجيلية المحافظة. غير ان الإيمان بصدقية الكتاب المقدس وتحقيق نبوءاته يحظى بتجاوب أوسع بكثير. وهذا الإيمان يرسم صورة ثابتة للمستقبل ويصبح انقضاء الزمن أشبه بالقدر المحتوم مما يفقد الحرية الإنسانية والفعل الإنساني في التاريخ الجزء الأكبر من معناها. لهذا يتساءل البعض حول جدوى العمل الدؤوب من أجل التوفيق بين ثقتهم والتزامهم السياسي[٢٣]. غير ان الأكثرية تتحاشى الأسئلة الموجعة هذه بتكرار ما جاء في سفر التكوين (١٢ : ٣٢): «وأنا أجعلك أمة كبيرة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة. وأبارك مباركيك وألعن لاعنيك وتبارك بك جميع عشائر الأرض». وهي في احتكارها الإرث الابراهيمي على هذا النحو وتفسيره حرفياً وبشكل مباشر، تحسب انها استغنت عن السياسة ومنطقها وأخلاقها.

ويرى القس دونالد فاغنر Donald Wagner، مدير منظمة «انجيليون من أجل تفهّم الشرق الأوسط» Evangelicals for Middle East Understanding، ان صعود التأييد الانجيلي المحافظ لاسرائيل المتسارع في منتصف السبعينات، يتزامن مع صعود اليمين الديني في اسرائيل ورواج اللغة الكتابية التي تطلق تسمية «يهوذا والسامرة»(٢٤) على الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧. ويرى أن قول المستعمرين ان الله اعطاهم أرض فلسطين ترجّع في اعتقاد الانجيليين المحافظين في أميركا بأن النبوءات تتحقق. وبقدر ما ازدادت اللغة الدينية تأثيراً في اسرائيل، استولت الحماسة الدينية على الانجيليين المحافظين وزادت من تجاهلهم لسؤالَي العدالة والحقوق، وقلّ اكتراثهم بما يمثّله المسيحيون في الأراضي المقدسة وما يتهدّد مستقبلهم. لقد فهم الليكود ذلك جيداً لما تقرّب من اليمين المسيحي بعدما تغيّر بعض الشيء موقف الرئيس كارتر، الإنجيلي المحافظ، لمصلحة الاعتراف بحقوق الفلسطينيين الإنسانية وحقهم في وطن لهم.

واعتمد حكام اسرائيل سياسة إبعاد قاعدة كارتر الانجيلية عن سياسته وسعوا الى تعبئة المسيحيين المتطرفين ضد المقترحات الخاصة بمؤتمر للسلام في الشرق الأوسط. وخلال أسابيع معدودة ارتفعت نبرة الانجيليين المحافظين وصدر اعلان في معظم الصحف الأميركية الرئيسية يقول: «آن الأوان لان يؤكد المسيحيون الانجيليون ايمانهم بالنبوءات الكتابية وحق اسرائيل الالهي في الأرض... وانهم ينظرون بقلق شديد الى أية محاولة لاقتطاع وطن أو كيان سياسي من الوطن اليهودي»(٢٥). وازدادت أعداد المتراجعين عن تأييد كارتر حتى هزيمته أمام ريغان والتي لعبوا فيها دوراً لا يُستهان به.

غير أن عدداً متزايداً من الانجيليين المحافظين لم يعد يقبل بسهولة اختزال مشكلات الصراع على فلسطين في تفسير النبوءات وهو لا يجد اليوم مناصاً من النظر في القضايا الأخلاقية التي تثيرها. فقراءة النبوءات لا تعفي من النظر في مسألة العدالة. وتشكلت، منذ أواسط السبعينات، مجموعات صغيرة من الانجيليين المحافظين للتعرف إلى «الأراضي المقدسة» بالاستقلال عن

برامج وزارة السياحة الاسرائيلية. واهتزت قناعات الكثيرين من أعضائها الذين نظروا إلى هذه الأراضي لا بصورة الخريطة التي يرسمها العهد القديم بل من حيث نسيجها البشري. وتعرفوا الى واقع الفلسطينيين تحت الاحتلال وتفهّموا حقوقهم المشروعة و «اكتشفوا»الحضور المسيحي التاريخي على أرض فلسطين[٢٦].

وفيما يصعب قياس تأثير المجموعات المؤتلفة في الهيئة التي يديرها دونالد فاغنر، لا يمكن إغفال دلالة ظهورها واستمرار نشاطها. فهي تقدّم بديلاً غير صهيوني من داخل التيار الانجيلي المحافظ في المسيحية الأميركية. وخلال أكثر من عقدين استطاعت التأثير على مواقف شخصيات انجيلية محافظة مرموقة. ففي ٢٣ تموز - يوليه ٢٠٠٢ وقّع تسعة وخمسون من هذه الشخصيات رسالة الى الرئيس بوش تدعو الى سياسة متوازنة في الشرق الأوسط. وجاء في الرسالة «ان الإنجيليين الأميركيين ليسوا كتلة متجانسة تدعم بالكامل وبقوة سياسة إسرائيل الحالية»، وتحدثت رسالتهم عن «سرقة الأراضي الفلسطينية وتهديم المنازل وتخريب الحقول مما هو أحد أسباب النزاع والعنف المؤدي الى الارهاب». وأشارت الى أن عدداً من الانجيليين يرفض الاستناد الى قراءة مشوّهة لبعض المقاطع الكتابية من أجل تبرير التأييد غير المشروط لكل سياسة تعتمدها اسرائيل أو قرار تتخذه. ودعت الى الحكم على الأفعال، أياً كان صاحبها، من منظور معايير العدالة الكتابية. فالأنبياء العبرانيون، اشعيا وارميا، يعلنون في العهد القديم ان الله دعا كل الأمم والشعوب الى إقامة العدل وحماية المضطّهد والغريب واليتيم والأرملة.

مفارقة بروتستانتية

وفي ما يتجاوز المدى الانجيلي المحافظ، يلفت كل متابع للشؤون المسيحية وللعمل من أجل نصرة الحق الفلسطيني، ان المواقف البروتستانتية الأميركية والتي تقفها كنائس «الخط الرئيسي» الليبرالية التاريخية، شهدت تغييراً تدريجياً خلال العقود الثلاثة. وفي ما يشبه المفارقة، نرى اليوم عدداً

كبيراً من البروتستانتيين الذين كانوا، لأسباب لاهوتية ونفسية وسياسية، سبّاقين في الحوار مع اليهود وتفهمهم واحترام هويتهم صاروا أكثر اعتراضاً من سواد الأميركيين الأعظم على سياسة اسرائيل والظلم الذي تلحقه بالفلسطينيين. باتوا على الطرف النقيض من اولئك الذين لم يختبروا ولا مرّة أي حوار مع اليهود لكنهم أيدوا اسرائيل بحماسة. لقد تعرّف البروتستانتيون الليبراليون على الواقع في فلسطين وقرأوه من زاوية الأخلاق المسيحية في بعدها الكوني. ونسجوا عن طريق الهيئات المسكونية الأميركية والعالمية علاقات وثيقة مع مسيحيي الأراضي المقدسة والعالم العربي. على هذا النحو لم يحسبوا أرض فلسطين «مجرد مساحة عقارية وأثرية»[٢٧].

ولعلّ سجلّهم المتعاطف مع اليهود في الماضي والساعي للحوار معهم يسمح لهم بقدر من الجرأة في انتقاد اسرائيل من دون ان يحميهم من سخط الجماعات المؤيدة لها ومن محاولات الضغط التي عُرفت بممارسته. فهناك عدد من كنائس «الخط الرئيسي» التي تعترض على سياسة اسرائيل، سبق لها ان راجعت نصوصها التعليمية وحذفت منها كل إشارة إلى إثم اليهود الجماعي وعقاب الله لهم وغير ذلك ممّا ينتمي الى لغة الكراهية والانتقام.

في الحقيقة، خالف الانجيليون المحافظون رأي هذه الكنائس الليبرالية في الدين كما في الأخلاق والسياسة. فرأوا أنها تشيع النسبوية الدينية، أي تقلّل من مركزية الخلاص بيسوع المسيح وبنهائية الوحي المسيحي. واستمروا في تأكيدهم ان حدث يسوع المسيح قد أبطل اليهودية بمعنى أن هدفها الإعدادي لمجيء المسيح قد تحقق فلا كفارة أو مغفرة، بعد اليوم، ولا خلاص أو رجاء أبدي إلا به. غير ان هذا الموقف الديني الذي لم يتغيّر في العمق احتجب وراء الصداقة القوية مع اسرائيل وانتقاد الكنائس والهيئات المسيحية، كمجلس الكنائس الوطني في الولايات المتحدة ومجلس الكنائس العالمي، التي تدين احتلال فلسطين والظلم النازل بالفلسطينيين.

لكن فئة من الانجيليين المحافظين، تسمي نفسها أو تسمى أحياناً «المسيحيين الصهاينة»، لم تتردّد في مراجعة الموقف التبشيري من اليهود ولم تكتف بإخفائه أو تعليق مفعوله. بل دعت الى انسجام أكبر بين المسوغ

الديني والعطف السياسي اللذين يبرران تحالفها الوثيق مع اليمين الاسرائيلي. فأسقطت وبشكل نهائي تبشير اليهود من حسابها. واستطاعت هذه الفئة بنشاط ملحوظ ان تعوِّض عن بعض الانحسار الذي شهده نفوذ التيار الإنجيلي المحافظ والمؤيد لاسرائيل منذ الثمانينات، وعن إحجام قطاعات من اليهود عن تأييد اليمين الإسرائيلي بعد توقيع اتفاق اوسلو بين الإسرائيليين والفلسطينيين. وبتنسيق مع اليمين الإسرائيلي الحاكم وأنصاره الأميركيين، ومنهم عدد من المحافظين الجدد النافذين داخل ادارة الرئيس جورج دبليو بوش، عملت هذه الفئة، منذ الحادي عشر من أيلول - سبتمبر ٢٠٠١، على الربط الوثيق بين «رهاب الإسلام» وسياسة معاقبة الدول المارقة والتأكيد على أهمية التحالف بين الولايات المتحدة والدولة العبرية.

زواج المصلحة وديمومته

على غرار عدد كبير من الانجيليين المحافظين، تقف فئة واسعة من اليهود الأميركيين الموقف ذاته لجهة اختباء آرائها الدينية وتلك المتعلقة بدور الدين في الحياة العامة، وراء الترحيب بالتأييد السياسي والعاطفي والمالي الذي تحظى به اسرائيل من أصدقائها المسيحيين القدماء - الجدد.

لكن هذه الآراء تظهر، هنا وثمة، حين ترى جماعات الضغط اليهودية الحاجة الى استدعاء دعم إضافي لاسرائيل. فهي تذكّر بخلافها العقدي مع الإنجيليين المحافظين على نحو يبدو لهم محرجاً، مما يدفعهم الى التعويض عن موقفهم الديني من اليهودية عن طريق الذهاب بالصداقة مع اليهود الى أبعد مدى ممكن.

بالطبع، هناك عدد كبير لا يخفي حذره من التقارب مع الإنجيليين المحافظين وغض النظر عن معارضة توجهاتهم الدينية والأخلاقية والسياسية العامة. وهو غير مستعد لان يحسبه ثمناً لا بد من دفعه مقابل مواقفهم السياسية.

تبقى فئتان على الطرفين النقيضين. تهاجم الأولى الصداقة بين اليهود والإنجيليين المحافظين وترى في نفوذ هؤلاء خطراً على مستقبل اليهود في

أميركا. أما الثانية فتعتبر التقارب بين اليهود والإنجيليين المحافظين يتعدّى مجرد الالتقاء على تقديم الدعم لاسرائيل، إذ يشمل اتفاق مصالح على مستوى الحياة العامة في الولايات المتحدة. ولعلّ التوقف قليلاً أمام ما تقول به هاتان الفئتان يلقي ضوءاً إضافيا كاشفاً على الالتباس والازدواج في العلاقة بين اليهود والانجيليين المحافظين.

ويذكِّر أصحاب وجهة النظر الأولى معظم اليهود بأن الفصل بين الكنيسة والدولة في الولايات المتحدة هو الأساس الذي يقوم عليه وضعهم بوصفهم مواطنين من الدرجة الأولى. فالجدار الفاصل وتاريخ الولايات المتحدة كأمة مهاجرين يجعل منها بالنسبة إلى اليهود بلداً مختلفاً عن سائر البلدان. فغياب دين للدولة رسمي وتحريم أي نوع من التمييز في الوظيفة العامة بين أبناء دين وآخر يضمنان لليهود وجوداً آمناً أكثر مما يتمتعون به في دول أخرى استضافتهم وسمحت بازدهار أحوالهم المعيشية.

وغالباً ما يتذكَّر هؤلاء اليهود، أو يذكّرون، المحاولات المتكررة لجعلهم مواطنين من الدرجة الثانية عن طريق تعديل الدستور بحيث تصبح الولايات المتحدة «أمة مسيحية». فمنذ الأيام الأولى لإعلان الدستور سُمعت أصوات تشكو غياب الإشارة الى أي اله يعبده الأميركيون[٢٨]. ولمدة نصف قرن بعد ذلك، تواصلت المساعي المذكورة. وخلال سنوات الحرب الأهلية، قال بعض قادة الكنائس البروتستانتية بضرورة الإقلاع عن عادة الفصل بين الدين والسياسة. ورأى عدد من الوعّاظ ان ما يجري هو عقاب الله للذين أخرجوه من الدستور. وفي عام ١٨٦٣ تأسست رابطة الاصلاح الوطنية National Reform Association دفاعاً عن فكرة «الأمة المسيحية» بوصفها مبدأ دستورياً مرغوباً. وجرى نقاش حول لغة التعديل الدستوري المقترح. واستقر الرأي على «الاعتراف بالله تعالى... وبالرب يسوع المسيح... وبمشيئته بوصفها قانون البلاد الأسمى، وبضرورة إنشاء حكومة مسيحية...»[٢٩].

من جهتهم، نظّم اليهود الأميركيون صفوفهم لمعارضة هذه الحركة تحت شعار «هل نحن متساوون فعلاً في هذه البلاد؟»[٣٠]. وازداد شعورهم بقوة المشاعر المعادية لهم خلال الحرب الأهلية ولدى الفريقين المتصارعين.

غير ان فكرة المساواة الأميركية تغلّبت على يد ابراهام لنكولن الذي قاوم ضغوط المتحمّسين لتعديل الدستور. لكن هؤلاء واصلوا مساعيهم حتى عام ١٩٤٥ حين انحلّت رابطة الإصلاح الوطنية. ويشدّد اليهود اليوم، بمن فيهم المؤرخون، على ان اتساع نطاق الحرية الدينية لم يأت بفعل الدستور فحسب بل جاء أيضاً تتويجاً لنضال مرير لعب اليهود فيه دوراً كبيراً[٣١].

ظلّ اليهود على درجة كبيرة من اليقظة في معارضتهم لأية خطوة، مهما كانت صغيرة، باتجاه استعادة فكرة «الأمة المسيحية» والإيحاء بها. وبطبيعة الحال، اختاروا خوض المعركة ضد محاولات التأكيد على مسيحية أميركا، لا على المستوى الاجتماعي والديموغرافي حيث لا يستطيعون إلا القليل، بل على المستوى الدستوري والقانوني حيث لهم قدرة على التأثير كبيرة.

فبنظر الكثيرين منهم، لا سبيل نحو محافظة اليهود على وضعهم الاجتماعي والسياسي، وهو من الدرجة الأولى، ما لم يصونوا وضعهم القانوني ويحولوا دون أي تغيير، مهما كان بسيطاً، يعطي المسيحيين نصيباً من التفوق عليهم. لذلك فان ردة فعلهم في الثمانينات ضد صعود اليمين المسيحي تعمّدت المبالغة في وصف الخطر المحدق بمواطنة الدرجة الأولى التي يتمتعون بها. فالمطالبة الإنجيلية المحافظة بالصلاة الإلزامية في المدارس أثارت معارضة يهودية قوية ولم تخفف من حدّتها الدعوة لأن تكون تلك الصلاة مستقاة من التراث اليهودي -المسيحي المشترك.

ويرى أحد رجالات القانون المعروفين والناشط في القضايا اليهودية العامة، آلن درشوفيتز Alan Dershowitz، انه يتعيّن على اليهود ان يرفضوا لا التمييز بين الأديان فحسب بل تفضيل الدين على اللادين. ويعتبر ان استراتيجية اليمين المسيحي المبطّنة تنفّذ على مرحلتين. ففي الأولى يجري التشديد على مكانة الدين في التعليم والأخلاق الاجتماعية والحياة العامة. وفي المرحلة الثانية يتم تخصيص المسيحية وقيمها دون سواها من الأديان. ولذلك فان الإحجام عن المناداة بتعديل الدستور لكي يتضمن الاشارة الى أميركا بوصفها أمة مسيحية لا يعني الإقلاع عن السعي وراء جعل المسيحية

ديانة أميركا الرسمية[٣٢].

يستند رأي المعترضين على الصداقة المستجدة بين اليهود والانجيليين المحافظين، والتي يدفع اليها التضامن في دعم اسرائيل، الى خشيتهم من أن يؤدي السكوت عن الخلاف حول هوية أميركا ودستورها ونظامها الى زعزعة الأسس التي قام عليها أمان اليهود وازدهارهم. فالولايات المتحدة أمة مهاجرين ولا يحق لأحد من أبنائها التفريق بين أصيل ودخيل[٣٣]. ويقلقهم على نحو خطير كلام شخصيات عديدة من التيار الإنجيلي المحافظ تشدد على انها تمثل «الأميركيين الحقيقيين» وترى نفسها بصورة الفئة القيِّمة على المعايير الأخلاقية التي صنعت أميركا. ويذهب البعض، كبات روبرتسون، الى أبعد من ذلك، فيقول ان المسيحيين الأصليين قادرون على استعادة السيطرة على المؤسسات الأميركية والتي سلبت منهم خلال السبعين عاماً الماضية. ويضيف ان دستور الولايات المتحدة وثيقة رائعة وضعها مسيحيون. وحين تتحوّل الى أداة بيد غير المسيحيين والملحدين تُساهم في تقويض الدعائم التي بُني عليها المجتمع الأميركي[٣٤].

وتتميّز الولايات المتحدة، برأي اليهود الذين يؤرقهم صعود الانجيليين المحافظين، بانها بلد لا يعرف وجود كنيسة للدولة أو دين رسمي لها. ورغم ان المساواة الفعلية بين المسيحيين واليهود لم تتحقق كاملة إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، فان المبدأ الدستوري كرّسها منذ قرنين وشكل قوة دافعة باتجاه إقرارها الواقعي، على نحو فاق أي بلد آخر عاش فيه اليهود وتمتعوا، من حيث المبدأ، بحقوق المواطنة.

ويؤكد آلن درشوفيتز ان الفصل بين الكنيسة الدولة هو السبب الأول والأكثر أهمية لنجاح اليهود في أميركا وحضورهم المؤثر في الحياة العامة[٣٥]. لكن هذا الفصل بات مهدداً على يد التيار الانجيلي المحافظ الذي لا يخفي رغبته في هدم الجدار الفاصل بين الدولة والدين تمهيداً لإقامة المسيحية ديناً رسمياً للولايات المتحدة. ويعزز هذا الاعتقاد ما يردّده، وان بلا صخب كبير، غير وجه من الوجوه البارزة من الانجيليين المحافظين. فيقول وليم كريسويل William Creswell، القس الذي أعطى البركة في

افتتاح مؤتمر الحزب الجمهوري عام ١٩٨٤، «ليس من فصل ممكن بين الدولة والكنيسة فذلك من نتاج مخيّلة الكفار». ويقول جيري فالويل «الفصل بين الدولة والدين اغتصاب للدستور». أما بات روبرتسون فيحسب الفصل المذكور «كذبة يسارية»[٣٦].

ان هؤلاء الوعاظ الطموحين، يقول درشوفيتز، يسعون وراء تسلم السلطة لا لخدمة المصالح السياسية لليمين فحسب بل لاستخدامها أداة لنشر معتقداتهم وفرضها. ويعتبرون ان إعلان أميركا أمة مسيحية هو أمر الهي مباشر. وهم تالياً يؤمنون بأن شرعية الحكم مستمدة من «الشريعة المسيحية» أي من مجموعة التوجهات الاجتماعية والسياسية والنظم الدينية التي اذا ما احترمت تحقق سيادة المسيح على الحكومة.

لذلك فان المعركة التي خاضها اليمين المسيحي في الثمانينات والتسعينات بشأن إعادة الصلاة الى المدارس الرسمية ليست ثانوية، في نظر اليهود الثابتين بعناد في ليبرالية لا تثق البتة بالمحافظين، بل يعتقدون انها المواجهة الأولى في صراع طويل سوف يؤدي، إذا تحققت الغلبة فيه للانجيليين المحافظين، الى إقامة «حكم الهي» مسيحي يصبح اليهود بموجبه مواطنين من الدرجة الثانية وأكثر تعرّضاً للضغط التبشيري الذي ينافي حقهم في هوية مميزة.

كل ذلك لا يعني بالضرورة ان كل الأسلحة الإيديولوجية تستعمل دائماً في هذه المواجهة المفترضة. فلفترة طويلة كان المثقفون اليهود، من مختلف المشارب، يتحدثون من دون مواربة عن العداء للسامية عند الانجيليين المحافظين. ولم يجدوا حرجاً، في نعتها بالمضمرة والمقنّعة أو المؤجّلة في كل مرة غابت عنها خصائص العداء لليهود المعروفة. لم يعد الأمر كذلك في أيامنا. فأكثر اليهود لا يعتقد ان كره اليهود يُحرّك الانجيليين المحافظين على صعيد الحياة العامة، ولو كان ذلك في الدفاع عن الأخلاق المسيحية والتي تسمّى، لياقة على لسان البعض، اليهودية -المسيحية.

لم يعد العداء للاسامية شبهة ترخي بظلها على كل مطالب مسيحي بمكانة أكبر للدّين في مجالات المجتمع والثقافة والسياسة. ولم يعد مستغرباً

القول ان الانجيليين المحافظين لا يكتفون بدعم اسرائيل للأسباب المتصلة بنظرتهم الى نهاية الأزمنة دون سواها. بل تدفعهم الى ذلك محبتهم لليهود وصدق تأثرهم بتاريخ الاضطهاد الذي أُنزل بهم في البلاد ذات الغالبية المسيحية، أكان ذلك لأسباب دينية أم نتيجة عوامل مستقلة عن المشاعر المسيحية. ثم ان هذه المحبة تحفز هذه الفئة من المسيحيين للاستعانة بخبرات يهودية كثيرة في مجالات الإعلام والإعلان وتشكيل جماعات الضغط وتسييرها.

غير ان ذلك لا يرضي بشكل كاف اليهود غير المطمئنين الى حسن نيات الانجيليين المحافظين، رغم سرورهم بمواقفهم السياسية حيال اسرائيل. وهم يشيرون أحياناً الى ان عدداً من الانجيليين المحافظين ينتمي الى النموذج المعادي للسامية التقليدي. ومن غير ان يسمّوها، ينسبون اليهم لغة مزدوجة، واحدة تخاطب الأميركيين كلهم وأخرى تتوجه الى قلوب الانجيليين المحافظين البسيطة. واذا ما اعترفوا بقلة عدد هؤلاء «المعادين للسامية» فانهم يعظّمون تأثيرهم بفعل قدرتهم على استتباع فئة أوسع من الانجيليين المحافظين تخشى على المسيحية من ضغط التيارات العلمانية والليبرالية، التي يتمثل فيها اليهود بقوة ملحوظة[٣٧].

تبقى تلك الفئة من اليهود الذين يؤيدون الإنجيليين والمحافظين لنفس الأسباب التي تبعد بعض أبناء طائفتهم عنهم وتبقي في قلوبهم حذراً تجاههم رغم تأييدهم لاسرائيل و«مباركتهم مباركيهم». وينتمي الى هذه الفئة الصاخبة وذات النفوذ مَن اصطلح على تسميتهم اليمين اليهودي الديني واليمين اليهودي السياسي. فهناك مثلاً حركة اللوبافيتش التي ترحب بالدعوة الى هدم الجدار بين الدين والدولة. وهم يؤيدون مطالبة الانجيليين المحافظين بإلزامية الصلاة في المدارس الرسمية وبتقديم الدعم الحكومي المالي للمدارس الدينية الخاصة. ذلك ان تحقيق هذه المطالب يفيد اليهود المتدينين أيضاً. كما يقفون الى جانب اليمين المسيحي في الدعوة الى قوانين تحدّ من حق النساء في اختيار الإجهاض وفي معارضة حقوق مثليي الجنس والسعي الى فرض رقابة على المشاهد الفاضحة في السينما والتلفزيون

والإعلام والإعلان، وفي تأييد حكم الإعدام.

وهناك أيضاً يهود محافظون، لا ينتمون الى هذه الحركة المذكورة أو سواها من حركات الغلو اليهودي الماسياني، يميلون من غير خجل الى تعزيز الصداقة مع الانجيليين المحافظين فيما يتعدّى مجرد التعاطف مع اسرائيل. ولا يحرجهم التذكير بأن الانجيليين المحافظين في آخر المطاف، ذوو نزعة تبشيرية قوية لا تستثني اليهود. بل يتحدثون بلغة الاحترام عن البعد الأساسي لهوية الانجيليين المحافظة ويحسبونه خيراً من اتساع نفوذ اللادين أو الإلحاد في المجتمع(٣٨). ويذهب أحد الحاخامين المحافظين المؤيد لليمين المسيحي الى القول انه يرتاح الى التعامل مع الانجيليين المحافظين، الصادقين في تدينهم، أكثر من التعاطي مع بعض اليهود الليبراليين الذين لم يبق من تدينهم وحفاظهم على القيم اليهودية شيء يُذكر(٣٩).

بالإضافة إلى المجموعتين المذكورتين، نجد مجموعة ثالثة متنوعة المشارب الفكرية تلتقي على هاجس الحفاظ على الخصوصية اليهودية، وان اختلفت حول مضامينها. وهي تؤيد الانجيليين المحافظين، ومشروعهم الأميركي الداخلي، بسبب من هذا الهاجس نفسه. يروي آلن درشوفيتز سجالاً جرى بينه وبين عدد من اليهود الشباب، من المحافظين الجدد، الذين أخذ عليهم قلة حذرهم تجاه شخصيات مسيحية محافظة موسومة بالعداء للاسامية مثل المرشح الجمهوري بات بوكانان Pat Buchanan. وفي مقال له، رداً على تحقيق نشره الملحق الأسبوعي لنيويورك تايمز حول انخراط عدد من الشباب اليهود في السياسة الجمهورية اليمينية، يتوقف عند قول أحد الشباب: «قليل من العداء للسامية مفيد لليهود»(٤٠).

بالطبع، لا يعني هذا القول استعداداً عند هؤلاء اليهود للقبول بتميز حقيقي ضدهم في المجتمع الأميركي بعدما نالوا كامل حقوقهم وأتيح لهم تحقيق نجاحات مذهلة في ميادين المجتمع كلها. ربما كان القصد منه تذكير اليهود بأن القليل من العداء للسامية لا يؤذي اليهود بقدر ما يسمح لهم التلويح بخطر الكثير منها مما يساهم في تجييش القوى وتأييد الأصدقاء.

غير أن احتمالات انبعاث بعض العداء للسامية، على يد الانجيليين

المحافظين، تدفع ببعض اليهود الى موقف أكثر جذرية من ذلك. فالمساواة الكاملة بين اليهود وسواهم والأمان الذي يحظون به في المجتمع الأميركي وفرص النجاح المفتوحة أمامهم تعزّز الزواج المختلط والانصهار وضمور الهوية الدينية. ولعل كل ذلك ينسيهم انهم بمثابة «منفيين من أرض الميعاد» ويولّد عندهم الشعور بان الولايات المتحدة هي وطنهم النهائي. فبعض التصدع في الشعور بالأمان وانعدام المساواة المطلقة والشاملة لكل ميادين الحياة ضروريان لبقاء اليهود الأميركيين يهوداً ولثباتهم في القناعة أن البلاد الوحيدة التي يتمتعون فيها بكامل الأمان والمواطنة والمساواة هي إسرائيل. يقول مايكل مايرز، وهو حاخام أميركي ينتمي إلى التيار الإصلاحي، ان الثقافات المضيفة، وخاصة الولايات المتحدة، تشكل تهديداً أكبر للوجود اليهودي الجماعي أكثر من أي وقت مضى. ويتساءل مشاركان آخران، في ندوة عقدت في اسرائيل لبحث المسألة، عمّا إذا كان الاطمئنان اليهودي يضعف الحاجة الى علاقة خاصة باسرائيل[٤١].

ويرى أصحاب هذا الموقف ان التطورات التي يحدثها صعود الانجيليين المحافظين، لجهة جعل الولايات المتحدة دولة مسيحية أكثر، هي في حقيقة الأمر إيجابية، فهي تساهم في جمع صفوف اليهود. وفي زمن انحسرت فيه موجات العداء للسامية، يبدو اليمين المسيحي وكأنه قادر على ملء الفراغ الذي تخشاه تلك الفئة من اليهود والتي تحتاج الى تهديد خارجي حتى تستطيع تفادي التضعضع الداخلي.

ان هذه الأقلية اليهودية معرّضة أن تجد نفسها في مأزق فكري وشعوري. فهي ترى فائدة في التهديد الخارجي الذي يحمله صعود الانجيليين المحافظين، وتميل، في الوقت ذاته، الى مصادقتهم. إلا انها، في حقيقة الأمر، لا تشعر بأي تهديد فعلي ويبدو استدعاؤها له نظرياً وافتراضياً.

ومهما يكن من أمر، يبدو لنا ميزان القوى بين التيارات اليهودية المختلفة، في موقفها من المسيحية الانجيلية المحافظة، متغيّراً الى درجة لا تسمح برسم صورة دقيقة عنه. هذا فضلاً عن ازدواج الخطاب في مسألة العلاقات بين اليهود وسواهم. بدوره، لا يستقر التجاذب داخل التيار

الإنجيلي المحافظ على حال. فتاريخ المسيحية يشي بان الفورات الانقضائية قصيرة العمر وان انتظارات نهاية الأزمنة غالباً ما تفتر همّتها أو تخيب.

لذلك فان ديمومة «زواج المصلحة» الذي عقده في السنوات الأخيرة الانجيليون المحافظون ومؤيدو اسرائيل اليهود مرهونة بتطورين قد يتغيّر مسارهما. ويختص الأول بالمكانة التي تحتلها اسرائيل في وعي الذات عند اليهود الأميركيين. فتحالفهم مع كل أصدقاء اسرائيل ، أيا كانت دوافعهم، يترسخ بقدر ما يزدادون تعلقاً بالدولة العبرية شرطاً أول للحفاظ على خصوصيتهم، والتي تتعرض للذوبان داخل المجتمع الأميركي بفعل النجاح والاختلاط والتزاوج مع غير اليهود.

أما الثاني فيتعلق بالتحولات التي تحدثها الواقعية السياسية التي رافقت نزول الانجيليين المحافظين الى حلبة التحالفات والمنافسات الحزبية والانتخابية. فبقدر ما تتحكّم بتصرفاتهم حسابات السياسة القصيرة المدى على الايديولوجية البعيدة المدى، تتغير هذه الأخيرة ويتناقص مخزونها الشعوري. ومن شأن ذلك ان ينعكس على الحماسة لفكرة الأمة المسيحية. واذا ما بدت شعاراً غير قابل للتحقيق في الداخل، يمكن استبطانها في الماسيانية الأميركية، أي في دور أميركا «الانقاذي» و«التأديبي» في العالم، وهو الدور الذي يرسمه اليوم الطرف الثالث في التحالف الذي تحدثنا عنه في أول هذا الفصل، والذي يرى إسرائيل شريكاً مهماً فيه.

هوامش الفصل الرابع

١ – Ralph Reed, *We People of Faith Stand Firmly With Israel*, New York Times, May 2, 2002.

٢ – في خطاب لدى تسلمه دكتوراه فخرية في جامعة بوب جونس في ١٢ كانون الثاني– يناير ٢٠٠٢.

٣ – Michele Goldberg, *Jews and the GOP*, salon. Com, May 14,2002, p 2.

٤ – نفس المرجع – p. 3.

٥ – نفس المرجع – P. 4.

٦ – Timothy Weber, *How Evangelicals Became Israel's Friend*, Christianity Today, October 5, 1998, p 2.

٧ – Bryan W. Ball, *A Great Expectation: Eschatological Thought in English Protestantism*, Leiden, Brill, 1975, pp. 142-146.

٨ – Cecil Roth, *Essays and Portraits in Anglo-Jewish History*, The Jewish Publication Society of America, Philadelphia 1962, pp. 11-12.

٩ – John Lock, *Commentries on Saint Paul's Epistles*, Quoted in Sharif Regina, *Non-Jewish Zionism*, Z Press, London, 1983, p. 36.

١٠ – Ernest R Sandeen. *The Roots of Fundamentalism, British and American Millenarianism, 1800-1930*, Chicago, University of Chicago Press, 1970, p. 5.

١١ – Leroy Froom, *The Prophetic Faith of Our Fathers*, Washington Review, Herald Press, 1954, p. 137.

١٢ – John R. Stone, *Expecting Armageddon, Essential Reading in Failed Prophecy*, Routledge, 2000.

١٣ – Nelson Bell, Christianity Today, July21, 1967, p. 2.8

١٤ – Paul Boyer, *When Time Shall be No more, Prophecy Belief in Modern American Culture*, Harvard University Press, Reprint Edition,1994, pp. 293-325.

١٥ – Hal Lindsay, *The Late Great Planet Earth*, London, Lakeland, 1970.

١٦ – Hal Lindsey, The Count down to Armageddon, New York, Bantam, 1980.

١٧ – على غرار كتاب لندسي، صدرت بين عامي ١٩٩٥ و٢٠٠٣ سلسلة كتب لتيم لاهاي Tim Lahaye بيع منها ٥٥ مليون نسخة وهي ترسم السيناريو نفسه، بأسلوب التشويق القصصي الخيالي، آخذة بالحسبان التغييرات السياسية والاستراتيجية في العالم.

Tim Lahaye, *The Left Behind Series*, Tyndale House Publishers

١٨ - مثل .The Restoration Foundation of Atlanta

١٩ - .The Arkansas Institute of Holy Land Studies

٢٠ - مثل Jews for Jesus و First Fruits of Zion Ministries .

٢١ - .Christian Friends of Israeli Communities

٢٢ - Gershom Gorenberg, *The End of Days: Fundamentalism and The Struggle for The Temple* Mount, Free Press, 2000, pp. 36-48.

٢٣ - Timothy Weber, How Evangelicals, op. cit., pp 26-30.

٢٤ - Donald Wagner, *Evangelicals and Israel: Theological Roots of a Political Alliance*, The Christian Century, Nov 4, 1998 pp. 1020-1026.

٢٥ - المرجع السابق الصفحة 1023 .

٢٦ - Donald E. Wagner. *The Holy Land Never New, in Anxious for Armageddon, A Call to Partnership for Middle Eastern and Western Christians*, Herald Press, 1994, pp 24-31.

٢٧ - David Blewett, *What the Protestant Churches Are Saying About Jews and Judaism*, In Proceeding of the Center for Jewish Christian Learning, ,1995, Lecture Series, p. 7.

٢٨ - Morton Borden, *Jews, Turks and Infidels*, Chapel Hill, University of North Carolina Press, 1984, p. 59.

٢٩ - Ibid. p. 63.

٣٠ - Ibid p. 66.

٣١ - Ibid pp. IX-X.

٣٢ - Alan M. Dershowitz, Chutzpah, A Touchstone Book, Simon and Shuster, New York, 1991, p. 325.

٣٣ - تكمن المفارقة في أن من بقي من أصحاب هذا الحق دون غيرهم، أي السكان الأصليين، يرى نفسه غريباً في بلاده .

٣٤ - Robertson.

٣٥ - Dershowitz.

٣٦ - Dershowitz, The Vanished..., op. cit., p. 148.

٣٧ - Allan Dershowitz, The Vanished..., op. cit., p. 148.

٣٨ - Steve Rabey, *Some Conservative Jews Join Hands with Religious Right*, Dallas Morning News, Feb. 18, 1995.

٣٩ - Alan Dershowitz, The Vanished..., op. cit. p. 158.

٤٠ - Alan Dershowitz, *Will Neo-Cons Condemn Buchanan's Bigotry*? United Feature Syndicate, March 3, 1995.

٤١ - Allon Gal and Alfred Gotschalk, *Beyond Survival and Philanthropy: American Jewry and Israel*, Hebrew College Union Press, Cincinrak, 2000, pp. 12-13.

الفصل الخامس

مساومة من هنا ومقاومة من هناك

لم يغب مرة عن فصول هذا الكتاب السابقة التذكير بأن صعود الإنجيليين المحافظين، والذي يملأ الدنيا ضجيجاً، ذو وجه آخر ألا وهو تكيّف هذه الفئة من المسيحيين مع الحداثة الأميركية. ولا يغيّر في حقيقة الأمر شيئاً كون طريقتها في التكيّف، أو طريقها اليه، تختلف عن سواها. أكثر من ذلك، يصح القول ان الصعود المذكور غالبا ما يظهر، لا في زيادة أعداد الإنجيليين المحافظين وهي مستقرة منذ سنوات، بل في حضورهم السياسي. يبدو هذا الحضور مؤثّراً على الصعيد الانتخابي، وفي مجال الضغط داخل الحزب الجمهوري والالتفاف حول الرئيس جورج دبليو بوش، وفي الجهر بعاطفة غير مسبوقة لمصلحة إسرائيل تفتح صفحة علاقات جديدة مع اليهود الأميركيين.

لذلك فان السؤال عن مستقبلهم، بما فيه السؤال حول مستقبل حماستهم ونشاطهم في سبيل إسرائيل، يتطلّب تفحّصاً أكثر دقة مما توحي به الإشارات المتفرقة في الفصول السابقة للتغيير الذي أحدثته في الدين نفسه محاولات تسييسه المفرط. بعبارة أخرى، ينبغي التساؤل عن مقدار التحوّل الذي أحدثه تزايد نفوذ الإنجيليين المحافظين في المجتمع الأميركي وعمّا إذا أدّى الى تقدّم أميركا على طريق استعادة هويتها المسيحية. أما الوجه الآخر للتساؤل نفسه فيتصل بتكيّف الانجيليين المحافظين مع الحراك الاجتماعي والسياسي والثقافي الأميركي على نحو يحدّ من نفوذهم، وهو الذي وُلد في رحم الإحيائية التي فقدت الكثير من زخمها بفعل التكيّف المذكور اياه.

ويختلف علماء اجتماع الدين، الأميركيون والأوروبيون، من حيث مقاربتهم لسؤال المستقبل تبعاً للاختلاف النظري في ما بينهم. فهناك، من جهة أولى، القائلون بان العلمانية أو الدهرنة ظاهرة كونية. وأنهم يعتقدون أن العملية التاريخية المؤدية الى استقلال الفرد والمجتمع المتزايد عن القيم

والرموز والمؤسسات الدينية عملية لا رجوع عنها، أياً كان من سرعتها. وهناك، في المقابل، من يحسبون ان هذا القول هو بمثابة تعميم متسرّع لتجربة عدد من دول أوروبا الغربية وان الواقع الأميركي غالباً ما يكذّبه. ويستند عدد منهم الى الافتراض، المعروف عند أصحاب نظرية الخيار العقلاني، ان حجم الطلب على الدين بمختلف ألوانه مستقر، وانه بمقدار ما يزداد العرض ليتجاوب مع الطلب يصير الدين أكثر ظهوراً وتأثيراً في الحياة العامة.

ويرى هؤلاء ان للولايات المتحدة مظهر المجتمع الأكثر تديّناً بين المجتمعات ما بعد الصناعية. وعندهم ان المقارنة البسيطة مع أوروبا الغربية تكشف ان الأميركيين مازالوا يرتادون الكنائس وغيرها من دور العبادة بأعداد كبيرة، وان السياسيين لا يجدون حرجاً في الاعلان عن انتمائهم الديني، بل يكثرون من ذكر اسم الله ومن الدعوة الى استلهام القيم الدينية. وتدفعهم الملاحظة الى القول بغياب علاقة سببية[١] بين التحديث وانحسار دور الدين في المجتمع ويقولون أيضاً إن مستقبل الأديان ليس في يد أحد. ليس أولاً في يد النخب السياسية الثقافية لأن الأدوات التي تستعملها لم تعد تتمتع بالصدقية التي كانت لها في الماضي: وليس في يد المتخصصين في العلوم الإنسانية الذين أخطأوا في ميلهم نحو النظر الى تطور العلاقة بين الدين والمجتمع وكأنه يسلك مساراً خطياً.

أما أولئك فانهم يعزون الخصوصية الأميركية في النطاق الديني الى التنوّع الكبير في المجتمع الذي ترفده الهجرة بالجديد كل يوم، والى بعض مميزات النظامين السياسي والانتخابي. ولا يحسبون ان هذه الخصوصية تعني عودة الدين بقوة تهدِّد علمنة المجتمع أو دهرنته المتواصلة[٢].

غير ان فئة من منتقديهم تعتمد على توصيف للمجتمع يشدِّد على ما أتت به حالة ما بعد الحداثة. وترى ان هذه الحالة تعطي للدين فرصة أكبر من تلك التي أتاحتها له الحداثة[٣]. فتراجع الثقة بالعلم والتكنولوجيا وبالعقلانية وبالمؤسسات السياسية التي تقوم عليها هو اضعاف لكل ما شكَّل في الماضي تحدياً للأفكار الدينية.

لكن هذا القول لا يقنع الذين يدركون ان الناس لم يبتعدوا عن الدين لاقتناعهم بانه على خطأ بل لأن حاجتهم اليهم تضاءلت وصاروا غير مكترثين به. لذلك فان أزمة الصدقية التي يواجهها العلم والفكر العقلاني لا تعني بحد ذاتها فتح الطريق أمام استعادة الأفكار الدينية صدقيّتها المفقودة.

ان هذا التباين يستحق التفاتة عند كل باحث في مستقبل الأديان. غير اننا لن نتوقف عنده طويلاً لأن ما يعنينا ها هنا هو محاولة استشراف المستقبل القريب على ضوء الاتجاهات العامة لمسار الدين في أميركا خلال القرن العشرين. ويبدو لنا ان شقة الخلاف في استقراء الاتجاهات العامة أضيق مما يعتقده البعض.

مسيحية تتغيّر وتغيّر نفسها

في الستينات من القرن الماضي، كتب عالم الاجتماع المعروف بريان ويلسون Bryan Wilson ان الكنائس في الولايات المتحدة ظلّت تتمتع بشعبية كبيرة لأنها تخلّت عن الكثير من «دينها»[٤]. واليوم، لا يبدو هذا الرأي غريباً اذا ما نظرنا مثلاً الى الحياة السياسية في بعض المجتمعات. فالأحزاب الاشتراكية في أوروبا حافظت على قاعدتها الانتخابية لأنها تخلّت عن الكثير من اشتراكيتها. ولعلّ نصيب هذا الرأي من الصحة كبير في المجال الديني أيضاً. لقد خسرت الكنائس الأميركية، لا الليبرالية فحسب، الكثير من خصوصياتها العقدية وسلوكياتها وشهدت عملية تكيّف واسعة النطاق خلال القرن العشرين.

بالطبع، لا يمكن اختصار عملية التكيّف هذه بصفحات معدودة من دون بعض التعميم او التبسيط بفعل الاكتفاء ببعض الدراسات الميدانية والاستطلاعات دون غيرها. ففي استطلاع أجرته مؤسسة غالوب Gallup عام ١٩٨٤ انخفض عدد الذين يؤمنون بأن الكتاب المقدس هو صحيح بحرفيته من ٦٥٪ عام ١٩٦٤ الى ٣٧٪ بعد عشرين سنة[٥]. ويبيّن الاستطلاع نفسه ان شعبية الجنّة لم تتغيّر فيما انخفضت نسبة المؤمنين بوجود جهنم. ولا يقتصر التغيير على هذا الانخفاض بل على المعنى الذي تعطيه الكنائس، ومعها

المؤمنون، للمصطلحات. لقد عرفت العقائد المسيحية التقليدية قراءة جديدة وصار للكلمات وقع أو إيحاء مختلف عن الماضي.

ويبدو للمراقب، متخصصاً كان أم غير متخصص، ان أسرع طريقة لرسم ملامح التغيير في محتوى بعض العقائد المسيحية التقليدية هي القول ان كل ما ينتمي الى ما فوق الطبيعة أصبح عند فئات كبيرة ممن يقولون انهم مسيحيون عرضة للتأويل الذاتي أو النفساني.

كان الدين يختص بالألوهة وعلاقة الإنسان بها. وكان الله في نظر المتدينين قوة كبيرة متعالية وخارجة عن الإنسان. أما الكتاب المقدس فهو كلمة الله الموحى بها فيما المسيح كلمة الله المتجسّد الذي مات على الصليب لافتداء الناس. وكان ذلك كفّارة عن خطاياهم. لقد درج المسيحيون على الإيمان بان المعجزات ممكنة وان الله يعطي القوة على اجتراحها. وآمنوا بان الجنة وجهنم موجودتان حقيقة وان الواحدة أو الآخرة مقر الإنسان بعد الممات.

لكن الأمور تغيّرت في التعليم الديني كما يمارس اليوم وفي وعي المؤمنين العاديين. وبالنسبة الى عدد كبير منهم، لم يعد الله الهاً شخصياً، ذا كينونة قائمة بذاتها بل نوعاً من القوة الغامضة التي غالباً ما يجدها المرء داخل ضميره. ولم يعد الكتاب المقدس كلمة الله بل كتاباً تاريخياً يضم توجيهات أخلاقية. وباتت المعجزات صوراً شاعرية لا وقائع أو أحداثاً يتخيلها البسطاء. ومالت فئة واسعة من المسيحيين الى التخفيف من الوهية المسيح، على نحو يذكّر بالآريوسية، وصولاً الى حدّ اعتباره مجرد نبي ومعلّم ومصلح اجتماعي. واعتبرت هذه الفئة ان الجنة وجهنم حالات نفسية ليس إلاّ.

ان لهذه التغييرات دلالة ظاهرة. إنها في نظر الكثيرين تطويع المسيحية لكي تتلاءم مع عقلانية العالم المعاصر. فهي، أولاً، تنقذ ما يمكن إنقاذه من عناصر الايمان الأساسية عوض ان يطيح بالدين اصطدام اليقين الإيماني مع المعرفة العقلية. وتخفف هذه التغييرات، ثانياً، من الحاجة الى الجدال مع الأديان الأخرى. فإذا كانت جهنم حالة نفسية لا داعي للنقاش في طبيعتها وكيفية تجنّبها. واذا كان المسيح نبياً ومعلماً ومُصلحاً اجتماعياً بطلت الحاجة

الى شرح عقيدة الثالوث والتناظر في وحدة الطبيعتين الالهية والانسانية. واذا كان الدين ينتمي الى المستوى الذاتي من واقع الانسان فلا ضرورة ان يكون للاصدقاء والجيران الدين ذاته. واذا كانت الحقيقة غير مستمدة من الوحي بل نسبية للبحث الانساني عنها، ليس من فرق بين دين وآخر يستحق أن يتوقف المرء عنده.

لقد تعاقبت هذه التغييرات منذ أواخر الثلاثينات من القرن العشرين، منذ ان جاء على لسان هاري امرسون Harry Emerson، إحدى الشخصيات البروتستانتية البارزة قوله ان نقطة البداية في المسيحية ليست الايمان الموضوعي بل الايمان بالشخصية الانسانية. ولذلك فان الابتعاد عن الدين لا يؤدي في آخر المطاف الى الهلاك في جهنم بل يؤول الى تصدّع في حياة الناس والى عزلة بعضهم عن بعض والى الانقسام في ما بينهم. على المنوال نفسه، ليس الدين حلاً لانه يقود المؤمن به الى الجنة بل لأنه يطلق حركة روحية داخل الانسان تحسّن نوعية حياته. لم يعد موضوع الدين أيضاً تمجيد الله وحمده بل شأناً يختص بنمو الانسان واكتمال شخصيته[٦].

وتكرّس هذا الانعطاف في البروتستانتية الأميركية في الخمسينات، حين أصدر نورمان فنسنت بيل[٧] Norman Vincent Peal كتاباً لاقى رواجاً منقطع النظير عنوانه «قوة التفكير الايجابي». فبعد سنتين من صدوره بلغ عدد النسخ المباعة منه مليونين، ومازالت مذذاك تعاد طباعته ومعه الكتب اللاحقة للمؤلف والتي تنسج على المنوال نفسه. يختزل بيل الرسالة المسيحية الى معركة بين الخير والشر ولا يشير اليهما بوصفهما حقيقتين خارجتين عنا. فالشر عنده هو أقرب الى فقدان الثقة بالنفس، أما الخير فهو بمثابة التفكير الايجابي. وبقدر ما ينظر الناس الى ذواتهم والى الغير «نظرة إيجابية» ينجحون. وهذا النجاح هو في حقيقة الأمر الوجه الآخر للخلاص. والذين يعجزون عن اعتناق هذا المبدأ أو يرفضونه يهلكون أي انهم يُحرمون، أو بالأحرى يحرمون أنفسهم، من السعادة.

ان روحية بيل مازالت حيّة في بعض الاتجاهات اللاهوتية ذات الجاذبية الكبيرة، على غرار ما يدعو اليه في خطبه وبشارته القس الشهير روبرت شولر

Robert Schuler . لقد استهل هذا الواعظ الكاليفورني حياة الشهرة بإلقاء الخطب في ساحة يدخل الناس إليها بسياراتهم لمشاهدة أفلام السينما، ثم أطلق برنامجاً تلفزيونياً يدعى «ساعة القوة» The Hour of Power الذي سمح له بجمع تبرعات لبناء كنيسة من زجاج ضخمة، دعيت كاتدرائية الكريستال بعدما كلف تشييدها ١٦ مليون دولار. في أواسط الثمانينات صار برنامج شولر التلفزيوني الأكثر شهرة بين البرامج الدينية. وفي خطى بيل، بشّر صاحبنا بما سمّاه غير مرة «انجيل النجاح» وأطلق على تعليمه نعت «لاهوت الامكانية». ويختلف هذا التعليم عن المسيحية التقليدية بقراءته النصوص الانجيلية، وأهمها التطويبات، من منظور تحقيق السعادة الانسانية. فالتطويبات عنده دعوة للناس إلى ان يتمتعوا بالسعادة. فالذين يؤمنون بالمسيح يكافأون بالصحة والوفرة والغبطة.

في الوقت الذي بتر فيه البعد المافوق الطبيعي للإيمان المسيحي، خسرت المسيحية خصائصها السلوكية. لم يعد الزهد الذي دعت اليه المسيحية عبر العصور تحدياً مطروحاً أمام المؤمن، حتى في أبسط تعبيراته. لم يعد مطلوباً من المتدين ان يقلع عن التدخين وشرب الخمر والرقص والذهاب الى دور اللهو.

السابقون واللاحقون

بطبيعة الحال قاوم المحافظون هذه الموجة العارمة. ووعوا أنفسهم من حيث هم مقاومون لتطوير الايمان المسيحي وتعديل الممارسات الدينية حتى تتلاءم مع مقتضيات الحداثة. واستطاعوا مقارعة الأفكار والعادات الجديدة التي تبناها المسيحيون الآخرون لانهم لم يستفيدوا بنفس القدر من التغييرات الاجتماعية والثقافية التي حثت على التجديد في أمور الدين. وساعد فقرهم النسبي الكثيرين منهم في الحفاظ على طهرانيتهم. وكرهوا وسائل الاعلام والترفيه الحديثة ورأوا فيها إيحاءات شيطانية. وهي لم تكن في متناولهم في كل حال.

غير ان الأحوال الدينية تغيّرت مع اتساع الازدهار الأميركي ليشمل

الجماعات المسيحية، الجنوبية بصفة خاصة، التي كانت مقصاة عنه في الماضي. بدا أثر التغيير ظاهراً في سلوكيات الطهرانيين والأصوليين والخمسينيين وسائر المحافظين. ضعفت حربهم ضدّ ما أتت به الحداثة. وما كان أقرب الى الخطيئة، كالتبرّج مثلاً، صار مقبولاً.

وفي عام ١٩٨٨، عدّلت الجمعية العامة لكنيسة الله، وهي أقدم طائفة خمسينية، شرعتها الأخلاقية. فبدت أقل صرامة وتساهلت في أمور الملبس والمأكل والمشرب. قالت «ليس في الاعتناء بالملبس والتزيّن ما لا يرضي الله»[٨]. وحين كان المسيحيون الجنوبيون وغيرهم من الإنجيليين المحافظين فقراء وبدا لهم ان انقسام العائلة يؤدي الى المزيد من الحرمان حرصوا على رفض الطلاق. تغيّر الأمر بعد تحسّن أحوالهم المعيشية. لم يعد الطلاق من المحرّمات. أكثر من ذلك، أظهرت دراسة في عام ٢٠٠٠ ان نسبة البالغين من بين «المولودين من جديد» الذي عرفوا الطلاق قريبة من المعدل العام في الولايات المتحدة (٣٣٪ و٣٤٪). أما نسبة المساكنة خارج الزواج عندهم فقد فاجأت الكثيرين إذ بلغت ٢٥٪ وهي نسبة ليست أدنى بكثير من المعدل الأميركي العام (٣٣٪)[٩].

وكانت دراسة ميدانية تفصيلية أجريت عام ١٩٨٢ حول تطور الانجيليين المحافظين سألت الاسئلة نفسها التي سبق ان تضمّنتها دراسات سابقة في الخمسينات والستينات فوصلت الى نتائج غير متوقعة. فعام ١٩٥١، أجابت غالبية الطلاب الانجيليين المحافظين الساحقة بالقول ان الرقص غير مقبول من الناحية الأخلاقية. وفي عام ١٩٨٢، لم يعترض أحد من الطلاب المستَطلعين على الرقص. وفي عام ١٩٥١ اعتبر ٩٨٪ من الطلاب المذكورين ان شرب الخمر خطيئة وانخفضت النسبة الى ١٧٪ عام ١٩٨٢. واعتبر ٥٠٪ من الطلاب الذين جرى استفتاؤهم عام ١٩٥١ ان مشاهدة أفلام هوليوود غير مقبولة أخلاقياً ولم يقل أحد في عام ١٩٨٢ القول نفسه. وفي ما يتعلق بالأخلاق الجنسية كانت المسائل واضحة. ففي استطلاع عام ١٩٦٠ اعتبر ٨١٪ من الانجيليين ان الملاطفة الجنسية غير مقبولة أخلاقياً. غير ان هذه النسبة انخفضت الى ٤٩٪ عام ١٩٨٢[١٠].

بالاضافة الى استطلاعات الرأي، هناك أدبيات كثيرة، سير ذاتية وروايات تاريخية وشهادات، تفسِّر أو تبرِّر هذا التغيير السريع نسبياً في وعي الانجيليين المحافظين الديني وسلوكياتهم. ويروي أحد علماء الاجتماع المعروفين بتفصيل شديد زياراته لعائلات إنجيلية محافظة وإقامته عندها. لكن ملاحظته الأولى والتي استوقفته طويلاً، تبقى في انه لم يجد ما يميّز هؤلاء الناس ظاهرياً عن سواهم[١١]. فبعد مرحلة كانت فيها مظاهر المسكن والملبس والمأكل والاختلاط والترفيه تختلف عند الانجيليين المحافظين عن غيرهم من المسيحيين، صار التباين محصوراً في المعنى «الباطني» الذي يعطيه هؤلاء وأولئك لما يبدو مشتركاً بينهم.

ورغم عدم اعترافهم بذلك، اقتدى الانجيليون المحافظون متأخرين عقدين أو ثلاثة بالمسيحيين الليبراليين وفي غير مجال. وصحيح انهم لم يعترفوا بذلك جهاراً، بل نسبوا ما غيروا بأنفسهم الى حاجة التكيّف من أجل تبشير أكثر فاعلية.

من أهم ما يجدر ذكره في هذا السياق هو تلك النزعة الأميركية بامتياز لنفسنة الخبرة الدينية. لقد أرسى بيل من خلال مفهومه للتفكير الايجابي علاقة وثيقة بين التدين والاعتراف بقيمة الذات. لكنه تعرّض للنقد من الانجيليين المحافظين لانه عبّد الطريق أمام التخلّي الليبرالي عن فكرة الخطيئة وتغيير معنى الخلاص، اذ جعله شأناً علاجياً أو سعياً وراء حياة أفضل عوض ان يكون مشدوداً الى الآخرة. إلا ان الموقف النقدي هذا لم يصمد طويلاً أمام تأثر الانجيليين المحافظين بالثقافة الأميركية السائدة، وبالطلب المتزايد لروحانية وأخلاقية متمحورة حول حاجات الفرد، أكثر مما هي مشغولة بالأمانة للتراث الديني الأصلي. يكفي للدلالة على ذلك، استعراض عناوين بعض الكتب الأكثر رواجاً بين الانجيليين المحافظين في الثمانينات: «يمكنك أن تصبح الشخص الذي تريد أن تكون»، «الشخصية السليمة والحياة المسيحية»، «كيف تصبح أحسن ذاتك وتتمتع باحترام الذات: الإصلاح الجديد»[١٢].

لقد تدافعت المتغيرات الاجتماعية والثقافية ومعها الممارسة السياسية

وفق المعايير الديموقراطية لتصل بالكثير من المؤمنين الى نوع من النسبية العملية. وأدرك المسيحيون أياً كان من أمر تمسكهم بالعقيدة ومحافظتهم على القيم التقليدية، ان ما كان من الدين ملزماً للجميع أصبح مختصاً بالذين يقبلونه مختارين. هناك أدلة كثيرة تؤكد ان المسيحيين الأميركيين، على اختلاف أطيافهم، باتوا أكثر استعداداً وقدرة على التمييز بين ما هو مطلوب من المؤمنين بفعل اعتناقهم المسيحية الواعي وما ليس مطلوباً من غيرهم.

في عام ١٩٢٤ أجريت دراسة في مانسي Muncie بولاية انديانا، وهي مدينة صغيرة تضم مسيحيين من مذاهب متنوعة. سألت الناس رأيهم في القول: «ان المسيحية هي دين الحق الوحيد ويجب هداية كل الناس اليها»، فردّ ٩٤٪ بالايجاب[١٣]. وحين طرح باحثون السؤال نفسه عام ١٩٧٧، وفي المدينة نفسها، على عينة من الشباب الممارسين دينياً، أجاب ٤١٪ منهم انهم يوافقون. واختصر الباحثون خلاصة الدراسة بالقول: ان نصف شبيبة هذه المدينة المنتمين الى كنيسة من الكنائس والمؤمنين بيسوع المسيح وبصحة الكتاب المقدس لا يعتبرون ان دينهم صالح لكل الناس وليسوا مهتمين كثيراً بهداية غير المسيحيين الى المسيحية[١٤].

وتؤكد استطلاعات للرأي أخرى أفول عصر التماسك العقائدي لدى الانجيليين المحافظين. ففي دراسة ميدانية أجريت عام ٢٠٠٠، عرضت على عينة ممّن يسمون أنفسهم «مولودين من جديد» ثلاثة عشر تأكيداً عقائدياً تشكل النواة الصلبة للإيمان المسيحي كما تبشّر بها رسمياً الجماعات الانجيلية. لم يظن أحد أن ١٪ فقط من أفراد العينة وافق عليها كلّها. بالإضافة الى ذلك، وفي لائحة من واحد وعشرين هدفاً للحياة احتلت العلاقة بالله المرتبة السادسة بين الأهداف التي وضعها المولودون من جديد في رأس أولياتهم. وجاء «العيش الرغيد» في مرتبة أعلى منها[١٥]. أما بين المراهقين الذين يعتبرون أنفسهم «مولودين من جديد»، فنسبة الذين لا يعتقدون بوجود الشيطان بلغت ٦٥٪ والذين لا يؤمنون بالروح القدس كانوا ٦١٪. ولعلّ أكثر النتائج دلالة من حيث النزوع الى النسبية قول ٤٨٪ من

المولودين من جديد، فقط لا غير، إنهم على يقين بأن الحقائق الأخلاقية مطلقة[١٦].

الخروج من الانطواء التقوي

لا يمكن استثناء الانجيليين المحافظين، رغم حرصهم على اسمهم وتكرارهم الخطاب التقليدي، من التغيير الذي أصاب الدين في الولايات المتحدة، خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة. ويختصر هذا التغيير القول التالي: «بات التدين اليوم داخلياً أكثر مما هو خارجي، فردياً أكثر مما هو جماعي، اختبارياً أكثر مما هو عقلي، خاصاً أكثر مما هو عام»[١٧].

غير انهم يواجهون تحدياً خاصاً يتصل بالعلاقة مع الحداثة ولم يجدوا بعد، على غرار المسيحيين الليبراليين، طريقة لجبهه. فمن خصائص التحديث انه يزيد من تقسيم حياة الناس الى مجالات منفصلة وفي مقدم ذلك يأتي الفصل بين العام والخاص. فعلى سبيل المثال، تؤدي القوانين الرافضة للتمييز بين الناس الى انحسار مساحة الدين في الحياة العامة. ويشير تعدد القوانين هذه الى نزعة متعاظمة لضبط مفاعيل التنوّع الديني الانقسامية على العلاقات الاجتماعية، وذلك عن طريق توسيع هامش الحرية في مجال حياة الأفراد والعائلات وتضييقه في المجال العام.

يعارض الإنجيليون المحافظون هذا الفصل ويقولون ان طاعة الله لا يمكن ان تُحصر في النطاق الفردي فيما يُعرض عنها على الصعيد العام. ويؤكدون ان خروج الدين من الحياة العامة يحدث فراغاً تملأه الرذائل. بالإضافة الى ذلك انه يجعل التديّن والسلوك بمقتضى الأخلاق المسيحية على الصعيد الفردي والعائلي أصعب منالاً. من هنا ان بعض المحافظين، قديماً وحديثاً، اختار نوعاً من الانسحاب او العزوف عن الحياة العامة وانكفأ الى مجتمعات صغيرة بديلة تحاول ان تحمي خصوصيتها من اختراق الحياة العامة لها. ويبلغ ذلك حداً أقصى عند بعض الطوائف كالآميش Amish الذين يسعون للحفاظ على طريقة عيشهم التقليدية «غير ملوّثة» بالحداثة. ويظهر أيضاً بصيغ قصوى عند غيرهم أمثال العائلات الانجيلية المحافظة التي لا

ترسل أولادها الى المدارس بل تقوم بتعليمهم داخل المنزل أو بالتعاضد بين أسر متجاورة ومتشاركة في العقيدة الدينية.

ليس الخروج عن المجتمع، وهو ردة فعل أقلوية، حلاً حقيقياً في نظر الكثيرين، خاصة وان عدد الانجيليين المحافظين الكبير والمتكاثر، ومحاولات تنظيم صفوفهم، حافز على التدخل في الحياة العامة بما يوقف المسار الحالي و«يعيد أميركا الى مسيحيتها». ولعلّ تاريخ الأصوليين في أميركا راوح بين قطبَي الانطواء التقوي واقتحام الحياة العامة. كانوا حتى السبعينات مشغولين بالسير في حياتهم «مع الله» فيما البلاد «تسير مع الكلاب»[١٨]. ثم نشطوا مذذاك في محاولة لاستعادة السيطرة المسيحية على الحياة العامة.

غير ان صخب هذا النشاط لا يخفي في نظر المراقبين محدودية نجاحهم في تحقيق أهدافهم. صحيح انهم عززوا قوة الجناح اليميني في الحزب الجمهوري وساهموا في وصول الرئيس الحالي الى السلطة. إلاّ انهم لم يوفقوا في خفض عدد عمليات الإجهاض، وان وفّقوا أخيراً في حمل الرئيس بوش على منع بعض أنواع الاجهاض. ولم يعيدوا النساء الى منازلهن. ولم يفرضوا التعليم الديني الإلزامي في المدارس. ولم يغيروا برامج التدريس لكي تأتي أكثر انسجاماً مع الرواية الكتابية لبدء الخليقة. ولم يحجروا على مثليي الجنس.

في المقابل استطاعوا أحياناً التأثير في الحياة السياسية أكان ذلك عن طريق دعم المرشحين والحصول على وعود منهم أو من خلال حملات ضد مرشحين ليبراليين. وكان لهم نفوذ انتخابي في الحالات التي يكون فيها الجسم الانتخابي صغيراً، كما في الانتخابات الحزبية التمهيدية لاختيار المرشحين. ومن أبرز الأمثلة على ذلك حملة الواعظ الانجيلي اليميني بات روبرتسون، عام ١٩٨٧، للفوز بترشيح الحزب الجمهوري للرئاسة. فنجاحه في انتخابات ولاية ايوا Iowa لم يتكرر في أية ولاية متوسطة الحجم أو كبيرة. وعلى منواله حاول غاري باور Gary Bauer وكان فشله أكبر. ولم يحققوا نجاحاً كبيراً على صعيد القوانين وتطبيقها رغم بدايات مشجعة لهم.

تكفي الإشارة الى ما جرى في الاباما حيث سمح رئيس القضاء في الولاية بإقامة نصب للوصايا العشر في ساحة قصر العدل، ثم أزيل بعد سنتين بأمر قضائي، وردت المحكمة العليا الطعن المقدّم ضدّ هذا الأخير.

لقد ربح الانجيليون عدداً من الدعاوى أمام الهيئات القضائية الدنيا وخسروا معظمها على مستوى القضاء الأعلى. ويعزى ذلك الى القوة الدستورية التي يتمتع بها مبدأ الفصل بين الدين والدولة، والتي لم تؤثر فيها كثيراً تعيينات أجراها رونالد ريغان وجورج بوش الأب لقضاة محافظين في المحاكم الفدرالية.

وهناك واقع غني بالدلالة لا يلتفت اليه بشكل كاف المتحمسون لصعود الانجيليين المحافظين وعدد من الذين يخشونه. فهذه الفئة من المسيحيين باتت مضطرة لاستخدام لغة علمانية في الدفاع عن قضاياها. فلا يقولون مثلاً ان قصة الخليقة الكتابية يجب ان تدرّس في المدارس لأن مصدرها الوحي الالهي. بل يقبلون مسلّمات العلم العلماني ويشددون على ان الرواية الكتابية تفسيرية وهي لا تتناقض مع الحقائق العلمية الخاصة بنشوء العالم والانسان. ولا يرفضون الطلاق بحجة ما جاء في تعليم بولس الرسول، بل يبيّنون آثاره الاجتماعية. وحين يخوضون معاركهم ضد الإجهاض يلجأون الى حجة علمانية بالقول انه يتناقض مع الحق في الحياة الذي تنص عليه شرعة حقوق الانسان.

بالإضافة الى كل ذلك، يجد الانجيليون المحافظون أنفسهم مضطرين للمشاركة في اللعبة السياسية وفق الشروط والمعايير المحدّدة لها. فيوم أسّس القس جيري فالويل حركة «الأكثرية الأخلاقية» Moral Majority، قال البعض ان الأخلاقيين، بالمفهوم الانجيلي المحافظ، ليسوا أكثرية لكنهم قادرون على ان يصبحوا كذلك اذا ما تحالفوا مع سواهم. والحاجة الى التحالف تفترض تنازلات تثير انقساماً بين الانجيليين أنفسهم. فالمعمداني لا يخفي يوم الأحد إدانته العقدية للكثلكة والبابا. لكنه يجد نفسه يوم الاثنين باحثاً عن أصدقاء وحلفاء كاثوليك للمشاركة معه في حملة ضد الاجهاض أو من أجل الحصول على دعم مالي من الحكومة للمدارس الدينية.

من هاجس الآخرة الى هموم الدنيا

لم يُصب الانجيليون المحافظون النجاح الذي وعدوا أنفسهم به. إلاّ انهم صاروا قوة يُحسب لها حساب، وحققوا اختراقاً هنا وثمة في الحياة العامة. كانت السياسة لعقود خلت موصدة في وجه من كان منهم غير راضٍ عن حالة العزوف السابقة. ولا يخفي الناشطون بينهم قدراً من التفاؤل بالمستقبل. ولم يعد هذا التفاؤل مستنداً إلى ذاك الاعتزاز بانهم أمناء للمسيحية الحق فلا يساومون ولا يناورون لانهم واثقون بصحة دعواهم وجاذبيتها. بل استمدّ قوته من احساس بالفاعلية واعتراف، ضمني عند معظمهم، بان التكيّف شرط لها يتعذر تجاوزه. لكن هذا التفاؤل لا ترضى به فئة أخرى من الانجيليين المحافظين الذين تقلقهم «خسارة أنفسهم» بوصفها الوجه الآخر لاتساع شعبيتهم الظاهرة وتنامي قوة حضورهم في الحياة العامة. ويختصر مؤرخ المسيحية الأميركية المعروف مارتن مارتي هذا المأزق بسؤاله «هل يُفسد النجاح الحركة الانجيلية؟[19]».

وبالصورة نفسها ينظر إلى الواقع غير دارس للمسألة من الانجيليين المحافظين. فيميل الى مقارنة التغيير الذي عرفته جماعتهم بذاك الذي رسم ملامح الشخصية البروتستانتية الليبرالية اليوم. ولا يعني ذلك القول انه طالما أصبح انجيليو الأمس ليبراليي اليوم فمن المرجح ان يتحوّل انجيليو اليوم الى ليبراليي الغد. فالمقارنة غير القياس.

ويخصّ أحد الباحثين بالاهتمام تطور الامكانات المادية عند الانجيليين المحافظين بوصفه تعبيراً عن النجاح وعن التغيير الملتبس في آن واحد[20]. فبعد استعراض قوة المؤسسات الانجيلية المختلفة التي يبلغ مجموع ميزانياتها التقديري ٢٢ بليون دولار، يبحث في حجم التغيير الذي أحدثه الغنى الجديد عند من نشأوا على درجة من الفقر النسبي، قياساً بكنائس الخط الرئيسي. ولا يخفي اعتزازه بان ٨٠٪ من الأميركيين الذين يتبرعون بأكثر من ١٠٪ من مدخولهم هم من الإنجيليين المحافظين. لكنه ينتقد النزعة غير الواعية إلى إحلال الوسيلة مكان الغاية. فتصبح الفاعلية في جمع التبرعات أهمّ من التربية على العطاء، وتقوية المؤسسات عن طريق تأمين استقرارها

المالي أعلى شأناً من الخدمة التي تؤديها هذه المؤسسات.

لقد تحوّل الانجيليون المحافظون عن مسيحية المحرومين الى بروتستانتية الازدهار، ومن هاجس الآخرة الى هموم الدنيا. وشهدت قيمهم تبدّلات عميقة. كانوا فخورين بحرصهم على ما رأوه حقيقة الولاء للمسيح وبأنهم لا يأبهون الى قلة عددهم أو كثرته. فصاروا يحسبون نموهم العددي واتساع نفوذهم علامات رضى الهي وبركة. وصاروا أكثر صبراً على انسياب الزمن وقدرة على الانتظار حتى تأتي الأشياء في مواعيدها، رغم ان حمّى توقع نهاية الأزمنة لم تغب عن فئة منهم شديدة الحماسة والقلق. وتجاوزوا الفصل بين تقوية الفرد وسياسة الجماعة. وتخلّوا عن حذرهم السابق حيال اختلاط العبادة بنوع من الاحتفالية الترفيهية. ولم تعد الصلاة والحرارة التي تدبّها في جماعة المصلين أقل شأناً من مضمونها. ولعلّها تميل أكثر من الماضي إلى التغطية على هزالة المحتوى أو خروجه عن التقليد الذي عُرف به الانجيليون المحافظون.

باختصار، صار الانجيليون المحافظون انشط سعياً وراء الغنى والشعبية بين الناس وأكثر اهتماماً بتأمين سلع متنوعة وذات قدرة تنافسية في سوق الاستهلاك الديني. لقد غلب عندهم منطق اقتصاد السوق، لا في شؤون الدنيا فحسب بل في قضايا الدين أيضاً. ومن شأن ذلك ان يبرر السؤال عن أي ثمن سيدفعه الانجيليون مقابل هذه الغلبة على غرار ما دفعه الليبراليون لمّا قبلوا بسيادة القيم الإنسانية والعلمانية فباتت بروتستانتيتهم أقرب الى «دين الخروج من الدين».

مساومة هنا ومقاومة هناك

لقد دفع البروتستانت الليبراليون الثمن المذكور مختارين. لكنهم حافظوا على جذوة المقاومة، باسم المسيحية، للوضع السياسي والاقتصادي القائم. غير ان مواجهتهم للقيم الاجتماعية والأخلاقية الجديدة باتت نادرة. فباسم ثقافة حقوق الانسان والديموقراطية واحترام التنوّع تعايشوا مع تلك القيم. تحوّلت طاقة المقاومة نحو السياسة الأميركية، ما يتصل بالعلاقات مع

شعوب الجنوب في الخارج وما يخص التفاوت الاجتماعي في الداخل. وتوجّهت نحو مناهضة التعصّب، وبقوة مضاعفة بعد الحادي عشر من أيلول- سبتمبر ٢٠٠١، وخاصة ما يصدر منه عن الانجيليين المحافظين. ولم يعد التهويل بنفوذ هؤلاء المتزايد مجرد صيحة حرب ضد عدو خارجي بل حافزاً للانصراف الى وضع كنائسهم الداخلي وتقوية مناعة المؤمنين العاديين المعرّضين للتأثر، الذي لا يفصح عن ذاته دائماً، بأفكار الانجيليين المحافظين ومواقفهم.

بخلاف الليبراليين، تبدو فئة واسعة من الانجيليين المحافظين غير راغبة أو مستعدة أن تدفع بشكل واعٍ ثمناً دينياً حقيقياً مقابل انخراطها في الحياة السياسية وتكيّفها، على غير صعيد، مع الحداثة الأميركية. فالانجيليون المحافظون، وإن كانوا دعاة للحفاظ على القيم المسيحية التقليدية، ليسوا مجرد محافظين. ذلك ان ما يسعون للحفاظ عليه يكاد يكون محصوراً داخل البيوت بعدما أخرج من الساحة العامة. انهم أيضاً مقاومون للوضع القائم وهم يعون ان في تدينهم طاقة اعتراضية كبيرة في وجه ثقافة سائدة تقبل التنوّع ولكنها تستثني منه أصحاب القناعات المسيحية القوية.

واذا أخذنا مثلاً إصرار عشرات الملايين من مسيحيي أميركا على التمسك بقصة الخليقة حسب ما جاء في الكتاب المقدس، تظهر أمامنا صعوبة هذه المقاومة وقوتها في آن واحد. فلجوء العديد من الانجيليين الى موقف دفاعي، يقول إن الرواية الكتابية لا تتناقض مع العلم، يكشف عن تلك الصعوبة. وكنّا قد أشرنا اليها بكلام آخر لدى الحديث عن اضطرار الانجيليين المحافظين للقبول بمسلّمات العلم العلماني. أما القوة فنراها في موقف هجومي تعتمده فئة أخرى من الانجيليين المحافظين. وهناك نسبة عالية منهم(٤٤٪) تصرّ على ان كل ما جاء في نظرية النشوء والارتقاء مخالفاً للرواية الكتابية هو خطأ[٢١]. ولا يأبه هؤلاء بالسخرية التي يتعرضون لها على لسان أهل العلم والتربية بل يستمدون رسوخاً في قناعاتهم من حرارة الجماعة الدينية التي ينتمون اليها ومن تضامن أبنائها في وجه خصومهم من أصحاب النفوذ المعنوي والثقافي الكبير.

ويرسم المثل نفسه صورة أوضح لعلاقات القوى داخل المجتمع الأميركي وكيفية مقاومة الانجيليين المحافظين للثقافة السائدة. ففي عام ١٩٩٩ أصدر مجلس التعليم في ولاية كانساس قراراً يلغي إلزامية تدريس نظرية النشوء والارتقاء في المدارس الرسمية. وأثار هذا القرار ردة فعل غاضبة في الأوساط العلمية والتربوية وقيل ان التلامذة الذين لا يتعرفون الى هذه النظرية العلمية لن يكونوا مجهّزين فكرياً ولا روحياً للعيش في العالم المعاصر. واذا ما أجيبوا عندئذ ان الأهل لا المدرسة، أصحاب القرار في اختيار دين بعينه يعلّم لأولادهم، ردّوا ان الأهل لا المدرسة، أصحاب القرار أيضاً في اختيار أي علم يلقَّن لأولادهم. وحين يُقال ان المدارس الرسمية هي المكان الصالح لتعليم العلوم لا الدين، يُجاب على ذلك انها ليست المكان لتعليم يتناقض مع الدين. وعلى هذا النحو يصل السجال الى الحرب الايديولوجية والتي لا يحسمها العقل بل ميزان القوى[٢٢].

وفي هذه الحرب، لا يحرج كبار الإنجيليين المحافظين القول ان نظرية النشوء والارتقاء وسواها من النظريات العلمية لا يمكن ان تطعن في صحة الحقائق المقدسة. لذلك لا يقبلون الفكرة التي ينسبونها الى البروتستانتيين الليبراليين والتي ترى ان الإيمان المسيحي قادر على تغيير قيمه التقليدية لان القيم الإنسانية تغيّرت. أكثر من ذلك يتهمونهم بالاعتقاد ان النظام الأخلاقي لا يأتي من «فكر الله» بل من «مخيلة الناس»[٢٣]. بالطبع، لا يتعرف المسيحيون الليبراليون على أنفسهم في هذه الصورة التي يرسمها غلاة الإنجيليين المحافظين عنهم. كما لا يتعرف الإنجيليون المحافظون على أنفسهم في الصورة التي تقدمها عنهم الأوساط الليبرالية. واذا ما اعترفوا بان لا مندوحة من التكيّف مع الحداثة فانهم يؤكدون ان تغيير المتغيّر لا يأخذ معه شيئاً من جوهر الإيمان الثابت الذي لا يفرِّطون به. في حقيقة الأمر، لم يتنازل الليبراليون المسيحيون عن كل شيء ولم يحافظ الإنجيليون المحافظون على كل شيء. والحديث عندهم عن مقاومة الثقافة السائدة لا يستطيع إخفاء مقدار المسايرة لها، في وقت باتوا طرفاً في ما يمكن تسميته «التحالف الحاكم». ان هذه المشاركة في السلطة، أو التأثير على صنع قرار

الحكام، تحد من قدرة الإنجيليين المحافظين أو من رغبتهم في معارضة عدد من القيم الرائجة. ولا تخولهم في كل حال ان يحسبوا أنفسهم كما كانوا تيار اعتراض أو مقاومة.

و لم يعد واقعياً التهويل الليبرالي بخطر إعادة أميركا الى الوراء بفعل تنامي قوة الإنجيليين المحافظين. يبدو للكثيرين ان نفوذ هؤلاء في الحياة السياسية الأميركية بلغ حدّه. ويلتقي المفرطون في الواقعية والمثاليون من الإنجيليين المحافظين على القول بان قصة النجاح السياسي هذه قد لا تطول. بيد ان نجاحاً آخر يبدو أكثر احتمالاً وهو التوسع على حساب قاعدة الكنائس الليبرالية. لقد بيّنت السنوات الأخيرة ان النخب الليبرالية المسيحية مسموعة أحياناً خارج الأوساط المتدينة أكثر مما هي قادرة على أخذ جمهورها معها مثلاً في الكثير من مواقفها. فمعارضتها للحرب على العراق، والتي سبق الحديث عنها، لم تكن ذات شعبية واسعة. ليست القاعدة في كنائس الخط الرئيسي بمنأى عن تأثير المتديّنين المحافظين. أما هؤلاء فان اتساع تأثيرهم المطرد، على حساب البروتستانتية الليبرالية، يبدو مرهوناً باستعدادهم وقدرتهم على تغيير محسوب يرسي معادلة جديدة بين التديّن والقيم الرائجة في المجتمع الأميركي.

هوامش الفصل الخامس

١ - نذكر من أهمّ هذه الكتابات :

- Andrew M. Greeley, *Religions Change in America*, Cambridge, Harvard University Press, 1989.

- Rodney Stark, *Secularization, Sociology of Religion*, N° 60, 1999, pp. 249-273.

٢ - مثل : Steve Bruce, *God is Dead, Secularization in The West*, Blackwell Publishing, 2002.

٣ - Peter Beyer, *Post modernism and Religion, Discussant's Comments*, Conference of The American Sociology of Religion, 1996.

٤ - Bryan Wilson, *Religion and The Churches in America*, in W. Macloughlin and R.N Bellah (eds), Religion in America, Boston, 1968, pp. 73-110.

٥ - Robert Wuthnow, *The Restructuring of American Religion*, Princeton University Press, Princeton, 1988, p. 165.

٦ - Steven Bruce, *A House Divided: Protestantism, Schism and Secularization*, London, Rout ledge, 1990, p. 84.

٧ - Norman Vincent Peal, The.

٨ - Joseph B. Tamney and Stephen D. Johnson, *The Popularity oh Strict Churches*, Review of Religions Research, N° 39, 1998, p. 219.

٩ - Barna Research, *The Years Most Intriguing Findings*, Barna Research Online, 2003.

١٠ - James Hunter, *Operationalizing Evangelicalism: A Review, Critique and Proposal*, Sociological Analysis, 42, 1982, pp. 363-372.

١١ - Steven Bruce, *God is Dead*, Op. cit., p. 211.

١٢ - «You Can Become The Person You Want to Be», «The Healthy Personality and The Christian Life» and «How to Become Your Own Best Self and Self Esteem: The New Reformation».

راجع

James Hunter, *Evangelicalism: The Coming Generation*, Chicago, University of Chicago Press, 1987, 69-70.

١٣ - Robert and Helen Lynd, *Middletown: A Study of Contemporary American Culture*, New York, Harcourt, Brace and Co, 1929, p. 316.

١٤ - Theodore Caplow (et al). *All Faithful People: Change and Continuity in Middletown's* Religion, Minneapolis, University of Minnesota Press, 1982, p. 98.

١٥ - Barna, Research, Church attendance, op. cit.

١٦ - Barna Research, *The Year Most Intriguing* Findings, Op. cit.

١٧ - Wade Clark Roof, *God is in the Details: Reflections on Religion Public Presence in the United States in The Mid -1990*, Sociology of Religion, J7, 1996, p153.

١٨ - Steve Bruce, Op. cit. p. 214.

١٩ - Martin Marty, *Will Success Spoil Evangelicalism?* Christian Century, July 19-26,2000,pp 757-761.

٢٠ - Michael S. Hamilton, *We are in The Money, How Did Evangelicals Get so Wealthy and What Has it Done To Us?* Christianity Today, June 12, 2000.

٢١ - George Gallup Jr. and D. Michael Lindsay, *Surveying the Religious Landscape*: Trends in Us Beliefs, Harrisburg, Morehouse Publishing, 1999, pp. 36-38.

٢٢ - Stephen l. Carter, *God's Name in Vain*, Op. cit, pp. 172-173.

٢٣ - Ibid, p. 174.



الخاتمة

في ختام هذه الجولة في دنيا الدين، السريعة وان كانت غير مستعجلة، يحتمل الحديث عن «الاستثناء الأميركي» الكثير من المجازفة. صحيح ان الواو التي تفصل بين الدين والسياسة، وفي الوقت نفسه تجمع بينهما، ذات خصوصية أميركية. غير ان التفرّد هذا ليس استثناء. اللهم إلاّ حسبنا استثناءات كل البلدان التي يلعب الدين فيها دوراً كبيراً في تشكيل صورة الذات القومية ويؤثر في الحياة العامة.

في حقيقة الأمر، تبدو فرنسا، ومعها عدد من البلدان ما بعد الصناعية في أوروبا تحكمها نظم سياسية وقانونية مشابهة، «استثناء» من حيث خروج الدين وإخراجه من الحياة العامة والسعي للحيلولة دون عودته إليها، بواسطة المسلمين او سواهم.

لقد رأينا في هذا الكتاب، ان الفارق الرئيسي بين المجتمعات، والخاص بالعلاقة بين الدين والدنيا، يكمن في ميزان القوى الاجتماعي والسياسي والرمزي بين حركتين متعارضَتين ومتزامنَتين. تواصل الأولى عملية الدهرنة المستمرة منذ ما يناهز القرنين في المجتمعات التي انطبعت الثقافة السائدة فيها بأفكار عصر الأنوار، وتشكلت فيها بنى سياسية تستند الى قيم كونية. أمّا الثانية فهي حركة مضادة للدهرنة تتعدّى مجرد المقاومة الموقتة أو تخلّف بعض الفئات الاجتماعية عن اللحاق بالمسيرة المحتومة. ذلك انها تعبير في المقام الأول عن الحاجات الدينية للأفراد والجماعات، وعلى صعد الانتماء والذاكرة والمعنى. هي تتصل بالحداثة المأزومة وبمحاولة لسدّ الفراغات التي يُحدثها اهتزاز الصدقية التي تمتعت بها الأفكار والمؤسسات الحديثة، والتي سبق لها أن أضعفت صدقية الدين.

ان صعود التيارات الإنجيلية المحافظة في الولايات المتحدة يوحي بأن ردّة الفعل ضد الدهرنة في المجتمع، والعلمنة في السياسة، ليست هامشية

قياساً بفعلهما. غير أن تكيّف هذه التيارات مع الحداثة الأميركية، وقبلها تكيف الليبرالية البروتستانتية الى حدّ دهرنة ذاتها والخروج عن البروتستانتية التاريخية نفسها يشير الى أن عودة أميركا «أمة مسيحية» ليس مرجّحاً في حساب أحد.

لقد توقفنا في هذا الكتاب أمام نوعين من التديّن، البروتستانتي منه بوجه خاص. يُغلِّب الأول الأخلاق والروحانية العائمة على العقائد. ويؤمن بالكوني أكثر مما يدعو إلى ما هو خاص به. ويتمسّك الثاني بحرفية النصوص الدينية التأسيسية وتمام العقيدة ويستعيد باستمرار ذاكرة أميركا الدينية و«روحها المسيحية». كما يؤكد الأول على أفضلية خيار العدالة ويشدد الثاني على الأمانة للرسالة فتتعارض مقاربتها للسياسة الداخلية والخارجية للولايات المتحدة. ويأخذ بروتستانتيو الخط الرئيسي على أميركا انها فشلت في الدفاع عن مبادئها الديموقراطية لأنها مقصّرة في احترامها، داخل حدودها وخارجها. أما المحافظون فيكشفون عن مشكلتهم مع ليبرالية المجتمع الديموقراطي المتنوّع نفسها لا مع سوء تطبيقها.

ومن خصائص النوع الأول من التديّن انه «رخو»، فهو ينساب بين المذاهب والأديان ولا يحرجه تبدّل الانتماءات وازدواجها وينزع الى التلفيق، علنياً كان أم صامتاً. من جهته، يبدو النوع الثاني «صلباً». وهو يستمد قوّته من وضوح القناعات وثبات القيم. وغالباً ما يجد نفسه مهجوساً بالحدود بين الأديان والمذاهب وبخصوصية الانتماء ووحدانيته.

ولقد شغلت جاذبية التديّن الصلب غير باحث في العلوم الاجتماعية والدينية، من الأميركيين أو سواهم. وغالباً ما توقفوا عند الثقة التي تولد داخل التوازن بين المتطلبات العديدة والتعويضات الكثيرة، أي بين الجهد الذي يقتضيه الالتزام الصارم والطمأنينة التي يأتي بها الرسوخ في اليقين والتسليم بالثوابت. إلا أن الجاذبية المذكورة، وان سمحت للإنجيليين المحافظين بالخروج من معاقلهم في جنوب الولايات المتحدة والانتشار في شمالها وغربها، ليست ذات تأثير جلي إلاّ في نطاق محدود. فالإنجيليون المحافظون يخاطبون أولاً الإنجيليين المحافظين وأولادهم ويستميلون فئة

من أهل التديّن الرخو عن طريق السجال مع البروتستانتية الليبرالية . غير انهم نادراً ما يستقبلون العائدين الى الروحانية ، ذلك أن عودة هؤلاء للدين كثيراً ما تسلك طريق التوليف والاختبار والاختيار الحر بين هذا الوجه أو ذاك من وجوه الأديان المتعددة .

ولم يعد التفاؤل بالمستقبل لدى الإنجيليين المحافظين طاغياً كما كان في العقد الماضي ، رغم ان أحداث الحادي عشر من أيلول - سبتمبر جدّدت لبعض الوقت حماستهم . وكثيراً ما يقال اليوم ان اليمين المسيحي ليس بالقوة التي تُعطى له في وسائل الإعلام أو في حسابات السياسيين الانتخابية . ان تعظيم نفوذ الإنجيليين المحافظين يجاوب على احتياج لدى الليبراليين واليمينيين المتشددين سواء بسواء . فالأولون بحاجة الى خصم قوي لكي ينظموا صفوفهم ضدّه . والآخرون يتوسّلون الإنجيليين المحافظين للضغط على من يجنح في أوساطهم نحو اليمين المعتدل .

ويمكننا في هذا السياق أن نفسِّر حرص المحافظين الجدد ويمينيي الحزب الجمهوري على مسايرة الإنجيليين المحافظين ، فليس هذا الحرص مجرّد إرضاء لعاطفة الرئيس بوش الدينية من حيث هي شرط لتثبيت زعامته . بل انه يخضع على الأرجح لحسابات باردة لا تؤثر فيها حرارة الإيمان لدى الرئيس - المرشح إلا قليلاً . وفي هذه المسايرة يكمن شيء من هشاشة التحالف الثلاثي بين الإنجيليين المحافظين والمحافظين الجدد وأشد اليهود تأييداً لليمين الإسرائيلي ، والذي سبق الحديث عنه بقدر من التفصيل .

فالمحافظون الجدد لا يرون لأنفسهم مصلحة في الدفاع عن نظام اجتماعي وسياسي قائم على التراتبية واحترام التقاليد والنظرة التشاؤمية للطبيعة الإنسانية الساقطة في الخطيئة والتي يجاهر بها الإنجيليون المحافظون . فهذه الفئة من الليبراليين ، الذين تحوّلوا الى نوع من القوميين يمجِّدون قوة أميركا ويؤمنون بضرورة الحفاظ عليها عن طريق استخدامها ، تضم متفائلين ومثاليين من الذين يدينون بدين النموذج الأميركي للديموقراطية الصالح لكل الناس .

أما الانجيليون المحافظون فيخرجون من الانعزالية لا بهدف تعميم

الديموقراطية بل لان الرسالة الخلاصية لأميركا المسيحية تدعوهم إلى ذلك.

ولا يتفق الطرفان على نوعية القيم الأميركية القابلة للتصدير ولا على تلك التي ينبغي ان تسود المجتمع الأميركي. ويبدو خلافهم على مسائل اجتماعية وأخلاقية كثيرة مؤجلاً إلى أن يأتي الوقت الذي لا تنفع فيه مسايرة أو مواربة.

تقول رئيسة «التحالف المسيحي» في مقابلة نشرتها جريدة النيويورك تايمز في ١٦ تشرين الثاني ٢٠٠٣، ان مشاركة الإنجيليين المحافظين في الحياة السياسية، وهي ظاهرة حديثة نسبياً، علّمتهم أن يكونوا أكثر مرونة وتسامحاً. غير أنهم غير مستعدين للتساهل في أمر القيم، تلك التي تساهم في تقويضها ثقافة الترفيه والإعلان. ويظهر التشدّد هذا وبشكل خاص في كل ما يتصل بالعائلة.

وتكفي الإشارة إلى دفاع الرئيس بوش، المتأخر بعض الشيء، عن قدسية العائلة والزواج بين رجل وامرأة في وجه جماعات الضغط التي تتسلّح بأحكام صادرة عن هيئات قضائية، وآخره محكمة ماساتشوستس العليا، لكي تدعو للسماح بزواج مثليي الجنس ومنحهم كل حقوق المتزوجين. لقد جاء دفاع الرئيس بوش بعد تردد أزعج الانجيليين المحافظين الذين لم يفتهم التذكير بأن نائب الرئيس ديك تشيني، وله ابنة أعلنت عن مثليتها الجنسية، يتحفظ عن أمر القيود القانونية التي تعيق المساكنة بين شخصين من جنس واحد.

إن الرئيس بوش طمأن الانجيليين المحافظين في خطابه عن «حال الاتحاد» في كانون الثاني ٢٠٠٤ بتشديده علي حمايه قدسية العائلة بواسطة «عملية دستورية» اذا اضطر الأمر. لكنه لم يذهب إلى حد القول بتعديل دستوري يقيّد حرية المحاكمة مثل محكمة ماساتشوستس. ومهما يكن من أمر فان الاتفاق بين طرفي التحالف النافذ، بل الحاكم، في الولايات المتحدة لا ينذر بانفجار الخلاف قريباً. فالهواجس العراقية والحسابات الانتخابية تذكّرنا بأن لا مصلحة لأحد في إظهاره أمام جمهوره. لكن التباين بين المحافظين الجدد و«المحافظين القدماء» من المتدينين جدي وهو يتعدّى شؤون العائلة والزواج الى نموذج المجتمع والعلمنة والتعدد الديني والعلاقة

بين أميركا والعالم.

لم تناقش فصول هذا الكتاب طويلاً كل الشؤون، بل خصّت باهتمامها الموقف من الإسلام والعلاقة بالمسلمين من جهة أولى، والموقف من إسرائيل والعلاقة باليهود من جهة أخرى. وفي هذين المجالين ليس من خلاصة بسيطة جليّة.

فالإنجيليون المحافظون أنفسهم متنازعون بين أولويات وأخرى وهم أحياناً منقسمون. صحيح ان أحداث الحادي عشر من أيلول - سبتمبر أخرجت الى العلن الكثير من المكبوت أو المسكوت عنه من كراهية للإسلام والمسلمين أو خوف منهم. إلا ان لغة العداء والتحقير أثارت، وما تزال، بعض الاعتراضات في صفوف الإنجيليين المحافظين أنفسهم. فمنهم من يبدي انزعاجه من صلفها وقلة تهذيبها. ومنهم من يراها عقبة إضافية أمام إعلان البشارة المسيحية بين المسلمين، لا لأنها تثير عندهم ردّة فعل قاسية ضد المسيحية والمسيحيين فحسب، بل لأنها تخالف أوليات التعارف والاحترام والمحبة، وهي ضرورية لكل شهادة مسيحية في وسط غير مسيحي. وتقترب فئة صغيرة ممن تغضبهم سفاهة المتهجمين على بني الإسلام من الموقف الليبرالي فتؤكد ان واقع الأديان التاريخية، ومثل الإسلام كمثل المسيحية، ذو وجه مظلم. فهناك ممارسات لا إنسانية تسوّغها قراءات من لون معيّن للنصوص التأسيسية والتي لا يخلو بعضها من احتمال الالتباس.

على صعيد آخر، يتفق الإنجيليون المحافظون، رغم قوة حلمهم باستعادة أميركا أمّة مسيحية، في اعتزازهم باحترام الحريات الدينية وتعدد المعتقدات والثقافات في بلادهم. ويفاخر عدد غير قليل منهم بالقول ان أميركا أحسنت وفادة المسلمين، مما يقتضي منهم عرفاناً بجميلها. ويذكّرونهم بما يتوجّب عليهم فعله حتى تحافظ أميركا على حسن ضيافتهم. إلا أن مطالبتهم المسلمين بإعلان الولاء للولايات المتحدة واحترام قوانينها والتكيّف مع طرق العيش فيها، لا تصل الى تهديد حرياتهم الدينية وخصوصياتهم الثقافية. وفي ما عدا التشديد على حرية التبشير في العالم

الإسلامي، لا ترتبط هذه المطالبة عند الإنجيليين المحافظين، بسياسة شاملة وعالمية حيال المسلمين، بخلاف ما يدعو إليه المحافظون الجدد. فأولئك لا يكتفون بما يسمونه التغيير السياسي الجذري في العالم العربي بل يقولون بإصلاح الإسلام وتحديثه. ويجدون الفرصة اليوم ملائمة لتحقيق ذلك من الخارج وعن طريق استعمال القوة.

ليس غريباً ألاّ تكون للإنجيليين المحافظين الرؤية نفسها للعالم التي يجهر بها حلفاؤهم من المحافظين الجدد ومؤيدو اسرائيل اليهود، خاصة عندما يتعلق الأمر بالعالم العربي والإسلامي وإسرائيل. فهم ينطلقون من اعتبارات سياسية وقيمية محافظة ولكنها غير «جديدة». ثم ان مواقفهم متأثرة أيضاً بنظرة فئة واسعة منهم الى نهاية العالم.

لا يشترك الحلفاء الثلاثة في رؤية «الانحطاط البابلي» داخل أميركا وتوقّع «حرب هرمجدون» خارجها. لكن أحداث الحادي عشر من أيلول - سبتمبر دفعت بالكثيرين الى عدم التشدد في اختيار حلفائهم في الداخل، فيما كانوا يوجّهون أنظارهم الى الأعداء في الخارج. لقد اجتمع الحلفاء على أولية أن يربح العالم الحرّ حربه ضدّ «التطرّف الإسلامي» وان «ينقذ اسرائيل من مخاطره» وان يفرض بديلاً في السياسة الدولية لا يُحرجه قانون دولي ولا تقف في طريقه سيادة الدول الوطنية.

إلاّ أن احتمالات الاختلاف بين أصدقاء اليوم لم تغب الى غير رجعة. هناك من يخافه بين صنّاع الرأي اليهود. فهم لا يعرفون ماذا يخبىء المستقبل. بطبيعة الحال، يسعدهم ان تقف جماعات مسيحية إنجيلية محافظة في طليعة الحملات من أجل إسرائيل، تحت شعارات غير مسبوقة في الأوساط التي كانت مؤيدة تقليدياً للدولة العبرية، مثل إطلاق «التحالف الوطني من أجل اسرائيل»، وهو هيئة مسيحية ناشطة على امتداد الولايات المتحدة، حركة مطالبة بحقوق من دعتهم اللاجئين اليهود من الدول العربية. غير ان هذا الارتياح لا يبدّد قلقهم كلّه. فالميول التبشيرية عند الإنجيليين المحافظين، والتي أزعجت اليهود كثيراً في الماضي، كامنة لا غائبة. وهناك أيضاً الخشية من تبدّل في موقف بعض الإنجيليين المحافظين من إسرائيل

يسلك الطريق نفسه الذي سبقهم اليه الكثيرون من بروتستانتيي الخط الرئيسي.

أخيراً، ليس الإنجيليون المحافظون كلاً متجانساً يقوى على رياح التغيير التي تعصف بالمسيحية في أميركا. لقد أدّى انخراطهم في الحياة العامة وتسيّسهم الى تكيّف ملحوظ على غير صعيد. ولا يعني الثبات في تأييد إسرائيل أو ازدياده في السنوات الأخيرة ان تغيّر المواقف مستحيل. ولا نقصد ها هنا تلك النواة الصلبة من الحقباتيين الذين يمعنون في غلوّهم كلما ازدادت الحياة تعقيداً. كما لا نشير الى تلك الفئة من الأصوليين الذين يحسبون إسرائيل تحقيقاً للوعود الكتابية. ولا يراجعون قناعاتهم حين يسمعون أصواتاً إنجيلية محافظة أخرى باتت تعترف ان العهد القديم ليس «سجلاً عقارياً» ولا يوافقونها أنه لا يعطي حقاً لإسرائيل في أرض فلسطين غير قابل للمساءلة، بل يجعله مشروطاً بتحقيق العدالة.

ليس الفكر الديني الخاص بالعلاقة بين المسيحية وإسرائيل مغلقاً، عند كل الإنجيليين المحافظين، بوجه الدعوة الإنجيلية الى العدالة. بطبيعة الحال لا يعني ذلك ان نعد أنفسنا بتغيير كبير وسريع فيما نحن نتفرج على المسيحية الأميركية.

ولا يزعم هذا الكتاب انه وضع دليلاً متفائلاً للناشطين في الدفاع عن المسلمين والانتصار لفلسطين. ولا هو أراد أن يعدّد، للمرة الألف، ما يتوجب على العرب، مسيحيين ومسلمين، ان يقوموا به حتى يربحوا ما تعوّد أصدقاء الولايات المتحدة ان يسموه «الحرب الإعلامية»، بديلاً عندهم من حروب أخرى خاسرة أو مستحيلة. حسب هذه الصفحات أنها دعوة الى النظر الى المسيحية في أميركا بعينين اثنتين لا بعين واحدة. لعلّ ذلك يساهم في تعرف أفضل على فرص التأثير ومواضعه، مهما بدت قليلة. فأياً كان من رداءة الأحوال، ليس من قضية خاسرة.

المحتويات

المطابع التعاونية الصحفية ش. م. ل. ، بيروت، لبنان
الطبعة الأولى، شباط ٢٠٠٤

فالقوى الدينية المحافظة تشدّد على فكرة الشعب المختار وتضفي طابع القدسية على نصوص أميركا التأسيسية، مثل الدستور وإعلان الاستقلال، وتتمسّك بالنظام الاقتصادي تمسّكاً شبه ديني، وتعتبر طرق العيش الأميركية نموذجاً يُحتذى، وتشدّد على الحرية الدينية على نحو يفوق حرصها على الحريات المدنيّة والسياسية.

أما المتدينون الليبراليون فيقللون من شأن الفرادة الأميركية. وإذا ما اعتبروا أن الله يبارك أميركا، يسارعون إلى القول إن هذه المباركة مشروطة بتحقيق العدالة، وهي في كل حال لا تميّز شعباً بعينه عن سواه من الشعوب.

ان ثنائية القطبين داخل البروتستانتية الأميركية تشغل كل صفحات الكتاب(...)

ولا يغيب عنه، بعد ذلك، أن يظْهر الانقسام بين البروتستانتيين في أمر إسرائيل والتنوّع في مواقف الإنجيليين المحافظين أنفسهم. فالبروتستانتية الأميركية ليست مسيحية متهوّدة، كما يقول البعض بخفة خطيرة، ولا كل الإنجيليين المحافظين صهاينة، كما يستسهل القول البعض الآخر (...)

لذلك، يحاذر الفصل الرابع، الذي يتحدث عن لقاء الماسيانيين، الخلط بين النوازع الدينية وشبه الدينية والحسابات السياسية. فالتحالف الراهن بين الإنجيليين المحافظين الجدد وجماعات الضغط اليهودية المؤيدة لليمين الإسرائيلي ليس زواجاً كاثوليكياً. فلكل فئة منهم ماسيانيته.

من "تقديم" ا

يعمل **طارق متري** في مجلس الكنائس العالمي مسؤولاً عن قسم الحوار الديني وع
المسيحيين والمسلمين. درّس ويدرّس في جامعة البلمند وجامعتي جنيف وامستردا
"زائراً" في جامعة هارفارد عام ٢٠٠٣.


9 782842 894856
ISBN 2-84289-485-5